زمن أمير الباهي

خالد عبد العظيم عويس

الكاتب: خالد عبد العظيم عويس

التدقيق اللغوي: أحمد إبراهيم

الإخراج الفني: ضياء فريد

تصميم الغلاف: محمد مجاهد

رقم الإيداع: ٢٠١٩/٢٣١٦٠

الترقيم الدولي: ٢-٣١-٦٦٨٩-٩٧٧-٩٧٨

كاريزما للنشر والتوزيع

9 شارع مسجد المغفرة المتفرع من شارع العشرين

بجوارمدارس حسام الدين الخاصة فيصل الجيزة.

موبايل : 01126026691 01061813345

01009823984

زمن أمير الباهي

رواية

خالد عبد العظيم عويس

إهداء

من الجمال أن تهدي عملك إلى أب أو أخ أو حتى صديق، ولكن الأجمل أن تهديه إلى إنسان لم تره من قبل لمجرد فقط أن صوته العذب قد لامس شغاف قلبك وجعل روحك ترفرف عاليًا لتهجر الواقع وتعيش هائمة في عالم آخر؛ حيث المشاعر الدافئة الصادقة والحنين إلى الماضي بدموع الشوق الحارة، لذا قررت أن أهدي هذا العمل للشيخ محمود ياسين التهامي الذي ألهمني صوته كل حرف من حروف هذه الرواية متمنيًا من الله عز وجل أن يحفظه ويسدد خطاه ويجمعني به على الخير.

١

مشاعر كثيرة ومتباينة انتابتني عندما وضعت قدمي بعربة القطار، فعلى الرغم من أنني بدأت في العقد الرابع من عمري إلا أن هذه هي المرة الأولى التي أستقل فيها قطارًا، فكان بالفعل شعورًا غريبًا، أما الأغرب والذي قد يصل إلى حد الجنون أنني أستقل هذا القطار ولا أعرف وجهته ولا أين سيتوقف، كل ما أعرفه أنه متوجه إلى الصعيد وأنا متوجه إلى الأقصر، تلك المحافظة التي لا أعرف عنها أي شيء سوى أنها محافظة تاريخية أثرية، أما بالنسبة إلى تفاصيلها، موقعها من القاهرة، طباع أهلها، لهجتهم، فأنا لا أعرف شيئًا، وإن كانت بعض التفاصيل قد بدأت تتضح بمجرد أن ركبت القطار وبدأت أستوضح الأمور من حولي وأدقق النظر في وجوه الراكبين وأسترق السمع لأفهم هذه اللهجات والكلمات الصعبة، وما هي إلا دقائق معدودة تأكدت من خلالها أن كل من حولي من أهل الصعيد البسطاء، الذين دفعتهم ظروف الحياة الصعبة لترك موطنهم الأصلي والتوجه إلى القاهرة ومدن الوجه البحري للبحث عن

لقمة العيش، أشخاص بسطاء لأبعد الحدود، تتجلى بساطتهم في ملابسهم التقليدية التي تذكرني بملابس أبي (رحمه الله)، فهو نفس الجلباب الواسع ذي الأكمام الواسعة، وإن كانوا قد اختلفوا عن أبي في تلك العمامة البيضاء المربوطة على رؤوسهم باحترافية عالية، والعصا الطويلة التي يحرص الكثيرون منهم على الإمساك بها، أما عن ملامحهم، فأنا أعتقد أنها تحتاج إلى مؤرخ بارع ليسطر منها تاريخ مصر بأكمله بداية من أحمس والهكسوس وحتى الآن، فهي وإن كانت تحمل كل معاني البساطة، فهي في ذات الوقت تحمل الكثير من قسمات الشقاء والفقر والبؤس، وجوه تضحك بكل معاني الصفاء وطيبة القلب، فتجد نفسك تضحك معها بتلقائية غريبة، ثم تعبس فترى فيها حزنًا عميقًا وألمًا دفينًا وأسرارًا مختبئة في النفس، ولكنها تظهر في وجوههم بوضوح من خلال تلك القسمات والخطوط التي تظهر جليّة في جباههم.

أعتقد أن ما رأيته كان شيئًا عاديًّا ومألوفًا لأي شخص، ولكنني على يقين أن الاختلاف كان في شخصي أنا، فأنا بطبعي شخص انطوائي بعيد كل البعد عن الاجتماعيات، حياتي ضيقة لأبعد الحدود فلم أخرج من القاهرة من قبل إلا لاستكمال دراستي خارج مصر كلها، وعلاقاتي الشخصية لا تتعدى حدود أسرتي، وعملي كوني طبيبًا، فكان من الطبيعي أن أفزع مما رأيته في القطار، وكأنني في حلم غريب أو كأنني أشاهد رواية مسرحية يرتدي أبطالها ملابس غير ملابسنا ويتحدثون بلهجة غير لهجتنا المعتادة.

بعد عناء التنقل بين عربات القطار، وسط هذا الزحام وجدت أخيرًا مقعدًا خاليًا في نهاية العربة، فوضعت حقيبتي أمامي وجلست، وما هي إلا دقائق قليلة وبدأ القطار يتحرك، ولا أنكر أن مع حركته أصابتني رعشة قوية وقلق غريب وصل إلى حد الخوف، بل الرعب، فهي بالفعل مخاطرة غريبة أن تستقل قطارًا لا تعرف وجهته، وتُقدم على خطوة لا تأمن نهايتها، ولكنها مغامرة وقد قبلتها مع أنني شخص حريص لا يحب المغامرات.

استمر تفكيري وشرودي بعد تحرك القطار حوالي نصف الساعة، ثم نظرتُ بجانبي فوجدت شابًّا يجلس على المقعد الملاصق لمقعدي، وكان تقريبًا في نفس عمري أو يكبرني قليلًا، فقررت أن أفتح معه حوارًا لعله يبعدني عن التفكير ويقتل هذا الوقت الذي يمر بطيئًا فملتُ إليه وسألته: «إحنا فين دلوقتي يا أخ»؟

فأجاب من دون اهتمام بسؤالي: «إحنا لسه في القاهرة».

صمتُّ قليلًا ثم سألته مرة أخرى: «باقي كتير على الأقصر»؟

وهنا انفجرت من الشاب ضحكة هزت عربة القطار ولفتت انتباه المحيطين وجعلتني أضحك معه، وأنا لا أعرف سبب ضحكه، ولكنها ضحكة جميلة خرجت منه بتلقائية وبساطة جعلتني أتأكد أنه لا يقصد إحراجي أو استفزازي، ولكن يبدو أنني قد سألت سؤالًا غريبًا ليس في محله، وبالفعل تأكدت من ذلك عندما انتهى الشاب من ضحكته الطويلة ثم نظر نحوي وسألني مبتسمًا: «إنت منين يا بيه»؟

فقلت: «أنا من القاهرة».

فسألني مرة أخرى: «وأول مرة تنزل الصعيد»؟

فأجبته: «أيوه فعلًا أول مرة أنزل الصعيد».

فابتسم الشاب ثم قال بنبرة أعتقد أنها تحمل إشفاقًا على جهلي:

- «نام يا بيه واشبع نوم! لسه باقي على الأقصر أكتر من عشر ساعات».

لم أجد ما أرد به على جملته الأخيرة من هول المفاجأة وأصابني صمت استمر لدقيقة تقريبًا، وأنا أنظر في عينيه مصدومًا ثم بدأت أسأل نفسي: عشر ساعات!

هل سأجلس في هذا المكان عشر ساعات؟

نعم كنت أعرف أنها رحلة صعبة، ولكنني لم أتخيل أن تمتد لعشر ساعات وسط هذا الزحام والضوضاء وتلك الأجواء التي لم أعتدها، ولكن لا مفر، فقد قبلت المغامرة من البداية، ويجب أن أنهيها فقد تحمل لي الخير والسعادة التي أبحث عنهما.. قررت في النهاية أن أستجيب لنصيحة الشاب فأغمضت عيني وأسندت رأسي إلى مسند المقعد لعلي أنام مثل النائمين، ولكنني بمجرد أن أغمضت عيني رأيتها أمامي بجمالها ورقتها وخفة ظلها ووجدتني أتذكر أول مكالمة جمعتني بها وكأنني أحفظها عن ظهر قلب.

٢

كانت رسالة نهلة مثل العديد من الرسائل التي تصلني كل يوم على صفحتي الشخصية على موقع التواصل الاجتماعي بصفتي طبيبًا ذائع الصيت في مجال الطب النفسي، فقد كنت أستقبل على صفحتي العديد من الاستفسارات سواء من المرضى أو من طلبة الكليات الذين يحتاجون نصائحي في الكثير من الأمور الطبية، وقد كنت أتفاعل مع هذه الرسائل بالردود المختصرة على الأسئلة، أو تحديد المواعيد للحالات التي تحتاج للكشف، ولكنني توقفت كثيرًا عند تلك الرسالة، فلأول مرة تصلني رسالة من محافظة الأقصر، ولأول مرة يُطلب مني توقيع الكشف عبر الإنترنت ومن خلال الكاميرات نظرًا لبعد المسافة وصعوبة سفر الحالة من الأقصر إلى القاهرة، فكرتُ قليلًا قبل الرد على هذه الرسالة، ولكنني اتخذت قراري سريعًا واعتبرتها حالة إنسانية، وكتبت ردي على الرسالة بالموافقة وتحديد الموعد، وفي اليوم التالي وفي الموعد المحدد تلقيت رسالة من صاحبة الحالة «نهلة» تخبرني بأنها في الانتظار لعرض حالة أخيها

المريض، وعلى الفور استجبت لرسالتها وفتحت كاميرتي للاطلاع على الحالة، وكانت لطفل في السابعة من عمره فَقَدَ النطق دون سبب معروف، حاولت في البداية جذب انتباه الطفل واستثارته ببعض الأسئلة دون جدوى إلى أن ظهرت أمامي فتاة تبتسم ابتسامة رائعة، وتنبهني إلى أن الطفل غير منتبه؛ لأن هناك عطل في الاتصال وأن صوتي مكتوم، فتداركتُ الخطأ على الفور وقمت بفتح الصوت وقبل أن أكمل فحصي سألتها: «إنتي مين»؟

فقالت بأدب جم: «أنا نهلة، وده -ثم أشارت إلى الطفل الجالس بجوارها- وده كريم أخويا فاقد النطق من شهرين».

فسألتها: «وإنتي وحدك اللي عايشة معاه وبتهتمي بحالته»؟

فقالت: «لا كلنا معاه، لكن أنا الأكتر بحكم دراستي».

فسألتها مرة أخرى: «وإنتي بتدرسي إيه»؟

فقالت: «أنا في سنة تالتة في كلية الطب».

فقلت مبتسمًا: «يعني زميلة المستقبل»؟

فردت بأدبها: «لا العفو، أنا لسه في أول السلم وحضرتك من أشهر المتخصصين في الطب النفسي في مصر».

كانت نهلة تتحدث بثقة عالية، وكأنها تعرفني منذ زمن بعيد والأجمل من ثقتها كانت تلك الابتسامة الرائعة التي ترتسم على وجهها بين الحين والآخر، والتي جعلتني أنسى (كريم) وحالته، وأنسى الوقت الذي بدأ يمر بيننا دون حساب، حتى إن هذه المكالمة التي كنت قد حددت لها خمس

دقائق قبل بدايتها قد تعدت النصف ساعة، وأنا مستمتع بكلامها الرقيق وأسلوبها الممتع في الحوار وثقتها العالية بنفسها.

شرحتْ نهلة حالة أخيها شرحًا دقيقًا، بينما كنت أتفحص بدقة أكثر كل ملامحها التي سحرتني، فقد كانت تتمتع بوجه شديد البياض مستدير ممتلئ وعينين سوداوين واسعتين تحويان سحرًا يجذب القلوب قبل العيون، وخدود نضرة وردية وشفاه صغيرة مرسومة بدقة، وشعر أسود ناعم يداعب وجهها الجميل، كنت أنظر إليها وكأنها لوحة فنية جميلة أسرتني كل تفاصيلها، حتى فاجأتني بسؤال جعلني اضطرب وتتعثر الكلمات على شفتي، وذلك عندما انتبهت فجأة لكلامها وهي تسألني: «حضرتك معايا يا دكتور»؟

فأجبتها مضطربًا: «أيوه طبعًا معاكي».

فسألتني وكأنها تتأكد من انتباهي لكلامها السابق: «طيب إيه رأيك في الكلام ده»؟

فأجبتها وأنا لا أعرف ما قالته ولم أنتبه لحرف واحد من كلماتها: «كلام جميل طبعًا».

فسألتني مرة أخرى: «يعني إيه المناسب لكريم دلوقتي»؟

فسكتُ قليلًا وتظاهرت بأنني أجمّع بعض المعلومات والفكر ثم أجبتها: «حالة كريم هتحتاج إني أشوفه أكتر من مرة علشان أقدر أشخّص الحالة كويس».

فابتسمت نهلة مبدية الاستعداد لذلك ثم قالت: «اللي تشوفه حضرتك.. تحب تشوفه تاني إمتى»؟

فأجبتها وأنا أتظاهر بعدم الاهتمام بذلك، حتى لا تلاحظ إعجابي الشديد بها: «ممكن أشوفه بكره في نفس المعاد».

***

وعلى الرغم من مرور عام تقريبًا على هذه المكالمة إلا أنني ما زلت أتذكر كل كلماتها، وكأنها أغنية حفظتها عن ظهر قلب، فقد كانت هذه المكالمة وهذه الصدفة الغريبة نقطة تحول كبيرة في كل حياتي، وفي وقت قصير جدًّا امتلكت نهلة عقلي وتفكيري وحبي.

ولا أدري إن كانت نهلة بالفعل تستحق كل هذا الحب وكل هذا التغير الذي طرأ على حياتي، هل بالفعل هي مختلفة عن كل بنات العالم! هل جمالها ورقتها ونعومتها من النوع الساحر الذي لا يقاوم، أم أن الاختلاف كان في شخصي أنا! ذلك الشخص المنطوي الذي عاش أكثر من ثلاثين عامًا من عمره محرومًا من كل متع الحياة في ظل حياة رتيبة روتينية خالية من أي تغيير، حتى عندما تزوج كان زواجه تقليديًّا فلم يعرف معنى الحب والغرام، لم يعش تجربة عاطفية يعرف فيها طعم الشوق والهيام، لم يسهر ليلة ينتظر فيها كلمة حب من حبيبته، لم يخرج من بيته مرة ليقابل فتاة ويقضي معها وقتًا جميلًا، شخص عاش للعلم والعمل فقط، لم ينخرط في الحياة بتجاربها وأفراحها وأحزانها ومآسيها، فعاش على هامشها يخشى التجربة وإن كان يعالج هموم وآلام الناس إلا أنه كان يتابع

همومهم وآلامهم عن بُعد، شخص كبر وتربى وتعلم ونجح وتفوق وهو في برج عاجي بعيدًا عن الناس والتجارب، ولعل هذه الظروف والأجواء هي التي زرعت بداخله الانطواء والوحدة، فلو أنه عاش حياته مثلما عاشها الكثيرون في اللهو والمتع والصداقات لما مثلت نهلة في حياته أكثر من مجرد نزوة ينساها مع مرور الوقت، ولكن كانت حياته كتابًا مفتوحًا شديد الوضوح فدخلت فيه نهلة وبجمالها ورقتها وخفة ظلها فعبثت بكل صفحاته.

٣

مر من زمن الرحلة أكثر من ساعتين، وقد بدأ الهدوء يسيطر على الجميع واستسلم معظم الراكبين إلى النوم، وأنا سارح في أفكاري أحاول أن أنام مثلهم، ولكن هيهات! فبعد أن استحوذت نهلة على أفكاري في هاتين الساعتين فوجئت بهاتفي يرن فأخرجته من حقيبتي لأجد اتصالًا منها، وبدأت تلقي بأسئلتها المرحة كالعادة: «إيه يا بني، إنت فين»؟

فأجبتها بسؤالي عن حالتها: «إزيك يا نهلة، عاملة إيه»؟

فردت بخفة ظلها المعهودة: «أنا أحسن منك»!

- «هههههه يا رب دايمًا تكوني أحسن مني».
- «قولي إنت فين دلوقتي يا أمير»؟
- «والله ما اعرف يا نهلة».
- «طيب خرجت من القاهرة من كام ساعة»؟
- «من ساعتين تقريبًا».

فقالت وكأنها خبيرة بالطرق والأسفار: «امممممم تبقى أكيد في المنيا».

فقلت: «مش عارف والله.. بس بيقولوا لسه باقي سبع ساعات، نامي إنتي يا حبيبتي أو ذاكري.. المهم متشغليش بالك وأنا لما أقرب من الأقصر هتصل عليكي».

فقالت بدلالها الرائع: «لأ مليش دعوة.. إنت وحشتني أووووووي.. يلا تعالى بسرعة»!

- «حاضر يا حبيبتي».
- « طيب المهم خلي بالك من نفسك يا حبيبي».
- «حاااااااضر، يلا سلام».

أغلقتُ هاتفي وأسندتُ رأسي إلى مقعدي محاولًا النوم مرة أخرى، ولكنني سمعت صوتًا جذب انتباهي وكأنه صوت أنشودة دينية جميلة.. فالتفت بجانبي إلى الشاب الصعيدي وسألته: «هو إيه اللي بتسمعه ده»؟

فابتسم الشاب مرة أخرى متعجبًا من سؤالي ثم قال: «طيب إنت منزلتش الصعيد قبل كده وقلنا عادي، إنما كمان متعرفش الشيخ محمود التهامي»!

فأجبته مسرعًا: «والله ما أعرفه، هو مشهور»؟

فابتسم الشاب ثم قال: «مفيش حد في الصعيد يا بيه مش بيسمع الشيخ محمود التهامي».

فطلبت منه أن أنقل هذه الأنشودة على هاتفي، فاستجاب الشاب على الفور وأثناء ذلك سألته: «إنت اسمك إيه؟ وشغال إيه»؟

فقال: «أنا مصطفى من أسوان وشغال مقاول في القاهرة».

فقلت: «ربنا يوفقك يا مصطفى».

فسألني: «وإنت اسمك إيه؟ وشغال إيه يا بيه»؟

فقلت: «أنا أمير يا مصطفى، اسمي أمير الباهي، وشغال دكتور أمراض نفسية وعصبية».

فانتفض مصطفى متسائلًا: «دكتور المجانين»!

لم أنزعج من تعليقه، بل ضحكت ضحكة عالية لفطرته الجميلة وخفة ظله وبساطته في التعبير عما بداخله ثم طمأنته قائلًا:

- «لا متخافش يا مصطفى.. مفيش مجانين ولا حاجة، إيه رأيك نسمع الأغنية»؟

وضعت سماعة الهاتف في أذني، وشغلت هذه الأنشودة التي جذبتني كلماتها وبدأت أسمع باهتمام:

رأى عزولي لوعتي وصبابتي
فبكى لعظم تهتكي وغرامي
وأباح دمعي
بما تكن سريرتي
دع عنك عزلي اااااه
في الهوى وملامي

لو زار طيفك يا حبيبي
يومًا بالكرى
لقنعت منه أنا
ولو برد سلام
أيا واعدي بالوصل
منه تعطفًا
أنجز بوصلك اااه
قبل يوم حمامي
ولقد شُفيت من الغرام
من الغرام بمدحه
فالذكر نقلي اااااه
والحبيب مدامي

ما هذه الكلمات الغريبة؟ ما هذا الجمال؟ ما هذا الصوت الذي جعلني أهتز شوقًا؟

بالفعل لأول مرة أتفاعل مع أنشودة أو أغنية هذا التفاعل، وعلى الرغم من أنها تحمل طابع الأناشيد الصوفية الدينية إلا أنها أيقظت بداخلي كل معاني الشوق والحنين لنهلة، حتى إنني كررت هذا المقطع أكثر من مرة، ثم التفتُ إلى مصطفى مرة أخرى وسألته:

- «هو الشيخ محمود التهامي ده منين يا مصطفى»؟

ولكن للأسف كان مصطفى قد نام نومًا عميقًا، وتركني وحيدًا مع الشيخ محمود وألحانه الجميلة، التي أدخلتني في عالم جميل مليء بالمشاعر الجميلة والأحاسيس الرائعة، حتى أحسست وكأنني أحلق بين السحاب مغمض العينين، لا أرى إلا الحب بكل معانيه وصورة نهلة التي لا تفارقني ولا أسمع إلا صوتها العذب الجميل بعد أن أسرتني وامتلكت كل تفاصيل حياتي.

جعلتني كلمات الشيخ محمود أسترجع كل كلمات نهلة والابتسامة تداعب وجهي كالعادة، فقد كانت مرحة خفيفة الظل حتى إنني أتذكر كلماتها فأجدني أبتسم ولو كنت في غمرة همومي، فلا أنسى تلميحاتها الذكية الساخرة في ثاني لقاء بيننا عبر شبكة التواصل الاجتماعي، وذلك عندما بدأ الحوار بيننا ولاحظتْ تركيزي الشديد على عينيها السوداوين، فقالت وهي تبتسم: «واضح إن حضرتك مركز أوي مع حالة كريم»!

وقتها تأكدت من أنها فتاة لمّاحة شديدة الذكاء، فقد لاحظتْ من دون شك أنني معجب بجمالها الساحر، وأن هذه المكالمة لم تكن من أجل التأكد من حالة أخيها، بل كانت حجة لمواصلة الكلام معها والتقرب إليها، ولا أنكر أن جملتها غير المتوقعة وابتسامتها الرقيقة قد سببا لي إحراجًا كبيرًا إلا أنهما في نفس الوقت كانتا إشارة شديدة الواضح منها بالموافقة على نظراتي، بل وأيضًا حملتا كل معاني الإعجاب، والدليل على ذلك أن ابتسامتها لم تفارق وجهها طوال المكالمة، وهذا ما جعلني أتجرّأ في حديثي معها وأحاول بقدر الإمكان جمع ما أستطيع جمعه من معلومات عن شخصيتها وخلقها وأهلها، فكنت في طيات حديثي عن كريم أتعمد

أن أسألها سؤالًا يخصها أو يخص دراستها في تلميح واضح للإعجاب بها، فسألتها وأنا أنظر لكريم: «إنتي قولتي لي كم سنة»؟

فأجابت بخبث وخفة ظل رائعة والابتسامة مرسومة على وجهها: «سبع سنين يا دكتور».

فضحكتُ بصوت عالٍ معجبًا بذكائها الرائع ثم قلت موضّحًا: «أنا أقصدك إنتي مش كريم».

فردت بابتسامتها الساحرة: «طيب ما أنا عارفة، بس حبيت أتخابث شوية زيك، وعلى العموم أنا ١٩ سنة».

فنظرتُ إلى كريم متظاهرًا بتوجيه السؤال إليه: «يعني إنت شايفني خبيث أوي كده يا كريم؟ طيب أوكي، أنا هخاصمك ومش هكلمك تاني».

فنظرتْ إليَّ بعينيها الجمليتين نظرة جعلتني أشعر أن أنوثة بنات حواء جميعهن قد حيزت لها، ثم لوت عني وجهها والتفتت إلى كريم قائلة: «بس كريم ميقدرش على زعلك ولا خصامك».

وكانت هذه هي الإشارة الثانية التي جعلتني أثق أنني وإن كنت معجبًا بها ومشدودًا إليها، فإن ما بداخلها قد تعدّى مرحلة الإعجاب، وهذا ما جعلني أتجرّأ وأتشجع أكثر وأكثر للخوض في كل تفاصيل حياتها قائلًا: «نهلة، ممكن أسألك سؤال خاص شوية»؟

فأجابت على الفور: «أيوه طبعًا! اتفضل».

ـ «ممكن أعرف...»؟

ولكن للأسف قبل أن أكمل سؤالي ظهر في الغرفة رجل طويل القامة بشرته سمراء يرتدي جلبابًا أبيض، وهنا بدأت نبرة صوتها تتغير وملامحها أيضًا وعادت مرة أخرى إلى طريقتها الرسمية في الكلام، فتأكدت أن ذلك الرجل هو والدها، وبالفعل جلس الرجل على المقعد المواجه للكاميرا ووجه إليَّ التحية وبدأ يسترسل في كلامه قائلًا: «مش عارف أشكرك إزاي يا دكتور أمير على مجهودك ووقتك اللي بتضيعه مع ابني، لكن بتمنى من الله أن يعوضك ويكون مجهودك في ميزان حسناتك».

تحدث الرجل كثيرًا عن حياته وأسرته وابنه المريض، وعرفت من حديثه الطويل أنه رجل عصامي.. بدأ فقيرًا ثم رحل بأسرته عن مصر، واتجه إلى الخليج، وهناك رزقه الله بنهلة وكريم، فأصر على أن يعلمهما أحسن وأرقى تعليم على الرغم من أميته، فعاش في الخليج أكثر من خمسة عشر عامًا ولكنه اضطر للرجوع بعد أن حصلت نهلة على الثانوية العامة وأصرت على دراسة الطب في مصر، فاستجاب لرغبتها وعاد بعد أن أصبح ميسورًا.

أنهى الرجل كلامه معي ثم اعتذر عن البقاء لانشغاله ببعض الأمور وهنا عادت نهلة لابتسامتها واستدارت في جلستها لأرى وجهها الجميل الذي حرمني منه والدها فداعبتها قائلًا: « نهلة، إزاي إنتي حلوة كده وأبوكي وحش وأسمر بالشكل ده»؟

فوضعت يديها على فمها لتكتم ضحكتها العالية حتى لا تصل إلى أبيها خارج الغرفة ثم قالت: «مش هرد على سؤالك، وعلى فكرة بابا زي القمر».

فابتسمت وقلت وأنا أنهي المكالمة لاستكمال عملي: «طيب يا نهلة.. أنا لازم أقفل دلوقتي عشان مواعيد العيادة، بس عايز أقولك قبل ما أقفل إن أبوكي مش زي القمر ولا حاجة.. بنته هيا اللي زي القمر، يلا، مع السلامة».

ولكن قبل أن أنهي الحوار طالبتني بالانتظار ثم توجهت إلى باب الغرفة وأغلقته وعادت لتسألني: «هنتكلم تاني إمتى»؟

ولا أنكر أن سؤالها قد أسعدني إلا أنني تظاهرت بعدم الاهتمام قائلًا: «لو كريم تعب أو احتاجتي أي نصيحة لحالته ابعتيلي رسالة».

فتغيّر وجهها وارتسمت عليه علامات الغضب والضيق وسألتني متعجبة: «كريم! هو إنت مش هتكلمني إلا عشان كريم! يعني لو أنا اللي احتجت لك مش هتتكلم»؟

فأجبتها مبتسمًا: «ده يشرفني ويسعدني».

فردت بتلقائية أظهرت ما بداخلها قائلة: «بجد يا أمير»!

ومن الواضح أن الكلمة قد خرجت من فمها دون وعي فاحمرّ وجهها وصمتت للحظة ثم اعتذرت قائلة: «أنا آسفة! أنا آسفة يا دكتور أمير»!

كنت أتابع اضطرابها وتلعثمها بابتسامة تنطق بما بداخلي من حب تجاهها فقد كنت معجبًا بكل تفاصيلها حتى خجلها ووجهها الذي احمرّ فجأة كان ساحرًا، وحتى أعيدها إلى هدوئها مرة أخرى داعبتها مرة أخرى

قائلًا: «لا ولا يهمك يا نهلة.. قولي أمير براحتك.. إنتي كلها سنتين تلاتة وتبقي دكتورة زميلة».

فابتسمت وقالت بلهفة: «يعني هنتكلم تاني»؟

فأجبتها: «أكيد هنتكلم، بس هنتكلم عن حالة كريم تاني»؟

فاحمرّ وجهها مرة أخرى من شدة الخجل ثم قالت: «لا يا دكتور، مش هنتكلم عن كريم وكمان مش هنتكلم هنا، هكلمك من أوضتي فوق».

فداعبتها بسؤالي: «وأبوكي هيكون موجود»؟

فابتسمت مرة أخرى ابتسامتها الساحرة ثم قالت: «هستناك بكره الساعة عشرة بالليل».

٤

استطاعت نهلة بذكرياتها الجميلة أن تفعل ما فشلتُ فيه من بداية الرحلة، فقد تعبت كثيرًا منذ أن وضعت قدمي في القطار.. وتحايلت على النوم كثيرًا للهروب من هذه الرحلة بساعاتها الطوال دون جدوى، ولكن وكالعادة غرقتُ في بحر ذكرياتي مع نهلة.. ثم نظرت إلى هاتفي فجأة فاكتشفت أن الساعة قد تعدّت الرابعة عصرًا، ولم يتبق على انتهاء الرحلة إلا ثلاث ساعات فأحسست بسعادة تغمرني وهزة عنيفة بدأت تسري في جسدي، أعتقد أنها هزة الفرح والسعادة، ثلاث ساعات وسأقابلها وأملّي عيني من ملامحها التي طالما حلمت برؤيتها على الطبيعة دون حواجز أو كاميرات، ساعات قليلة وأجلس بجوارها وأحدّثها وأسمع صوتها وضحكاتها التي تأسر قلبي ولكن، على الرغم من أنني اشتقت كثيرًا لهذا اللقاء، إلا أنني لم أفكر فيما سيحدث فيه، ماذا سأقول عندما أراها لأول مرة! كيف سيكون أول سلام! هل أضع يدي في يدها! أم أنها ستخجل! هل سأداعبها بكلامي الساخر مثلما أفعل معها في محادثاتنا الهاتفية! هل

أستطيع أن أقترب منها مثلما تمنيت! أم سيكون الوضع على الطبيعة مختلفًا ويأخذ الطابع الرسمي المتحفظ!

أسئلة كثيرة دارت في ذهني عن شكل وطبيعة هذا اللقاء المنتظر، ولكنني في النهاية آثرت أن أريح عقلي من التفكير وأترك الأمور تسير على طبيعتها دون تفكير، فما تحمله الصدف قد يكون أفضل من كل الترتيبات، ثم التفت بجانبي فجأة فوجدت مصطفى قد استيقظ من نومه وانشغل بهاتفه وفي يده الأخرى كوب من الشاي فسألته مداعبًا: «إيه اللي في إيدك ده يا مصطفى»؟

فقال: «ده شاي يا دكتور».

فقلت متلهفًا: «يا بني ده أنا هتجنن من أول الرحلة على كوباية شاي، ليه مجبتليش معاك»؟

فقال بتلقائيته المعهودة: «والله كنت هجيبلك بس لقيتك نايم وتقريبًا كنت بتحلم كمان».

فسألته متعجبًا: «طيب وعرفت منين إني كنت بحلم يا مصطفى»؟

فقال: «بصراحة شفتك بتبتسم وإنت نايم قلت أكيد ده حلم».

فقلت: «لا يا مصطفى أنا أصلًا مكنتش نايم».

فسألني مندهشًا: «يعني بتضحك لوحدك يا دكتور»؟

فقلت مؤكدًا كلامي: «آه والله! ما نمت».

فقال بخفة ظله: «آآآه صح! إنت قلتلي إنك دكتور أمراض نفسية».

فسألته ضاحكًا: «قصدك إيه يا مصطفى»؟

- «ولا حاجة يا دكتور أنا بس بهزر معاك».

«طيب سيبك من الهزار وقولي فين الشاي ده»؟

فقال: «هو في بوفيه في العربية التانية، بس متتعبش نفسك، هو بتاع الشاي هيعدي دلوقتي».

وبالفعل ما هي إلا دقائق معدودة ومر بائع الشاي، فأحضر مصطفى الشاي بأدبه الجم، ووضعه أمامي، فوضعت يدي في جيبي لأخرج الثمن إلا أن مصطفى فاجأني بيمين صعيدي مغلظ، وقال وهو يمسك بيدي: «عليا الطلاق ما هتدفع تمن الشاي، عيب يا دكتور إحنا صعايدة وإنت ضيف عندنا».

فقلت مندهشًا من تسرّعه: «ماشي يا مصطفى، تسلم إيدك، بس أنا زعلان منك».

فسألني: «ليه يا دكتور»؟

فقلت: «مش عايزك تتسرع وتحلف بالطلاق تاني».

فقال مبتسمًا وهو يقلب الشاي: «يا دكتور أنا أصلًا مش متجوز»!

تعجبت من خفة دمه وأسلوبه التلقائي في التعامل وضحكت ضحكة عالية، اندهش منها مصطفى حتى إنه علق على ذلك قائلًا: «أول مرة تضحك بصوت كده يا دكتور من أول ما بدأت الرحلة».

فسألته: «هو إنت مركز معايا أوي كده»؟

فقال: «بصراحة آه».

فسألته باهتمام: «طيب لاحظت إيه كمان»؟

فقال: «بصراحة، حاسس إنك غريب أوي».

- «هههههه ليه بس يا مصطفى»؟
- «يعني شكلك ووضعك والبدلة والكرافتة والنضارة والريحة الحلوة والأبهة والهيبة بيقولوا حاجة، لكن إنت جواك حاجة تانية خالص».

فاندهشت لكلامه وتفسيره للأمور حتى إنني وضعت كوب الشاي أمامي وانتبهت لكلامه أكثر ثم سألته: «وضحلي طيب إيه الغريب»؟

فقال: «لبسك وشكلك وصمتك بيقولوا إنك إنسان متكبر لكن الحقيقة إنك إنسان طيب ومتواضع أوي، وعايز أقول حاجة تانية بس خايف تتضايق مني».

فقلت نافيًا: «لا بالعكس، أنا عايزك تقول كل حاجة».

فاستأنف تحليله قائلًا: «صمتك ده يا دكتور وتفكيرك خلوني أحس إن جواك بحر من الأسرار والهموم والأحزان، إنت شايل كتير أوي يا دكتور».

كنت أستمع إلى كلام مصطفى وأنا مندهش من تقييمه ورؤيته الثاقبة، فهل أنا لهذه الدرجة كتاب مفتوح أمام الجميع! هل ملامحي تنطق بما بداخلي، أم أن هذا الشخص التلقائي عبقري إلى هذا الحد الذي جعله يقرأ كل ما بداخلي ويحس بما أحسه من هموم وأحزان! ومن الواضح أن مصطفى كان مستمرًّا في حديثه وتشخيصه لحالتي وأنا غارق في تفكيري

ولم أنتبه إلا عندما وضع يده على كتفي قائلًا: «إنت رحت فين يا دكتور؟ أنا بكلمك وإنت مش معايا خالص».

فسألته بعد أن انتبهت لكلامه: «بقولك إيه يا مصطفى، هو ينفع أدخن سيجارة هنا»؟

فعاد إلى تلقائيته الجميلة مرة أخرى وسألني: «هو إنت بتدخن»؟

فقلت بعد أن ضحكت ضحكة عالية: «ما إنت كنت ماشي كويس يا مصطفى، إيه اللي حصل؟ أكيد يعني لما أطلب أدخن سيجارة يبقى بدخّن».

فقال: «طيب اطلع بين العربيتين ودخن براحتك؛ لأن التدخين هنا ممنوع».

فسألته: «وإنت مش هتيجي معايا»؟

فقال: «خلاص يلا نطلع ندخن مع بعض، وكمان خد سيجارة من معايا».

فقلت: «لا يا سيدي أنا مش بغير سجايري، خد إنت سيجارة مني».

فقال وهو ينظر إلى السيجارة: «وكمان بتدخن سجاير مستوردة! ده إنت شكلك مرتاح أوي».

لا شك أن اقتراب الرحلة من نهايتها واقترابي من رؤية نهلة جعلاني أشعر بسعادة غريبة، حتى إن الخوف الذي انتابني في بداية الرحلة قد زال وبدأت أتأقلم مع الوضع المحيط بي داخل القطار، وأتفاعل وأتحدث وأضحك مع الجميع، حتى شعوري بالغربة في المكان وقلقي من الموجودين

به قد زالا، وبدأت الضحكة ترتسم على وجهي وأنا أنظر من نافذة القطار وأستمتع بمناظر الخُضرة والنيل، وبدأت أتحرك في القطار بحرية وفرحة، بعدما مكثت في مكاني قلقًا أكثر من ست ساعات، فقد أصبحت المناظر كلها مألوفة بالنسبة إلي، حتى اللهجة الصعيدية التي تعجبت منها في بداية الرحلة ولم أكن أفهم منها الكثير، أصبحتْ مستساغة ومقبولة بل محبوبة، وأصبحتُ أبتسم عندما أسمعها من المحيطين بي، أما مصطفى فمن الواضح أنه لم يستحوذ على إعجابي وحدي، فقد استطاع بخفة ظله وتعليقاته الساخرة أن يستحوذ على إعجاب الموجودين، وبدا وكأنه يعرف كل راكبي القطار، فلم يترك شخصًا إلا وفتح معه حوارًا مطولًا عن بلدته وأهله وعمله ومحافظات الصعيد، وأي منها يتصف أهلها بالكرم، وأي منها يتصف أهلها بالبخل، ولم ينس أن يسرد طرفة طويلة عن كل محافظة وأهلها وعاداتهم وتقاليدهم ولهجاتهم، مما جعل الراكبين يلتفون حوله وكأنه شاعر الربابة الذي كان يمتع الناس بقصصه الجميلة.

أوشكت الرحلة على الانتهاء، فلم يتبق على موعد وصول القطار إلى الأقصر إلا نصف ساعة -حسب أقوال مصطفى والمتواجدين في القطار- فوجدت أنه الوقت المناسب للاتصال بنهلة لتجهز نفسها، وبالفعل أخرجت هاتفتي واتصلت بها، ولكنني وجدت هاتفها مشغولًا، فانتظرت بعض الوقت لمعاودة الاتصال، ولكنها لم تمهلني واتصلت هي على الفور، فاستقبلتُ مكالمتها وأنا في قمة الغيظ من انشغالها في هذا الوقت العصيب ودار بيننا الحوار الآتي:

- «آلوو»!

- «أيوه يا حبيبي إنت فين دلوقتي»؟
- «إزاي تكوني مشغولة في وقت زي ده؟ المفروض تكوني منتظرة مكالمتي».
- «يا أمير دي شهد صاحبتي الوحيدة، وصدقني والله هيا اللي اتصلت تسألني عن حاجة في آخر محاضرة، وأنا أول ما شفت اتصالك قفلت معاها، خلاص بقى يا حبيبي متزعلش، إنت هتغير من شهد كمان؟ مش اتفقنا تبطل الغيرة دي»!
- «على العموم أنا خلاص داخل على محطة الأقصر».
- «وأنا يا حبيبي لابسة من بدري ومستنياك، تحب أخرج دلوقتي»؟
- «أوكي، اخرجي وأنا أول ما أنزل هتصل عليكي، ويا ريت تكوني موجودة في مكان قريب من محطة القطر».
- «طيب حاضر يا أمير، بس والنبي فك التكشيرة دي، هتقابلني أول مرة وإنت مكشر كده»؟
- «مفيش تكشيرة ولا حاجة».
- «طيب لو بجد مش زعلان ناديني بالاسم اللي معودني عليه».
- «مش زعلان يا نونا».
- «أنا بحب الكلمة دي منك أوي يا أمير، والله نفسي أسمعها منك وإنت قاعد قدامي».

- «خلاص يا نونة كلها دقايق وأكون جنبك، يلا اقفلي واخرجي استنيني».

- «حاضر يا قلب وعقل نونا».

أكثر ما كان يعجبني في هذه الفتاة الساحرة، أنها كانت قادرة -وفي أقل وقت وبأقل الكلمات- على امتصاص غضبي والقضاء على ما بي من هموم وأحزان مهما عظمت، فعلى الرغم من أناقتها وجمالها وخفة ظلها، وعلى الرغم أيضًا من مكانتها العلمية المرموقة، لم تكن تتحرج أبدًا وقت غضبي منها أن تشعرني أنها جاريتي المطيعة التي تضع نفسها دائمًا طوع أمري ورهن إشارتي، ولم تكن تتحرج أيضًا من التفوّه بألفاظ وكلمات يرفضها من هم أقل منها علمًا ومكانة، فكثيرًا ما كانت تحاول إرضائي وقت غضبي بكلمات (إنت سيدي وتاج راسي يا أمير، أنا من غيرك ولا حاجة، أبوس إيدك ورجلك لما تزعل مني أزعل براحتك بس متبعدش عني، إنت متعرفش أنا بتعذب إزاي لو عدى يوم من غير ما أسمع صوتك....)!

بالفعل كانت فنانة قديرة تمتلك كل أدوات وصفات ومميزات الأنثى الساحرة...

٥

انتهت الرحلة في موعدها وتوقف القطار في محطة الأقصر، وودعت مصطفى وداعًا حارًّا وبمجرد أن وضعت قدمي في المحطة، أخذت نفسًا عميقًا وكأنني خارج من سجن ضيق، وعلى الفور اتصلت بنهلة والتي أكدت أنها تنتظرني أمام محطة القطار، أمام مركز اتصالات مشهور، فخرجت من المحطة ووقفت أنظر حولي لأستكشف المكان وأبحث عن المركز الذي ذكرته، وما هي إلا لحظات قليلة حتى وقعت عيناي على هذا المركز، وبدأت أقترب قليلًا لأتبين الواقفين أمامه حتى رأيتها، ومن دون مقدمات وجدت رعشة غريبة تنتابني وقلبي ينبض بسرعة عجيبة، وكأنه يريد أن يخرج من صدري ويطير إليها وارتسمت على وجهي ابتسامة تنطق بما في قلبي من فرحة وسعادة، ثم توقفت للحظات لأعدل من شكلي وملابسي التي نال منها القطار كل مَنَال، وأيضًا لأسيطر على ملامح وجهي التي تشبه ملامح الطفل الصغير الذي وجد أمه بعد طول حرمان، ثم اتجهت إليها وبمجرد أن رأتني استدارت ونظرت إلى الجدار

الذي كان خلفها، وتظاهرت بأنها تتحدث في هاتفها، فاقتربت منها أكثر وأكثر ثم ناديتها بصوت هامس.... «نهلة»! فنظرت إلى الأرض من شدة خجلها واحمرّ وجهها ثم نظرت إليَّ مرة أخرى وقالت بخفة ظلها وبصوت منخفض: «لا يا أمير مش نهلة»! ثم ابتسمت ابتسامتها الساحرة وقالت: «نووونا مش نهلة»!

فممدت يدي لأسلم عليها فتغيّر وجهها، وكأنها لم تتوقع ذلك ونظرتْ إليّ مترددة ومتفاجئة من يدي الممدودة، ثم مدت يدها المرتعشة أخيرًا، ولكنها لم تضعها في يدي بل أطراف أصابعها فقط، ثم سحبتها بسرعة وقالت بصوت متهدج:

- «أمير، وقفتنا كده مش كويسة خالص، أنا خايفة حد يشوفنا».
- «طيب أعمل إيه يا نهلة؟ أنا معرفش حاجة هنا»!
- «امشي قدامي وشوف أي مكان يكون كويس بعيد عن الزحمة نقعد فيه».

فداعبتها قائلًا: «وإنتي مش هتمشي جنبي وتحطي إيدك في إيدي»؟

فردت مستنكرة: «بطل رخامة وامشي قدامي وإنت ساكت خاالص».

استجبت لرغبتها ومشيت أمامها والسعادة تغمرني غير مصدق لما يحدث، أمشي قليلًا ثم أنظر خلفي لأملي عيني بوجهها الجميل فتبتسم وتدير وجهها عني خجلًا، إلى أن وصلنا إلى فندق فخم هادئ مطل على

النيل اسمه فندق «الوفا»، فوقفت أمامه ثم التفت إليها مشيرًا برأسي إلى الفندق، فأومأت برأسها موافقة على اختياري ودخلنا الفندق معًا.

لأول مرة تجلس نهلة أمامي وأراها وجهًا لوجه بعيدًا عن الإنترنت والكاميرات، فبدأتُ أنظر إليها وأتفحّص ملامحها، وكأنها كائن من كوكب ثانٍ، وهي ترفع عينيها من وقت لآخر فتجدني أنظر إليها فتخجل وتدير وجهها مرة أخرى، وتكرر ذلك أكثر من مرة حتى تخلت عن صمتها قائلة: «كفاية يا أمير، أنا بجد مكسوفة أوي من نظراتك دي»!

فابتسمت وعلقت على كلامها قائلًا: «يعني مش كفاية إنك سلمتي عليا بطراطيف صوابعك! كمان مش عيزاني أشوف ملامحك براحتي»!

فقالت مدافعة عن نفسها: «إنت ليه مش مقدر موقفي؟ والله أنا عمري ما سلمت على حد بإيدي ولا قعدت مع حد قعدة زي دي»!

فقلت مبتسمًا: «طيب أنا ممكن أمشي لو تحبي».

فقالت: «لا يا رخم، أنا بس عيزاك تدور وشك شوية وتديني فرصة أنا كمان أرفع وشي وأملي عيني من ملامحك يا أمير، يمكن أنا مش بعرف أتكلم وأقول كلام حلو زيك، بس والله العظيم أنا جوايا فرحة مفيش كلام يقدر يوصفها، فرحانة إني شيفاك قدامي بجد من غير نت ولا كاميرا ولا أي حواجز»!

كنت أستمع إلى كلماتها واضعًا يدي على خدي، وكأنني أستمع إلى أغنية عذبة الألحان، تطرب أذناي لكلماتها الرقيقة وتستمتع عيناي بملامحها الجميلة وابتساماتها الساحرة وأنوثتها التي غمرت المكان.

ثم واصلت نهلة كلامها قائلة: «بس إنت عارف يا أمير أجمل حاجة إيه»؟

- «إيه يا حبيبتي»؟

- «إن مفيش اختلاف بين شكلك في الكاميرا وشكلك في الحقيقة، نفس ملامحك وشعرك وعيونك وشفايفك».

فقلت مداعبًا: «هو إنتي كنت مفكرة إني في الكاميرا مركب عدسات ولا إيه»؟

فضحكت بصوت عالٍ ثم قالت: «لا يا رخم مش كده، أنا بصراحة ومن غير زعل كنت خايفة تطلع قصير في الحقيقة؛ لأن زي ما إنت شايفني كده طويلة أووي، يعني مكنش هينفع خالص أكون بالطول ده وتطلع إنت قصير».

- «هاااا.. واكتشفتي إيه لما شفتيني»؟

فقالت بعد أن زال خجلها وتوترها خجلها: «امممممم، اكتشفت إن حبيبي أحلى وأجمل وأرق راجل في الدنيا».

ومن الواضح أن مسبحة أبي التي لا أتحرك من دونها قد جذبت انتباهها فسألتني متعجبة: «لكن قولي يا أمير، إيه اللي إنت ماسكه في إيدك ده من أول ما اتقابلنا»؟

فأجبتها: «دي سبحة والدي الله يرحمه، مش بعرف أمشي من غيرها».

فسألتني: «هو إنت من النوع اللي بيمشي بتميمة»؟

فقلت موضحًا: «مش تميمة ولا حاجة بس تقدري تقولي إنها عادة».

فسألتني مبتسمة: «وفعلًا بتجيبلك الحظ»؟

فقلت وأنا أنظر في عينيها الجميلتين: «أنا الحظ عمره ما ابتسملي يا نونا غير لما عرفتك».

فابتسمت نهلة وتنهدت تنهيدة جميلة وقالت: «يااااااه.. أخيرًا سمعت كلمة نونا منك وإنت قاعد قدامي، أنا بحب الكلمة دي أوي يا أمير».

فقلت: «وأنا بحبك يا نونا، والله أوقات كتير بحس إن كلمة بحبك قليلة أوي ونفسي ألاقي كلمة تانية تعبر عن اللي جوايا».

فسألتني: «وإيه هو اللي جواك يا قلب نونا»؟

- «اللي جوايا حب لو اتوزع على كل بنات الدنيا يكفيهم ويزيد».

فقالت: «إنت بتقول إن حبك لو اتوزع على بنات الدنيا يكفيهم.. وأنا بقولك إني عايزة كل الحب ده ليا أنا لوحدي وأكتر وأكتر وأكتر».

ثم صمتت قليلًا وقالت وهي تنظر في عيني: «عارف يا أمير، وإنت ماشي قدامي، كان نفسي أمشي جنبك وأمسك إيدك وأقول للناس كلها ده حبيبي أنا، كان نفسي أمنع كل البنات اللي في الشارع إنهم يبصوا عليك وأقولهم ده ملكي أنا وبس، أنا بحبك أوي يا أمير، والله من يوم ما عرفتك وأنا خايفة أكون بحلم، وأوقات لما بتصل عليك بكون فعلًا حاسة إنه حلم وبتصل عليك علشان أسمع صوتك وأتأكد أنه حقيقة مش حلم».

ومع الوقت تخلت نهلة عن خجلها الزائد وبدأت تتحدث وكأنها لم تتحدث من قبل، حتى إنني آثرت الصمت لأترك لها حرية الحديث والتعبير عما بداخلها، وكم كان كلامها ممتعًا! تخلت تمامًا عن تحفظها وأطلقت العنان للسانها لينطق بكل كلام الحب، وما أجمل هذا الكلام! وما أشد تأثيره على إنسان محروم عاطفيًّا مثلي! فقد كنت أشعر وهي تتحدث أن كلماتها تغمسني في بحر الحب حتى ألامس قاعه، ثم تخرجني لألتقط أنفاسي ثم تعيدني مرة أخرى بابتسامتها الساحرة وأنوثتها الطاغية وكلامها الناعم الجذاب.

تحدثت نهلة في كل شيء وسألتني في أدق تفاصيل حياتي، حتى أهلي وأصدقائي ومواقيت عملي ونومي وهواياتي، وما أحب وما أكره من المطربين والمطربات، وما أفضله وما أكرهه من أصناف الطعام، حتى عطري الذي أستخدمه وأفضّله دائمًا لم يسلم من أسئلتها، فتحدثت عنه بخفة ظلها قائلة: «أمير، إنت حاطط بيرفيوم يجنن، هو اسمه إيه»؟

فسألتها مداعبًا: «ليه؟ هو إنتي ناوية تشتري واحد وتقدميه هدية لحد تاني»؟

فقالت: «بطل رخامتك دي وغيرتك اللي هتقتلك وقولي اسمه إيه»؟

فقلت: «لا مش هقولك اسمه، بس عندي اقتراح تاني يا ريت يعجبك».

- «قول يا سيدي اقتراحك».

- «إنتي هتاخدي البرفيوم بتاعي، بس بشرط! إني أنا كمان آخد البرفيوم بتاعك، نفسي ريحتك تكون معايا في كل مكان يا نهلة».

فقالت وهي تبتسم: «وأنا موافقة، بس قولي بحبك يا نونا تاني»!

- «بحبك يا أجمل وأرق نونة في الدنيا».

وفجأة نظرت نهلة في هاتفها ثم انتفضت من مكانها قائلة: «أمير، الساعة عشرة إلا ربع، باقي ربع ساعة وسكن الطالبات يقفل، أنا لازم أمشي دلوقتي».

لم أشعر بالوقت وأنا أجلس بجوارها ولم أتوقع أن ينتهي هذا اللقاء الجميل الذي جعلني أشعر وكأنني في عالم آخر، حتى إنني نسيت كل آلامي وهمومي وأحزاني وأحسست أنني في جنة الخلد التي لن تنتهي، فقد استطاعت نهلة في ساعتين تقريبًا أن تأخذني من واقعي الذي لم أر فيه سوى الكآبة إلى عالم السحر والجمال، عالم العشق والمشاعر الدافئة، عالم يعترف بلغة الأعين العاشقة والبسمات الصافية، عالم يعجز اللسان عن وصفه.

طلبت نهلة الرحيل فكأنها أعطت الإذن لكل حواسي بالاستيقاظ مرة أخرى والعودة للواقع الممل، وكأنني كنت في حلم جميل تمنيت ألا ينتهي، طلبت الرحيل، فشعرت بهزة عنيفة تنتابني، وعلى الرغم من أنني حاولت قدر المستطاع أن ألملم شتات نفسي وأظهر أمامها متماسكًا وأرسم على وجهي ابتسامة تخفي ما بداخلي من حزن عميق، إلا أنني فقدت السيطرة على دموعي التي انهمرت فجأة، وكأنني طفل صغير يجري خلف

أمه ويتشبث بأطراف ملابسها، حاولت قدر المستطاع أن أخفي دموعي أمامها إلا أنها لاحظت ما طرأ عليَّ من تغير، واقتربت منّي متسائلة: «في إيه يا أمير! إنت بتبكي»!

فقلت وأنا أداري دموعي: «لا لا مفيش حاجة يا حبيبتي، تقريبًا في حاجة دخلت في عيني».

فسألتني متعجبة: «طيب إيه اللي حصل؟ إنت من شوية كنت بتهزر وضحكتك مالية المكان»!

فأجبتها: «مفيش حاجة يا نهلة، بس أنا ملحقتش أقعد معاكي ولا حسيت بالوقت».

فقالت حزينة: «والله أنا كمان مش عايزة أسيبك بس هعمل إيه؟ لو اتأخرت السكن هيقفل وممكن يتصلوا على أهلي في البلد ويعملولي مشكلة يا أمير».

فقلت: «لا يا حبيبتي أنا مستحيل أكون السبب في أي مشكلة تحصل لك، هو السكن بعيد عن هنا»؟

- «لا لا، خمس دقايق وأكون في السكن».

فقلت راجيًا: «طيب ممكن تسمحيلي أوصلك يا نهلة»؟

- «صعب يا أمير، أنا لازم أخرج من هنا لوحدي، خايفة حد يشوفنا خارجين مع بعض ويبلغ أهلي، علشان كده أنا هخرج وإنت هتستنى شوية وبعدين تخرج».

ثم قالت بعد أن وقفت واستعدت للرحيل: «خلي بالك من نفسك يا أمير، مع السلامة».

أخذت نهلة حقيبتها وتركت المكان وكأنها أخذت قلبي وروحي معها وأعطت الإذن لعيني بالبكاء دون حرج أو حذر، فلأول مرة في حياتي أبكي بهذه الحرارة، حتى عند وفاة والدي لم أبك بهذا الشكل ولم أستطع البقاء أكثر من ذلك، فتركتُ الفندق مسرعًا وسرت في نفس الطريق الذي جئنا منه أبحث عنها، لعلي أظفر منها بنظرة أخيرة قبل رحيلي، وبالفعل لمحتها عن بُعد تمشي مسرعة فأسرعت خلفها أراقب خطواتها وقلبي يكاد يخرج من صدري ودموعي تزداد انهمارًا، حتى اقتربتُ منها وضاقت المسافة بيننا وكم كنت أتمنى أن يطول هذا الطريق حتى تبقى أمامي وأمتع عيني برؤيتها، ثم التفتت نهلة ففوجئتْ بوجودي خلفها فاضطربت في مشيتها وأسرعت بإخراج هاتفها واتصلت بي تسألني عن سبب وجودي قائلة: «أمير، إنت إيه اللي جابك لحد هنا»؟

فقلت متلهفًا: «مقدرتش أسيبك يا نهلة، وبعدين أنا ماشي بعيد عنك أهوو».

فقالت بخوف: «كده غلط يا أمير أنا مش عايزة حد يلاحظ حاجة، وكمان أنا خلاص وصلت للسكن وخايفة حد يشوفك هنا».

فسألتها: «هو ده السكن»؟

فقالت: «أيوه يا حبيبي».

فقلت: «طيب أنا هقف هنا وهستناكي لما تطلعي فوق وتشاوريلي».

فاندهشت من طلبي الغريب قائلة: «إنت اتجننت يا أمير؟ لو حد شافني وأنا بشاورلك يقول عليا إيه»؟

فطلبت منها راجيًا: «طيب اطلعي أقفي في الشباك بس علشان أشوفك قبل ما أسافر».

فقالت متعجبة من إصراري: «والله إنت شكلك إتجننت، ومع ذلك ماشي أنا هطلع أفتح الشباك وأبصلك، بس علشان خاطري لازم تمشي بسرعة، الناس كلها عارفة إن ده سكن طالبات وممكن حد يعمل لك مشكلة بسبب وقفتك دي».

فقلت موافقًا: «حاضر يا حبيبتي أول ما تفتحي الشباك وتبصيلي أنا همشي على طول».

٦

عدت مُجددًا إلى محطة القطار لأبدأ رحلة العودة إلى القاهرة وأنا محمّل بالهموم والمتاعب والأحزان، فدخلت غرفة ناظر المحطة لأسأل عن موعد القطار القادم، فأخبرني بأن قطار النوم سيصل بعد نصف ساعة وبالطبع لم أفهم كلامه، فلأول مرة أسمع عن قطار يُسمّى قطار النوم، ولكن كل ما شغلني في هذا الوقت أنني سأقف هنا منتظرًا للقطار نصف ساعة أخرى، استجبت للأمر الواقع ووقفت في المحطة وأنا في قمة تعبي غير مصدق بأنني سأخوض هذه الرحلة الطويلة التي تزيد على عشر ساعات مرة أخرى، وإن كان شوقي لنهلة في رحلة الذهاب قد خفف من صعوبتها وهوّن من طول ساعاتها، أما في رحلة العودة فمن الواضح أنني سأعاني كثيرًا، ولا أدري أي عناء سأتحمّل، فلا شك أن البعد عن نهلة سيكون العناء الأكبر بعد أن نعمت بقربها وشعرت بالمعنى الحقيقي للحياة في وجودها وتأكدت أن هناك طعومًا أخرى للحياة لم أتذوقها ولم أسلك مسالكها من قبل، أما العناء الآخر الذي لا يقل ألمًا هو ما سأقبل

عليه من ملل وكآبة في حياتي التي لم أعرف فيها إلا الصمت ولم أصاحب إلا وحدتي القاتلة.

آآاه، سامحك الله يا نهلة، ماذا فعلت بي! وماذا فعل بي حبك!

فقبل أن يصادفني حبها لم أكن أشغل بالي بالتفكير في التجديد أو التغيير، كنت بالفعل أحيا حياة كئيبة، ولكنني كنت متعايشًا معها وأستعيض عن سعادتي التي لم أجدها بنجاح زائف في عملي الممل، أما بعد أن عرفتها وعرف هواها الطريق إلى قلبي الضعيف أصبحت ناقمًا على كل شيء وأصبحت أرى السعادة الحقيقية والأمل الوحيد لما تبقى من حياتي في القرب منها فقط.

ظللت على هذه الحالة من التفكير وأنا منتظر القطار حتى التفت خلفي فجأة لتقع عيناي على اللافتة الكبيرة لفندق «الوفا» وقد زاد لمعانها وبريقها وسط ظلام الليل الحالك، ظلت عيناي معلقة بهذه اللافتة وكأنني أنظر إلى صورة نهلة بجمالها ورقتها وخفة ظلها حتى انتفض جسدي فجأة بسماع صافرة القطار الصارخة التي هزّت كل أركاني، وكأنها ملك الموت جاء فجأة ليأخذني من أحضان نهلة، توقف القطار بجانبي ودخلت إحدى عرباته وجلست على أول مقعد وجدته خاليًا، وأنا ما زلت أنظر إلى لافتة الفندق من بين مقاعد القطار، وما هي إلا دقائق معدودة حتى صرخ القطار مرة أخرى صرخة مدوية وبدأت عجلاته في التحرك، وكأنها تقتلع قلبي من بين أضلعي وبدأت دموعي تنهمر كالسيل الجارف، وأنا ألتفت خلفي لألقي نظرة أخيرة على لافتة الفندق، وكأنني أودعها وأودع معها كل لحظة جميلة قضيتها مع نهلة في هذا المكان، تأكدت في هذه اللحظات

المريرة أن الوطن ليس ذلك المكان الذي يُولد فيه الإنسان ويكبر ويحيا، بل هو ذلك المكان الذي يحيا فيه حبيبك فتشعر أن قلبك وعقلك معلقان بهذا المكان، فها هي الأقصر تلك المدينة التي لم أعرف عنها شيئًا إلا من خلال قراءاتي واطلاعي على شبكة الإنترنت، ولم أمكث فيها غير أربع ساعات تقريبًا، أصبحتْ أحب وأقرب الأماكن إلى قلبي، وبمجرد أن تحرك القطار شعرت بأنفاسي تتلاحق وتزايدت ضربات قلبي وانهمرت دموعي وكأن هذا القطار اللعين سيبعدني عن بيتي الذي ولدت فيه وعشت فيه أجمل ذكرياتي!

أفقت من هذه الحالة الصعبة على صوت هاتفي فأخرجته من حقيبتي وأنا أبكي بكاء حارًّا لأستقبل مكالمة نهلة:

- «أيوة يا نهلة»؟
- «أمير! حبيبي»!
- «معاكي يا نهلة».
- «ما لك يا أمير»؟
- «مفيش حاجة».
- «لأ فيه يا أمير، وفيه كتير كمان، هو إنت مفكر إني علشان مش شيفاك هبقى مش حاسة بك؟ ليه بتبكي يا أمير»؟
- «مش ببكي ولا حاجة»؟
- «طيب قولي، هو إنت زعلان إنك شفتني وقعدت معايا»؟
- «بالعكس يا نهلة، أنا كنت طاير من الفرحة».

- «وفين هيا الفرحة دي! إنت بتداري دموعك من وقت ما كنا قاعدين مع بعض.. أمير! هو إنت ناوي تبعد عني؟ ناوي إنك متشوفنيش تاني»؟
- «متقوليش كده، إنتي اتجننتي»؟
- «دموعك هيا اللي بتقول يا أمير مش أنا، أنا كنت متخيلة أنك هتطير من الفرحة لما تقابلني ومش فاهمة سبب دموعك دي كلها».
- «إنتي مش فاهمة أي حاجة، أنا كنت قاعد جنبك فرحان زي الطفل اللي فرحان بأمه، والله كنت ناقص أقوم أمسك هدومك وأقولك خديني معاكي، مكنتش متخيل إنك هتسيبيني وتمشي، اللي جوايا ليكي مش مجرد حب يا نهلة، اللي جوايا أكبر بكتير من الحب، والله العظيم مش لاقي وصف للإحساس ده».
- «أنا كمان بحبك أوي يا أمير والنهارده حبيتك أكتر وأكتر وأكتر، عارف، أنا كنت أتمنى حبيبي يكون حلو في شكله ولبسه وطوله وشياكته لكن عمري ما اتخيلت إنك كمان تكون بالطيبة والحنية والإحساس ده، يمكن إنت بتبالغ لما بتقول على نفسك طفل قاعد جنب أمه، لكن والله العظيم دي الحقيقة اللي أنا شفتها النهارده».
- «شفتي إيه يا نهلة»؟

- «شفت في عيونك نظرات طفل بريء وابتسامتك وكلامك، أيوه الشكل والمنظر والهيئة واللبس والطول والعرض وثقافتك وأسلوبك بيقولوا إنك كبير، لكن جواك طفل، طفل صغير أووووي يا أمير، إنت مش بس دكتور شاطر، إنت خبير وفيلسوف».
- «شفتي كل ده»؟
- «أيوه يا أمير، وأقسملك بالله أنا مش ببالغ، أوقات كنت بتبصلي تخليني أحس إنك حبيبي اللي بيغازلني وأنا مكسوفة منه، وأوقات تانية من نظرة عيونك كنت بحس إنك طفل وأنا أمك اللي عايزة تحضنك أوي وأوقات من كلامك وثقافتك أحس إني ولا حاجة، أحس إني قزم وإنت عملاق في كل حاجة، وأوقات تحسسني إني ملكة متوجة على عرش البنات.. إنت إيه بالظبط يا أمير»؟
- «أنا بحبك يا نهلة».
- «وأنا بعشقك والله بعشقك، بس علشان خاطري لو فعلًا بتحبني بلاش دموع، مش إنت اللي تبكي يا أمير.. ولا إنت بتعمل الشويتين دول علشان تهرب من الجوازة»؟
- «أهرب! أنا لو عليا عايز أكون جنبك وفي حضنك من دلوقتي».
- «طيب رووووق كده وبلاش زعل»!

- «حاضر يا حبيبتي.. بس قومي إنتي نامي علشان تلحقي محاضراتك الصبح».
- «طيب قولي لا إله إلا الله يا نونا.. وأنا أقولك محمد رسول الله يا قلب نونا».
- «لا إله إلا الله يا نونا».

كانت نهلة تعتقد أن مكالمتها ستخفف من آلام هذه الرحلة الكئيبة، ولكن الحقيقة كانت العكس تمامًا، وخاصة عندما تحدثت عن الزواج والأحلام الوردية التي تنتظرنا، فكنت أشعر بغصة تكاد تقتلني وأتمنى أن يعود بنا الزمن إلى أول مكالمة لأصارحها بالسر الذي أحمله في طيات نفسي، والذي يؤرقني ويشغل تفكيري ليل نهار، ويجعلني دائمًا أشعر بأنني صغير أمام نفسي، ولكن يعلم الله أنني لم أخف هذا السر إلا لسببين: أولهما حبي الشديد لها وخوفي من ضياعها من بين يدي، أما الثاني فهو أنني في بداية الأمر لم أجد سببًا للاعتراف بأمور تخصني، فقد كانت نهلة بالنسبة لي حالة مرضية مثل آلاف الحالات التي تصادفني، لم يخطر ببالي أبدًا أنني سأعشقها ولم أفكر لحظة أن هذه الفتاة التي كلمتها بمنتهى اللامبالاة ستملأ قلبي وعقلي وحياتي بحبها، يعلم الله يا نهلة أنني لم أقصد خيانتك أو اللعب بمشاعرك، ويعلم الله أنني لم أفكر لحظة في العبث بمشاعرك، ولكنني أحبك بكل ذرة من مشاعري وإحساسي وقلبي وعقلي، أحبك وكل ما أتمناه هو قربك والارتباط بك، ويعلم الله أيضًا أنه لو عاد بي الزمان لأرحت نفسي من هذا العبء الثقيل والسر الذي يكاد يكسر ظهري، لو عاد بي الزمان لقلتها لك من أول مكالمة، لو كنت أعرف أنني سأحبك هذا

الحب الذي أوشك أن يذيبني لاعترفت أمامك من أول لحظة بأنني..... بأنني متزوج ولتركت لك حرية الاختيار.

نعم أنا متزوج ولي من الأبناء اثنان (الحسن والحسين) ولكنني أحببتها وكنت متخيلًا في بداية الأمر أنها علاقة عمل سطحية ستنتهي بعد أسبوع أو اثنين أو شهر أو شهرين، لم أكن أتخيّل أبدًا أنني سأصل لما وصلت إليه، لم أتخيل أبدًا أن أحبها لهذه الدرجة التي جعلتني أراها البسمة الوحيدة في حياتي، والنَّفَس الذي أتنفسه، والحلم الذي أحيا لتحقيقه، والأمل الباقي لي في هذه الحياة، أحببتها حبًّا فاق حب القصص والروايات والأغاني والأساطير التي نسمع عنها، وأصبحتُ في موقف غاية في الصعوبة، بل إن أمري أصبح يستحق الشفقة، فكيف سأصارحها بهذه الحقيقة بعد أنا تعلقتْ بي وأصبحت ترى فيَّ الزوج والحبيب والأخ والأب! بعد أن أصبحتُ بالنسبة لها المثل والقدوة! ولو أنني تشجّعت وصارحتها، فماذا سيكون موقفها! الاحتمال الأكبر أنها ستنهار وسيضيع مستقبلها ومستقبلي أنا أيضًا بعد أن تخرج من حياتي للأبد، وسأصبح في نظرها الكاذب الخائن، أما الاحتمال الضعيف والضعيف جدًّا أنها ستغضب -وهذا حقها تمامًا- ثم سترضخ للأمر الواقع، وتنساق خلف قلبها وحبها وتقبل بهذا الوضع، وعندها سأكون أسعد مخلوق في هذه الدنيا وسأضحي بكل ما أملك من أجل القرب منها والفوز بها.

أفكار وآلام وأحزان ودموع حاصرتني في هذه الرحلة الكئيبة التي غلب عليها الصمت بعد أن نام كل من في القطار والتحفوا بما أحضروه معهم من أغطية، وكأنهم في غرف نومهم ولذلك أسموا القطار الذي

ينطلق في هذه الساعة بقطار النوم، وليتني أنعم بهذه النعمة التي هم فيها، ليتني أجد راحة البال وأغمض عيني فأنام مثلهم، ولكن كيف يعرف النوم الطريق لهذه العيون التي لا تجمُد ولهذه الجفون التي جرّحها السهاد!

ومع هذه الفكر المتلاحقة تذكرت الشيخ محمود التهامي فأخرجت هاتفي وسماعة الأذن، وكأنني تذكرت كنز ثمين ثم أسندت رأسي إلى مسند مقعدي وبدأت أستمع وأنا مغمض العين حتى رحت في نوم عميق وهو ينشد بصوته الرائع:

لي أسـف عـلى مـا كان منـي
وحـزن مـن صدودكـم طويـل
أمـدّ إليكـم كـف افتقـار
ودمـع العـين منهمـر يسـيل
أرى الأحبـاب قـد وردوا جميعًـا
وليـس لي إلى ورد سـبيل
عـلى أعتابكـم أنـا عبـدٌ ذليـل
كثـير الشـوق نـاصره قليـل
قضيـت في حبكـم أيـام عمـري
فـلا أسـلو وقـد بقـي القليـل

يحدثنـــي الصبـــا عنكـــم حديثًـــا

يصحـــو بـــه الجســـم العليـــل

انتهت الرحلة الطويلة التي استمرت أكثر من ثلاث وعشرين ساعة نعمتُ فيها بأربع ساعات في جوار محبوبتي التي أسرتني، أما باقي ساعات الرحلة فقد تكفّل بها القطار وتكفلت بها أفكاري وأحزاني..

٧

بمجرد أن انتهت الرحلة اتجهت مباشرة إلى منزلي محملًا بمتاعب وآلام لا يتحملها البشر، وكالعادة وجدت زوجتي في انتظاري بنظراتها التي تحمل كل معاني الشك وأسئلتها المتكررة التي مللتها قائلة: «كنت فين يا أمير»؟

فأجبتها من غير اهتمام: «كان عندي مؤتمر».

فسألتني مرة أخرى: «فين المؤتمر ده»؟

ـ «كان في الأقصر».

فقالت: «يعني سافرت بره القاهرة من غير حتى ما تتصل بالتليفون؟ طيب حتى لو أنا مليش عندك اعتبار كنت اتصل علشان ولادك اللي كل شوية يسألوا عليك».

ـ «معلش الموضوع كله حصل بالصدفة».

- «واضح إن حياتك كلها بقت ماشية بالصدف».
- «لو سمحتي أنا تعبان ومحتاج أرتاح! ده مش وقت عتاب خالص».

فقالت وقد ازداد غضبها: «عتاب إيه يا أمير، أنا مبقتش بشوفك ولا أعرف عنك حاجة، بالنهار في الجامعة وبالليل في العيادة وكمان بقت بتسافر وتبات بره البيت من غير حتى ما تقول وتعرفني إنت بايت فين».

فقلت وأنا أتوجّه إلى غرفتي: «طيب ممكن تأجلي التحقيق ده لأني فعلًا تعبان».

فقالت يائسة: «براحتك يا أمير، بس على فكرة أنا مش هتحمل الوضع ده كتير، إنت حياتك كلها اتغيرت وأوضاعك بقت غريبة خصوصًا في الفترة الأخيرة».

كنت على يقين أنها تشعر بما طرأ على حياتي من تغير في الفترة الأخيرة كما كنت متأكدًا أنها تراقب كل تحركاتي وأفعالي، وخاصة في الفترة الأخيرة بعدما زادت مكالماتي الهاتفية في أوقات متأخرة من الليل، وكذلك شرودي المستمر وغيابي عن المنزل، وقد لاحظتُ ذلك من نظرات الشك التي تلاحقني بها وأسئلتها التي تكررت في الفترة الأخيرة عن مواعيد عملي في الجامعة والعيادة، وعلى الرغم من أن علاقتنا كزوجين كانت علاقة جافة خالية من أي مظهر من مظهر الحب أو حتى القرب والتفاهم، وعلى الرغم من أنني اعترفت لها أكثر من مرة أن السبب الوحيد الذي يجعلني متمسكًا بهذه العلاقة هو وجود الحسن والحسين، إلا أنها كانت مثل أي

زوجة تشعر بالشك والقلق عندما تجد أن حياة زوجها وأفعاله بدأت تتغير حتى وإن كانت العلاقة بينهما جافة خالية من الحب.

استطعت بعد عناء التخلصَ من أسئلتها الصعبة والمملة، واستسلمت لفراشي لأحصل على قسط من الراحة قبل التوجه إلى عيادتي، ولكنني وقبل أن أغط في نومي ابتسمت وانفرجت أسارير وجهي فجأة وذلك عندما دخل الحسن والحسين، وكعادتهما ارتميا في حضني فقبّلتهما واحتضنتهما وأخذت أداعبهما حتى رحت في نوم عميق وهما بين أحضاني.

٨

عدت في المساء إلى عيادتي وبدأت أمارس عملي وأنا في حالة نفسية سيئة للغاية لما يدور في رأسي من أفكار وأسئلة عديدة تلاحقني وتشتت ذهني، وكان أكثر ما يشغلني هو موقفي من نهلة، ومتى وكيف أعترف لها بحقيقة أمري! وماذا سيكون موقفها بعد هذا الاعتراف! أيضًا زوجتي التي بدأ الشك يملأ نظراتها وأسئلتها، وعملي الذي بدأ يضطرب بعد أن كنت نموذجًا في الانتظام والالتزام.

آآآه يا نهلة! لم أكن أعرف أن حبي لك سوف يجلب لي كل هذه المتاعب ويقحمني في هموم وأفكار لم أعتدها ولم أعد أتحملها، والخوف كل الخوف من نهاية هذا المشوار وهذه المغامرة، فكل ما أخشاه أن تتغير نهلة بعد أن تعرف حقيقتي وتتركني فأخسرها وأخسر معها بيتي وعملي وتنتهي هذه المغامرة بخسارة كل شيء.

استمرّ عملي في هذه الليلة حتى انتصف الليل وخلت العيادة من المرضى، ووجدت الجو مهيأً للحديث مع نهلة، ففتحت حقيبتي وأخرجت عطرها الذي اشتقت إليه كثيرًا، فانتشر في المكان ثم أخرجت صورتها ووضعتها أمامي على مكتبي، وكذلك شغّلت أنشودة الشيخ محمود التهامي على حاسوبي وتأهبت للحديث معها، ولكن قبل أن أتصل بها دخلت الفتاة التي تعمل في العيادة لتخبرني بأن الحاج سعيد منتظر بالخارج فأجّلت الاتصال وأمرتها أن تدخله على الفور.

كان كل من يرى علاقتي بالحاج سعيد يتعجب من هذا الحب والتفاهم رغم الفارق الكبير في السن بيني وبينه، فقد كان الحاج سعيد هو أقرب شخص لي وهو الوحيد الذي أتحدث معه في كل أسراري وأطلب منه النصيحة في كل أموري، وعلى الرغم من أنه الخال الوحيد لي إلا أنني لم أشعر يومًا أن ما يجمعنا هي صلة القرابة، بل الظروف الحياتية المتشابهة بيني وبينه هي التي جمعتنا وجعلتنا صديقين حميمين.

دخل الحاج سعيد بهيئته المعهودة التي لا يغيرها، فقد كان حريصًا على ارتداء الجلباب الفلاحي الواسع والعباءة التي يضعها بطريقة محكمة على كتفيه والعمامة الملفوفة على رأسه، والخواتم ذات الفصوص الكبيرة التي تزين أصابعه وشاربه الضخم الذي يتباهى به ويقسم به أحيانًا.

تركت مقعدي وقمت لاستقبال الحاج سعيد الذي دخل مبتسمًا واحتضنني بحرارة، ثم جلس ممسكًا بعصاه وبدأ يتحدث بهيبته وعظمته ودار بيننا الحوار التالي:

- «أهلًا بالدكتور اللي بيقفل عيادته باليومين ويختفي»!
- «هههههه... معلش يا حاج سعيد، مشغول والله».
- «هو إنت مش هتخلي عندك دم وتقولي يا خالي»؟
- «وهو إنت من إمتى كنت خالي، إنت طول عمرك صاحبي، ولا إنت عايزني أكبّرك وخلاص»!

فقطع الحاج سعيد كلامه فجأة وبدأ يقلب نظره في المكان متعجبًا ثم سألني:

- «هو إنت كنت عامل حلقة ذكر ولا إيه! إيه صوت الأناشيد دي! وإيه الريحة الغريبة دي»!

وقبل أن أجيبه وقف فجأة ثم اتجه إلى مكتبي وأمسك بصورة نهلة وأخذ يحملق فيها متعجبًا ثم عاود أسئلته مرة أخرى قائلًا: «وصورة مين دي»؟

فقمت من مكاني مسرعًا وأخذت الصورة من بين يديه وأعدتها إلى مكتبي ثم أمسكت بيده وأعدته إلى مكانه مرة أخرى، وقلت له محاولًا تغيير الموضوع: «في حد في مصر ميعرفش الشيخ محمود التهامي»؟

- «وإنت من إمتى بتسمع الشيخ التهامي»؟
- «من يومين كده سمعته وعجبني أوي».
- «آه، وإيه الريحة الحريمي الغريبة دي»؟

فسكتُ للحظات ثم قلت مبتسمًا: «دي ريحة نهلة يا حاج سعيد».

فانعقد حاجباه وسألني متعجبًا: «ريحة نهلة! والصورة دي صورة مين»؟

- «دي صورة نهلة».

فتغيّر وجهه وزاد تعجبه وعاد يسألني: «نهلة مين! والشيخ محمود مين يا أمير! إنت كنت فين اليومين اللي فاتوا؟ إنت كل حاجة فيك متغيرة، حتى العيادة متغيرة»!

- «أنا كنت مع نهلة يا حاج».

- «ياااا ابني نهلة مين! اتكلم على طول أنا مش بحب الألغاز».

فقمت من مكاني مرة أخرى واتجهت إلى مكتبي وأمسكت بصورتها قائلًا: «نهلة اللي في الصورة دي يا حاج سعيد، من الأقصر، أنا حبيتها يا حاج».

فصمت قليلًا ثم قام من مقامه واتجه نحوي قائلًا: «أنا مش هسألك عرفتها إمتى وإزاي! ولا هسألك إزاي رحت الأقصر من غير ما تقولي! أنا هسألك حبيتها إزاي وإنت متجوز وعندك ولدين زي القمر»؟

- «وإيه المانع يا حاج سعيد! هو الحب حرام ولا عيب»!

فتبسم الحاج سعيد ثم عاد إلى مكانه مرة أخرى، وأسند رأسه إلى عصاه قليلًا ثم نظر إليَّ مرة أخرى وقال بصوت هادئ: «لا عيب ولا حرام يا بني، لكن بعد ما نتجوز بيتفرض علينا حاجات لازم نعملها، وبنتمنع من حاجات لازم نبعد عنها، مش بمزاجنا يا أمير، لكن علشان بيوتنا

وأولادنا، الحب لا عيب ولا حرام يا أمير لكن غلط لأنك معاك زوجة وعندك أولاد».

فوضعت صورة نهلة في مكانها، واختفت الابتسامة من وجهي، ولأول مرة أحتد في كلامي مع الحاج سعيد، فلم أكن أتوقع منه هذا الكلام، وهو أكثر من عانى حياة زوجية كئيبة تشبه حياتي، فوجدتني فجأة أتحدث معه بعصبية ومن دون شعور قائلًا: «زوجة وأولاد! وإنت اللي بتقول كده! وإنت لما حافظت على مراتك اللي لا حبتك ولا حبيتها كسبت إيه! مين معاك دلوقتي! كل واحد من ولادك إتجوز وعايش مرتاح، ومراتك سيباك وعايشة تخدم أبوها، إيه اللي إنت كسبته بعد ما ضحيت بالإنسانة الوحيدة اللي حبيتها علشان ولادك ومراتك»!

فرد بصوت منخفض ونبرات حزينة:

- «كفاية إني حافظت على البيت يا أمير وربيت العيال وعلمتهم وجوزتهم».
- «وبعد ما سيبت حبيبتك زمان وعملت كل ده، مين فيهم بيسأل عنك؟ لو طلبت من واحد فيهم إنه يسيب مراته علشانك، هيسيبها يا حاج!؟ متفكرش في سؤالي لأن مفيش واحد من ولادك هيعمل كده، إنت بقى سيبت حبيبتك اللي كانت بتعشقك علشان مراتك وبيتك».

أسند الحاج سعيد رأسه مرة أخرى إلى عصاه وسكتُّ أنا قليلًا قبل أن أستكمل حديثي الحاد قائلًا: «عايزك تاخد بالك من حاجة مهمة، وهي إني حاطط حياتك نموذج قدامي وشايف إني لحد دلوقتي بكرر نفس السيناريو بتاعك، حياة زوجية كئيبة، وزوجة مملة معندهاش أي فكرة عن التعامل مع زوجها وولدين زي القمر، لكن سامحني يا حاج، أنا مش هكمل السيناريو ده ومش هكرر الغلطة اللي إنت عملتها».

فرفع الحاج سعيد رأسه فجأة ثم سألني بصوت حزين:

- «هو أنا بقيت مثال للفشل قدامك يا أمير»؟
- «إنت حبيبي وصاحبي، لكن أنا هعيش حياتي يا حاج، أنا هكمل مع نهلة»!
- «وهتسيب ولادك يتشردوا يا أمير»؟
- «ولادي مش هيخرجوا من بيتي طول ما أنا عايش على وش الدنيا، هيتربوا ويتعلموا ويكبروا ويتجوزوا وهما في حضني».

فقاطعني متسائلًا: «ومراتك»!

فأجبته بعد تنهيدة طويلة: «بيتي مفتوح لمراتي تعيش معززة مكرمة، ولو مش موافقة يبقى بيت أبوها أولى بيها، لكن لوحدها يا حاج سعيد؛ لأن ولادي مش هيخرجوا من بيتي».

- «واضح إنك المرة دي فكرت لوحدك وكمان أخدت قرار ورتبت كل حاجة يا أمير، لكن أحب أقولك حاجة قبل ما أمشي، الموضوع مش سهل كده زي ما إنت متخيل يا بني،

راجع نفسك يا أمير، لو مش علشان بيتك وولادك يبقى علشان مستقبلك وتاريخك وشهاداتك اللي إنت تعبت فيهم».

فسألته متعجبًا من خوفه الزائد:

- «إنت محسسني إني هنتحر يا حاج سعيد! أنا هعمل اللي قاله الشرع والدين، أنا مش مرتاح في حياتي ومن حقي أعيش وأدور على راحتي وصدقني أنا مش أناني، مش معنى أني هرتبط بإنسانة غير مراتي إني هتخلى عن مستقبلي وولادي وبيتي، لا يا حاج متخافش أنا عمري ما هبيع مستقبلي ولا أولادي».

فقال وهو يستعد لمغادرة المكان:

- «أنا هسيبك تفكر تاني يا أمير وهمشي دلوقتي، لكن كلامنا لسه مخلصش».

٩

زاد الحاج سعيد من همومي وآلامي بعد موقفه الذي لم أتوقعه، فقد صارحته بما في داخلي على أمل أن يكون هو المساند الوحيد لي، خاصة وأنه من عاش نفس ظروفي ومرّ بنفس موقفي بعد أن حُرم من الحب في حياته الزوجية وتعرّف على إنسانة أحبّته واحتضنته ووجد معها ما لم يجده في بيته، ولكنه خشي على مكانته الاجتماعية وآثر السلامة من كلام الناس، فضحّى بحبه وأكمل حياته حزينًا وحيدًا محرومًا من الحب، فكانت تجربته تمر دومًا أمام عيني، وكل ما أخشاه أن أكررها وأتذوق ما تذوقه من حرمان، فتمر أيام عمري كئيبة مملة ما بين عملي في الجامعة وعملي في عيادتي، ثم أفيق متأخرًا لأجد سِني العمر قد ولت وقطار الحياة قد فات وأقضي ما تبقى من حياتي منتظرًا لحظة مماتي متحسرًا على ما ضاع.

كنت أنتظر أن يشجعني الحاج سعيد على خطوتي حتى لا أعاني ما عاناه، ولكن من الواضح أن كل الظروف ستقف ضدي في هذا المشوار

الصعب، وستزداد العقبات التي ستكون أولاها زوجتي التي بدأت تشعر بعلاقتي مع نهلة، فصرت لا أسلم من نظرات الشك التي تلاحقني بها في كل تحركاتي، وثاني العقبات بلا شك الحسن والحسين، وها هو الحاج سعيد الذي كنت أعوّل عليه كثيرًا في هذا المشوار قد خذلني برد فعله الذي لم أتوقعه، كما أن العقبة الكبرى تتمثل في هذا المجتمع الشرقي القاسي الذي ينظر لأي علاقة بعد الزواج على أنها علاقة محرمة، حتى ولو كانت هذه العلاقة هي الزواج الشرعي، فالرجل الذي يفكر في الارتباط بزوجة أخرى هو في نظر المجتمع رجل آثم يبحث عن شهوته فقط، رجل يخرّب بيته بيديه ويشرّد أبناءه، وويل لهذا الرجل من نظرات أبنائه بعد أن يكبروا فيشيرون بأصابع الاتهام نحو أبيهم متّهمينه بتشريدهم وإذلالهم، وقد يصل بهم الأمر إلى اعتباره مصدر الخزي والعار في حياتهم، فالزواج الثاني في نظر هذا المجتمع الظالم هو شهوة جنسية يبحث عنها الرجل، فعلى الرجل من أجل إرضاء هذا المجتمع الذي لا يرضى أن يتحمل كل شيء، أن يستمر في علاقة زوجية كئيبة مملة لا يشعر فيها بحب أو سعادة، عليه أن يغلق قلبه وعينيه وأذنيه بعد الزواج، فلا يرى ولا يسمع إلا إنسانة واحدة وهي زوجته، حتى وإن كانت هذه الزوجة لا تحبه ولا تريده ولا تشعر تجاهه بأي عاطفة، فالزواج في نظرهم هو علاقة أبدية تنتهي فقط بالموت، وهنا يحكم المجتمع على الرجل بالوفاء والإخلاص لبيته وعياله، فالوفاء هو استمرار الرجل في علاقته الزوجية، والعجيب أن هناك من يستمرون في هذه العلاقة شكلًا فقط أمام المجتمع، أما في الخفاء فلهم حياتهم الخاصة، يمارسون فيها شهواتهم وملذاتهم بعيدًا عن أعين الناس،

وهم بذلك في نظر المجتمع مخلصون أوفياء فقط؛ لأنهم لم يتزوجوا من ثانية، لا شك أنه منطق غريب ينتهجه هذا المجتمع، فالمحرمات مقبولة طالما أنها في الخفاء أما الحلال مرفوض تمامًا حتى وإن كان في العلن وأمام أعين الناس.

أما أنا وبعد تفكير طويل ومرير، فسأضرب بهذه القوانين العجيبة عرض الحائط، وسأحطم كل هذه العقبات، ولن أقف منكس الرأس أمام هذا المجتمع الظالم، ولن أكرر تجربة الحاج سعيد، فقد عثرت على سر سعادتي بعد طول حرمان، ولن أفرّط فيه وسأحقق المعادلة الصعبة التي عجز عن تحقيقها الكثيرون طالما أنني أسير في الطريق الصحيح، فلن يشغلني أحد فسأحصل على سعادتي، وفي نفس الوقت لن أفرط في بيتي وأبنائي شاء من شاء وأبى من أبى، فقط أنتظر الفرصة المناسبة للاعتراف لنهلة بحقيقة زواجي، وكل ما أتمناه أن تقدّر ظروفي وتتقبل موقفي، ووقتها لن أتردد لحظة في الارتباط بها لأحقق الحلم الذي أرهقني كثيرًا منذ أن أحببتها، ولن أضيع وقتًا أكثر من ذلك، فقد فكرت كثيرًا منذ عودتي من الأقصر في اختيار الوقت المناسب الذي أعترف فيه لنهلة بما بداخلي، وقد هداني تفكيري إلى تأجيل هذا الاعتراف لشهر واحد فقط حتى تكون نهلة قد انتهت من امتحانات آخر العام، فأنا على يقين أن خبرًا مثل هذا قد يسبب لها صدمة كبرى من الممكن أن تعصف بمستقبلها، فكان تأجيله لما بعد امتحاناتها هو الأرجح.

١٥

بعد هذا التفكير العنيف والآلام التي تنمو وتتزايد كان لا بد من أن أحصل على مهلة لأريح عقلي وجسدي ولو لوقت قليل، وكانت الراحة بالنسبة لي هي سماع صوتها والاستمتاع بضحكتها التي تأسر قلبي، فأنهيت عملي وأمرت الفتاة المسؤولة عن العيادة بالمغادرة، ووضعت صورتها أمامي واتصلت بها، ولكنني تضايقت كثيرًا عندما وجدت هاتفها مشغولًا في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، ثم أعدت الاتصال بعد دقيقتين تقريبًا فردت نهلة: «إزيك يا أمير، إنت عامل إيه»؟

فأجبتها بانفعال شديد: «هكون عامل إيه يعني وأنا شايف تليفونك مشغول بعد نص الليل»؟

- «يا أمير والله دي شهد، وأنا قلتلك إنها صاحبتي الوحيدة».

فَعَلَا صوتي وزادت عصبيتي وأنا أسألها: «صاحبتك الوحيدة مش بتحب تكلمك إلا بعد نص الليل»؟

فردت غاضبة من سؤالي: «غيرة دي ولا شك يا أمير»؟

- «ولا شك ولا زفت، قلتلك ألف مرة أنا بتخنق لما ألاقي تليفونك مشغول».
- «مع إني مقدرة موقفك ومش زعلانة منك، بس بصراحة أنا حاسة إنك متغير أوي وخصوصًا بعد ما رجعت من الأقصر.. اوعى تكون غيّرت رأيك بعد ما شفتني يا أمير وعايز تسيبني»!
- «لما كنا بنتكلم ونشوف بعض على الكاميرا كنت بحبك يا نهلة، لكن لما شفتك على الطبيعة وقعدت جنبك اتجننت عليكي أكتر، والله بقيت بغير عليكي حتى من الهدوم اللي بتلبسيها».

فقالت بخفة ظلها الرائعة وهي تضحك: «طيب يا حبيبي لو المشكلة في الهدوم أنا ممكن أقلعها».

- «هههههههه! والله ما عارف أعمل فيكي إيه، كنت متصل وعايز أخنقك بس بتضحكي عليا بخفة دمك دي وتخليني أضحك وأنا وشي مولع نار من الزعل».
- «يا أمير مفيش داعي للزعل والله، شهد دي صاحبتي من أيام ابتدائي، هتغير من شهد كمان»؟
- «شهد تكلمك بالنهار وبس أنا مقدرش أمنعك عنها، لكن في الوقت المتأخر ده أنا مش عايز تليفونك يكون مشغول أبدًا».

- «يا سيدي والله كلامك صح، لكن هيا عندها مشكلة كبيرة وكانت بتتكلم معايا شوية».

- «مشكلة إيه»؟

- «بص يا سيدي، شهد كانت بتحب واحد معاها في الجامعة، وفي يوم من الأيام طلعوا رحلة مع بعض، وعلشان هما واثقين في بعض أوي اتصوروا كذا صورة كده يعني كانوا قريبين بعض شوية».

فقاطعتها ساخرًا: «قولي إنها اتصورت وهيا في حضنه ومتتكسفيش»

- «يا لهووووي عليك، دايمًا كده كل الكلام سهل عندك! طيب أنا بذووووق الكلام شوية لازم يعني تحرجني»!

- «المهم إيه اللي حصل يعني»؟

- «المهم يا سيدي إنهم اختلفوا وسابوا بعض وحضرته دلوقتي بيهددها بالصور وهيا عمالة تعيط ومش عارفة تعمل إيه».

- «أحسن، كان لازم يعني تتصور، بيحسسوني إنهم بيسجلوا لحظات تاريخية».

- «هههههه والله ده السبب اللي خلاني أكلمها في الوقت ده».

- «قوليلي يا نهلة»!

فردت بخفة ظلها الرائعة: «يا نهلة»؟!

- «هههههه بطلي رخامة أنا مش بهزر، قوليلي بجد، هيا شهد تعرف إننا بنحب بعض»؟

- «بصراحة أنا مش بخبي عنها حاجة يا أمير، وهيا الوحيدة اللي تعرف اللي بيني وبينك».
- «ولما عرفت حكايتنا قالتلك إيه»؟
- «أقولك رأيها بصراحة ومتزعلتش»؟
- «آه قولي مش هزعل».
- «قالت عليك إنك مجنون»!
- «نعم! مجنون! ليه يعني مجنون»؟
- «لما قلتلها إنك جيت من القاهرة للأقصر عشان تشوفني وتقعد معايا قالتلي باين عليه مجنون».
- «اممممممم ماشي، إن شاء الله لما أشوفها هعرّفها مين فينا المجنون، لكن تعرفي يا نهلة إن كلمة المجنون دي وصلتني لفكرة حلوة أوي».
- «فكرة إيه يا أمير»؟
- «بصراحة أنا بفكر أكتب قصة الحب اللي بيني وبينك في رواية وكنت محتار في الاسم».
- «هههههه وإنت بتعرف تكتب يا أمير»؟
- «أنا عمري ما كتبت، لكن صدقيني اللي بيني وبينك مش محتاج مؤلف محترف ولا محتاج تفكير، وأي واحد هيعيش نفس الإحساس اللي بعيشه ممكن يكتب ألف رواية في حبك مش رواية واحدة».

- «يا سلام! يا سلام على الكلام الحلو! بس قولي إيه الفكرة اللي أخدتها من كلام شهد»؟
- «الفكرة هيا اسم الرواية، ومع إني اتضايقت من كلمة مجنون، لكن الحقيقة إن كلامها صح.. وإني فعلًا من يوم ما عرفتك وأنا حاسس إني إتجننت بحبك يا نهلة وقررت دلوقتي بعد كلام شهد إني أسمي الرواية (مجنون نهلة)».
- «يا نهار أبيض، مجنون نهلة مرة واحدة! يعني اسمي هيتكتب على القصص مكان اسم ليلى!
- «إنتي أحلى وأرق وأجمل من ليلى وعزة وكليوباترا وكل البنات اللي اتذكروا في قصص الحب».
- «مع إن كلامك ده أنا بعشقه وبيحسسني إني طايرة في السما، لكن بصراحة أجمل حاجة بحب أسمعها منك لما تقولي: بحبك يا نونا»!
- «بحبك يا نونا وهفضل أحبك لآخر يوم في عمري».
- يا حبيبي ربنا يطوّل في عمرك وتحبني وتسعدني ونعيش لآخر يوم في حياتنا على الحب ده

انتهت مكالمة نهلة التي كانت تمثل الترويح الوحيد لي في حياتي ومكثت في مكاني بعض الوقت أسترجع كلماتها الجميلة وتعليقاتها الظريفة وأفكر فيما سيكون في الأيام القادمة، وخاصة بعد أن أصبحنا على بعد أسبوع واحد من امتحاناتها واقتراب موعد الاعتراف الذي حددته مع

نفسي من قبل، وإن كنت قد اخترت هذا الموعد خوفًا على نهلة ومستقبلها فكان يتوجب عليَّ أن أفكر في حياتي أنا أيضًا بعد هذا القرار، وما سيترتب عليه من عواقب قد تكون عاصفة، وأعتقد أن العواقب إذا كانت وخيمة -لا قدّر الله- أن الخاسر الأكبر سيكون أنا وليس نهلة، فنهلة ما زالت في مقتبل الشباب وأمامها الكثير من الفرص التي من الممكن أن تعوّضها عن ألف حبيب مثل أمير، كذلك العمر الذي بدأت سنواته تتفلت من بين يدي وأصبحت أصارعها من أجل الفوز بأي مكسب يعوضني عما فقدته في الماضي قبل فوات الأوان، فالعمر أيضًا في صفها وهي الفتاة التي ما زالت في عقدها الثاني، شابة تنعم بشبابها وانطلاقها وخفتها، فلا شك أنني سأكون الخاسر الأكبر ليس فقط بسبب عمري الذي يتقدم، ولكن لأنني وفي أقل من عام أصبحت أسيرًا لحبها واستطاع هذا الحب الغريب أن يسيطر على عقلي وتفكيري بشكل لم أكن أتوقعه، أصبحت نهلة في فترة قليلة جدًّا ملجأي وملاذي وسلوتي، أصبحت أيامي تمر كئيبة مملة ولا عزاء لي فيها إلا حبها ولا أنيس إلا صوتها ولا أمل إلا قربها ولا صديق إلا عطرها الذي أصبح منتشرًا في كل مكان أتواجد فيها، حتى الشيخ محمود التهامي قد أدمنت صوته ليس فقط لجماله، بل لأنه يذكرني بحبها وصورتها التي تتمثل أمامي حينما أسمعه، فهل أستطيع أن أعيش من دونها بعد كل هذا الحب إن جاء قراري بالاعتراف بما لا أتمناه أو أتوقعه! هل أستطيع أن أواصل حياتي وعملي بشكل طبيعي إذا اختفت نهلة من حياتي بعد أن تعرف بحقيقة زواجي!

هل من الممكن أن أفكر بطريقة مجنونة فأتراجع عن قراري بالاعتراف وأترك الأمور كلها للقدر يتحكم فيها كيف يشاء! ولكن لا، فلن أستطيع أن أستمر على هذا الوضع الذي لا يرضيني ولا يناسبني، فما أشعر به مع كل كلمة جميلة تخرج من شفتيها لا يتحمله بشر، ما أشعر به عندما أراها تنظر إليَّ بعينين يملؤهما الأمل والإشراق والفخر بي، باعتباري حبيبًا مثاليًّا ورجلًا يرضي طموحها وغرورها كونها فتاة ناجحة شعور لم أعد أتحمله، بالفعل أبادلها نفس الكلمات الجميلة والنظرات الناعمة والحب الذي لا يُوصف، ولكن يصارعني شعور بداخلي لا أستطيع تحمله وأسمع صوت ضميري قويًّا غليظًا وهو ينعتني بالخائن الكذاب الذي يتلاعب بمشاعر وأحاسيس فتاة ناعمة بريئة، ويعلم الله أنني لست بالخائن أو الكذاب وأن ما فعلته كان بدافع الحب ولا شيء سوى الحب، ولذلك لن أستمر في هذا الوضع ولن أفكر بجنون، بل سأريح ضميري وسأثبت على قراري الذي اتخذته من قبل.. وهو الاعتراف.. وسأترك الرأي النهائي لنهلة فهي من تملك القرار، فإن قررت الرحيل فلن ألومها بل سألوم نفسي التي عاشت في حلم كبير تؤكد الظروف والعادات والتقاليد كما يؤكد واقعنا أنه حلم صعب وبعيد المنال.

لم أفق من شرودي إلا بعد أن سمعت أذان الفجر فانتفضت من مكاني مسرعًا فجدول أعمالي في الصباح يبدأ في الجامعة من الساعة التاسعة، ويجب أن أحصل على قدر من النوم والراحة، ومن المؤكد أيضًا أن هذا التأخير سيزيد من شك زوجتي وثورتها وأنا لا أتحمل المزيد من المشكلات في هذا الوقت الصعب.

١١

ركبت سيارتي واتجهت إلى منزلي مباشرة، وحمدت الله بعد أن وجدت الكل نيام، فغيّرت ملابس واستلقيت على فراشي ورحت في نوم عميق بعد يوم متعب وتفكير قاتل، ولكن الغريب في هذه الليلة هو ذلك الحلم الذي رأيته في منامي، فقد رأيت نهلة كالعادة ولكن هذا الحلم كان مختلفًا عن كل الأحلام السابقة، فقد رأيتها غاضبة في حلمي، وعندما أردت أن أصالحها وأرضيها اشتريت لها حذاءً جديدًا وأنا عائد من عملي وجلست بجوارها وقدمت لها الحذاء الجديد فوضعته في قدمها ولكن للأسف زاد غضبها بعد أن وجدته صغيرًا ضيقًا فتركته وقامت من جواري وابتعدت عني فقمت خلفها مسرعًا أناديها بصوت عالٍ: «نهلة... نهلة..... نهلة»!

والغريب أنني استيقظت من نومي فجأة ووجدتني بالفعل أناديها بصوت عالٍ، ولكن الكارثة أنني وجدت زوجتي تجلس بجواري وتنظر إليّ بعينين يملؤهما الغيظ والشك والغضب، فتظاهرتُ بالنعاس وعدتُ

إلى وسادتي مرة أخرى وأنا في غاية الخجل والقلق من هذا الموقف الصعب، ثم رفعت رأسي مرة أخرى فوجدتها ما زالت على حالها ونظراتها الصعبة القاتلة فتظاهرتُ بعدم الاهتمام وسألتها: «هيا الساعة كام دلوقتي»؟

فأدارت وجهها عني وردت بصوت غاضب: «الساعة سبعة ونص».

فسألتها مرة أخرى: «طيب وإنتي ما لك قرفانة كده؟ وليه صاحية بدري»؟

فالتفتت نحوي مرة أخرى وسألتني بصوت حاد: «تقدر تقولي مين نهلة دي»؟

فتظاهرتُ بالتعجب من سؤالها قائلًا: «نهلة مين اللي بتسألي عنها»!

فقالت والغيظ يملأ عينيها: «نهلة اللي كنت بتنادي عليها من شويه يا أمير».

فحاولت أن أدير دفة الحوار لمصلحتي فانتفضت من فراشي متظاهرًا بالغضب وسألتها بصوت حاد: «إنتي كمان هتحاسبيني على حلم وكلام قلته وأنا نايم؟ ده إنتي ناقصة تقوليلي بلاش تحلم»!

فابتسمتْ ابتسامة ساخرة وقالت بصوت غاضب: «على فكرة يا أمير أنا حاسة بكل حاجة بس مش بحب أتكلم، والمفاجأة يا دكتور اللي أول مرة أقولها لك إن دي مش أول مرة تنادي على الاسم ده وإنت نايم، لا يا أمير دي على لسانك وفي أحلامك كل ليلة».

فقلت بطريقة ساخرة: «وإنتي خلاص اشتغلتي مفسرة أحلام»؟

- «لا يا أمير مش بفسر أحلام ولا حاجة، لكن بلاش تحاول تسخر من كلامي، إنت دكتور في العلوم النفسية وعارف إن اللي يشوف حد باستمرار في أحلامه ويكلمه يبقى أكيد الحد ده موجود فعلًا في حياته، صح يا دكتور ولا أنا كلامي غلط»!

فأجبتها وأنا أجهّز ملابسي للخروج: «كويس إنك قلتي أحلام، لما حضرتك بقى تشوفي الكلام ده في الحقيقة يبقى من حقك تتكلمي لكن أنا مش هضيع وقتي في أحلام وكلام فاضي».

تركت زوجتي وخرجت متجهًا إلى عملي وأنا مصدوم مما حدث ومن كلامها الذي فاجأتني به وأدركت وقتها أن ما بداخلها لم يعد شكًّا بل أضحى حقيقة واضحة وضوح الشمس، ولأول مرة منذ زواجنا أقف أمامها مرتجفًا غير قادر على تجميع كلماتي وأنا المشهود لي بالفصاحة وحسن الكلام، وعلى الرغم من تظاهري بعدم الاهتمام بحديثها إلا أن كل كلمة من كلماتها كانت تحدث بداخلي شرخًا عميقًا، فقد عشت عمري كله واضحًا شفافًا ليس عندي ما أخفيه، كنت أتكلم بمنتهى الثقة أمام الجميع، أما الآن فقد أصبحت أحمل أسرارًا أخشى افتضاحها، أخشى أن يخونني لساني وينطق بما تكنّه نفسي أمام أحد، أخشى أن يتكرر ما حدث أمام زوجتي ويتحرك لساني بما أخفيه أثناء نومي، فحتى في نومي أصبحت خائفًا قلقًا فاهتزت ثقتي بنفسي، واهتزت صورتي أمام زوجتي وأمام الجميع وأصبحت أمرّ بحالة صعبة من انعدام الثقة والاتزان، فخرجت إلى عملي وأنا أشعر بجرح عميق وألم يعتصرني.

١٢

وكم هي بطيئة تلك الأيام التي يعاني فيها المرء، وكم هي أشد بطئًا إذا كان يتعجلها وينتظر مرورها بفارغ الصبر فتتباطأ أكثر وأكثر وكأنها تعانده وتخرج له لسانها، فعلى الرغم من عدم ثقتي في موقف نهلة بعد أن تعلم بحقيقة زواجي إلا أنني بدأت أتعجل أيام الامتحانات حتى أصل إلى ذلك اليوم الذي سأعترف لها فيه بحقيقة زواجي وألقي ما على عاتقي من حمل ثقيل أصبحت غير قادر على حمله فأرتاح من هذه الهموم التي أرّقتني، نعم سأرتاح إن قبلت ظروفي ووافقت أو رفضت وابتعدت سأرتاح أيضًا، فلو قبلت ظروفي ووافقت سأخطبها وأعلن ارتباطي بها في الحال وأمام الجميع حتى أخرج من سجن الأسرار الذي سجنت نفسي فيه من دون داعٍ وليغضب من يغضب.. فالأهم الآن هو البوح بذلك السر الذي أوشكَ أن يقتلني، ولو رفضت نهلة وآثرت البُعد فليكن لها ما تريد، فهو حقها الذي لن أعارضها فيه، بل سأحترم قرارها وأبتعد أنا الآخر وأحاول نسيانها وأغلق هذا الموضوع نهائيًّا، وعلى الرغم من صعوبة ذلك

إلا أن ما أعانيه الآن هو الأصعب، فقد أصبح كل من حولي يلاحظون ما طرأ على حالتي من تغير وقلق واضطراب، فليس هذا هو الدكتور أمير صاحب النظرة الفاحصة والرأي الصائب، ليس هذا هو الدكتور أمير الذي كان مضرب الأمثال في الدقة والانتظام والتفاني في العمل، فقد تغيّر حالي تمامًا، حتى أصدقائي في الجامعة بدأوا يلاحظون ذلك التغير وأول من لاحظتْ هذا التغير هي الدكتورة ماجدة زميلتي في الجامعة، والتي طالما حاولت التقرّب إليّ خاصة بعد أن انفصلت عن زوجها، ولكنني في كل مرة كنت أتظاهر بعدم الاهتمام وإن كانت محاولاتها في أحيان كثيرة كانت تتعدى مرحلة التلميح وتصل إلى التصريح، إلا أنني لم أكن أراها إلا زميلة أو أختًا، فلم أنظر إليها في مرة من المرات بعين المحب أو المعجب، ومع ذلك لم يصبها اليأس وكانت بين الحين والآخر تعود لتلميحاتها المكشوفة، ومن الواضح أنها ومع تلك الظروف التي أمر بها قد لاحظت مثل غيرها ما طرأ على حالتي من تغيير فدخلتْ مكتبي بحجة الاستفسار عن بعض الأمور المتعلقة بالعمل كعادتها ثم جلست أمامي وسألتني باهتمام:

- «ما لك يا أمير؟ حاسة إنك متغير الفترة اللي فاتت»!
- «لا أبدًا، مفيش حاجة».
- «إزاي مفيش حاجة، وإنت على طول ساكت وسرحان ومتأخر عن محاضراتك وعصبي، وكمان بقيت بتدخن أكتر من الأول بكتير، في مشاكل في البيت»؟
- «لا، مفيش مشاكل ولا حاجة، يمكن من كتر الشغل بس وعدم الراحة».

فابتسمت وسألتني مرة أخرى ولكن بخبث: «يمكن في حب جديد وأنا مش عارفة»؟

فأجبتُ سؤالها بسؤال مثله: «وهو كان في حب قديم علشان يكون في جديد يا ماجدة»؟

فعادت مرة أخرى إلى تلميحاتها قائلة: «وإيه اللي يمنعك من الحب، إنت ليه قافل كل الأبواب، ما تسيب قلبك يحب يا أمير وأنا أوعدك أنك هتلاقي حب عمرك ما شفته ولا سمعت عنه».

فأجبتها وأنا ألملم أوراقي وأستعد لمغادرة المكان: «وحياة أبوكي تسيبيني في حالي يا ماجدة، أنا مش ناقص».

تركتها في مكتبي وانصرفت من الجامعة كلها وأنا في ضيق شديد، وبعد أن ركبت سيارتي أحسست بأنني محتاج إلى شخص قريب أخرج إليه ما بداخلي من هموم، ففكرت على الفور في الحاج سعيد كاتم أسراري وملجأي الوحيد، فاتجهت إلى منزله وأنا في طريقي إليه أخرجت هاتفي واتصلت بنهلة لأطمئن على امتحاناتها فوجدتها هي الأخرى تعاتبني قائلة: «أهلًا بالدكتور اللي ناسيني»!

- «إزاي بس ناسيكي يا نهلة! وأنا والله ما بفكر في حد غيرك»!

فوجدتها جادة في عتابها وتتحدث بصوت غاضب قائلة: «إزاي يا أمير أخلص الامتحان من ساعتين ومتفكرش تتصل تطمن عليا»؟

- «معلش يا نهلة كان عندي محاضرة، المهم عملتي إيه»؟

- «كان صعب أوي يا أمير، وبصراحة الحل بتاعي مش حلو خالص».
- «متقلقيش يا حبيبتي، إن شاء الله هتنجحي وتطلعى الأولى على الدفعة كمان».
- «هههههه أنا مش فاهمة إنت جايب الثقة دي منين، وعلى العموم سيبك من الامتحان لأني أصلًا متضايقة منه جدًّا، المهم والله أنا من بدري عايزة أنام ومستنية الدوا بتاع قبل النوم».
- «بعد الشر عليكي يا نهلة من الدوا».
- «مش هقولك إنك متغير يا أمير وصوتك مش طبيعي وهسيب ده كله لبعد الامتحانات لكن دلوقتي لازم تديني الدوا بتاعي علشان أعرف أنام».
- «حاضر يا حبيبتي، بحبك يا أحلى وأجمل وأرق نووووونا».

أنهيت مكالمة نهلة والدموع تتسابق من عيني حتى إنني ضللت الطريق أكثر من مرة وأنا أقود سيارتي، فهل ألوم نفسي على ما فعلته بهذه المسكينة التي أصبحت لا تستطيع النوم إلا بعد سماع صوتي، أم ألومها على ما فعلته بي! هل ظلمتها أم ظلمت نفسي! أم ظلمت الاثنتين!

من المؤكد أنني ظلمتهما معًا، ظلمت تلك البريئة التي عن قريب سأذبحها بسكين بارد عندما أنسحب من حياتها فجأة، وأتركها تعاني ويلات خيانتي لحبها، ويلات كذبي وغدري، وبنفس السكين سأذبح

نفسي بعد أن تركت لها العنان لتحلم وتحلم وتحلم وأنا على يقين أن هذا الحلم سينقلب إلى كابوس مزعج سينغص منامي حتى الممات.

استطعت بعد عناء أن أصل إلى منزل الحاج سعيد وحاولت قدر المستطاع قبل نزولي من سيارتي أن أزيل آثار دموعي وأفكاري وهمومي حتى لا يلاحظها، ولكن هيهات! فمهما حاولت فهو الوحيد القادر على معرفة حتى ما أخفيه بقلبي من مجرد النظر إلى وجهي، طرقت بابه فقابلني بحضنه الواسع وأجلسني على فراشه وقال وهو يبتسم: «مع إني آخر مرة ماشي من عيادتك وأنا زعلان لكن هطلع أحسن منك وأقوم أعملك الشاي».

ثم عاد الحاج سعيد بعد قليل ووضع الشاي أمامي وسألني بابتسامته الجميلة: «معاك سجاير ولا خلصت زي حالاتي»؟

فوضعت سجائري أمامه فأخرج واحدة ونظر في عينيّ وهو يشعلها قائلًا: «ضاقت بيك الدنيا يا أمير»؟

لم أستطع الرد على سؤاله بعد أن انهمرت دموعي أمامه فقام من مقامه مبتسمًا وجلس بجواري وضمني إلى صدره قائلًا: «أنا عارف إنك هترجع يا أمير، وصدقني يا بني لما رفضت كلامك في العيادة كان من خوفي عليك، لأنك طيب أوي وحنين أوي وعودك أخضر أوي وعارف إنك مش حمل كل ده، وهييجي عليك الوقت اللي مش هتقدر فيه تظلم».

فسألته باكيًا: «وهو أنا لازم أظلم يا حاج سعيد»؟

- «للأسف يا بني في الطريق ده لازم تظلم، لو هترضي نهلة لازم تظلم مراتك أو ولادك، ولو هترضي مراتك وأولادك يبقى لازم تهجر نهلة وده هيكون ظلم لها، يعني لازم تظلم».

فزاد بكائي وأنا ما زلت في حضنه فاندهش الحاج سعيد لهذه الحالة وأخرجني من حضنه قائلًا: «اتكلم يا أمير، فضفض، طلع اللي جواك يا بني».

- اللي جوايا صعب أوي يا حاج، الأصعب من كل اللي قلته إني هظلم نفسي أكتر من مراتي وأكتر من نهلة، الكارثة يا حاج إن هخسر الكل ومش هكسب أي حاجة، حتى نفسي هخسرها».

فسألني مفزوعًا من كلامي: «ما توضح كلامك يا أمير أنا كده قلقت».

فأجبته حزينًا: «إنت مفكر أني هسيب مراتي وعيالي ويكون الظلم إني أتجوز نهلة، لكن الكارثة يا حاج أني هسيبهم وكمان مش هقدر أتجوز نهلة».

فسألني متعجبًا: «بس إنت قلتلي إنها بتحبك يا أمير، إزاي مش هتقدر تتجوزها»؟

- «دي مش بس بتحبني، ده بتعشقني عشق مقدرش أوصفه».

فتعجب الرجل من كلامي الغريب ثم قال: «الله! إنت بتقول فوازير يا أمير! ما توضح كلامك».

فتنهدت تنهيدة عميقة وأشعلت سيجارة ثم قلت: «نهلة متعرفش إني متجوز يا حاج، وأكيد لما تعرف هتسيبني، واحدة بنت ناس ومستقبلها كبير إيه اللي يخليها تربط حياتها بواحد متجوز ومخلف»؟

وكأن كلماتي قد صدمت الحاج سعيد فوضع كوب الشاي على المنضدة وقام من مكانه واتجه إلى الشرفة المطلة على الشارع وفتحها وظل ساهمًا لبعض الوقت ثم التفت إليَّ مرة أخرى وسألني بحزن: «عملت في نفسك كده ليه يا أمير؟ إنت كده فعلًا ممكن تخسر كل حاجة، البنت دي ممكن تسيبك فعلًا بعد ما حبيتها وبعت الدنيا كلها بسببها، وعلى فكرة مفيش حد هيقدر يلومها لو عملتْ كده؛ لأنك كدبت عليها وساعتها إنت مش هتقدر تعيش مع مراتك، لأنك مش هتكون شايف حد غير نهلة وهتبقى خسرت مراتك وولادك وكمان خسرت نهلة وإنت السبب مش هما يا أمير».

- «أنا جايلك تخفف عني ولا تزود همومي يا حاج سعيد»؟

فقال وهو ينفث دخان سيجارته: «على العموم اللي حصل حصل، وطالما إنك جيت دلوقتي تبقى ناوي تصلح غلطك».

- «والله ده اللي أنا بفكر فيه فعلًا؛ لأني مش هقدر أستمر على الوضع ده وقررت إني أعترف لها بالحقيقة يا حاج وأسيب لها حرية الاختيار».
- «وده عين العقل يا بني، بس أتمنى لو البنت دي رفضت وضعك ده إنك ترجع لبيتك وتنساها».

فقلت وأنا أودعه: «اللي فيه الخير يقدمه ربنا يا حاج»!

١٣

مرّت فترة الامتحانات بصعوبة وأنا مداوم على الاتصال بنهلة يوميًّا للاطمئنان عليها، وكم كنت مشفقًا على هذه المسكينة! وهي تتعجل أيام الامتحانات لترتاح وتتفرغ لي ولحبي ولسهراتنا الممتعة والتجهيز للقاء والدها وإتمام خطبتنا، فكثيرًا ما كانت تحدثني عن ذلك اليوم وإشفاقها عليَّ بسبب ما سأعانيه في ذلك اليوم من مشقة في التنقل والمواصلات بسبب بُعد منزلها عن مدينة الأقصر، ولم تكن لتفوّت مثل هذه المناسبة من دون أن تعلق تعليقًا ساخرًا بخفة ظلها الرائعة، فكانت كلما ذكرت هذا اليوم تقول وهي تضحك: «نفسي يا أمير أشوفك وإنت داخل بيتنا تخطبني بعد عشر ساعات في القطر وتلات ساعات في الميكروباصات والتكاتك وبدلتك الحلوة دي متبهدلة وشعرك منكوش.. أكيد هتلعن اليوم اللي عرفتني فيه».

كما كانت تحذرني دائمًا من الحديث مع أقاربها في جلسة الاتفاق حتى لا يفسدون كل شيء، فهم على حد قولها يحقدون عليهم بسبب حالتهم المادية العالية وقدرة والدها على تعليمهم تعليم عالٍ، في ظل الجهل الذي يسود قريتهم الصغيرة، كما أن كل قريب من والدها كان يطمع فيها لتكون زوجة لابنه، فيفوز بطبيبة المستقبل التي يتباهى بها أمام الناس، وأيضًا يضمن ميراثًا ضخمًا في المستقبل، وكانت نهلة كثيرًا ما تضحك وهي تحكي هذه التفاصيل قائلة: «هههههه! الراجل راجع من الغيط حافي يا أمير وجاي يخطبني لابنه، محسسني إنه جاي يشتري جاموسة.. إإإإوعى يا أمير لما تيجي تخطبني تتكلمي مع حد من قرايبي اللي هيكونوا حاضرين الاتفاق، دول كلهم طمعانين فيا وفي فلوس أبويا وهيعملوا المستحيل علشان يطفشوك.. خلي كلامك مع أبويا وبس».

كنت أسمع هذه الكلمات من نهلة وأرسم على وجهي ابتسامة كاذبة وما بداخلي ألم لا يعلم بقسوته إلا الله عز وجل، ففي الوقت الذي كانت تحلم فيه هذه المسكينة بزيارتي لوالدها وخطبتها وتتويج هذا الحب الكبير بعلاقة زوجية تجمعنا في بيت واحد، كنت أفكر أنا في نفس الوقت في نص الرسالة التي سأرسلها لها لتنهي كل شيء، الرسالة التي ستصدمها وتحوّل حلمها الوردي إلى كابوس مزعج، فبعد تفكير طويل تأكدت أنني لن أستطيع أن أواجهها بهذا الاعتراف مباشرة في حديثنا الذي اعتدنا عليه كل ليلة، فسيعجز لساني عن نطق هذه الكلمات الصعبة، ولن أتحمل رد فعلها، كما أنني لن أستطيع أن أراها وهي تبكي وتتألم بسببي، فمنذ أن عرفتها وأنا ملجأها الوحيد وسلوتها وراحتها ومصدر سعادتها، فكيف

أتحول في جملة واحدة إلى مصدر الحزن والجرح والألم، فكان من الصعب بل من المستحيل أن أنطق بهذا الاعتراف في وجهها، فهداني تفكيري إلى أن أكتب هذا الاعتراف في رسالة نصية وأرسله إليها عبر هاتفي...

بدت الليلة كئيبة من بدايتها فبعد أن ذهبت إلى عيادتي رفضت استقبال أي مريض وأمرت الفتاة التي تعمل بالعيادة بمغادرة المكان، وجلست وحدي قلقًا مضطربًا وفتحت حقيبتي لأخرج عطرها وأنشره في المكان مثل كل ليلة، ولكن في هذه الليلة لم أجرؤ على الاقتراب من عطرها ووجدتُ يدي ترتعش وهي تقترب منه، وكأنها تمتد إلى أفعى مميتة، حتى صورتها التي لم تفارق مكتبي منذ عرفتها لم أقدر في هذه الليلة على النظر إليها فأخفيتها في درج مكتبي، حتى أتخلص من نظراتها التي تكاد تقتلني وعتابها الصامت الذي كان يقطع أحشائي، حتى صوت الشيخ محمود التهامي لم أستطع تحمله في هذه الليلة، فبعد أن فتحت حاسوبي وضغطت على زر التشغيل لم أتحمله دقيقة واحدة وأغلقته على الفور، فقد تغيّر كل شيء في هذه الليلة وشعرت بأنني الخائن الذي لا يستحق أي شيء، لا أستحق النظر إلى صورتها البريئة وملامحها الصافية ولا أستحق أن أشتم عطرها الساحر أو حتى ألمسه، حتى صوت الشيخ محمود فأنا لا أستحقه، وجلست وحيدًا مكتئبًا حتى انتصف الليل وجاء اتصالها فاستقبلته بيدي المرتعشة وحاولت بقدر الإمكان أن أحافظ على ثباتي وأظهر على طبيعتي حتى لا تلاحظ ما بي من تغيير ولكن هيهات، فهي نهلة الفتاة الذكية اللماحة التي كانت تشعر بما بداخلي قبل أن أنطق به، فعلى الرغم أنني

كنت أبادلها فرحتها بانتهاء امتحاناتها وتعليقاتها الساخرة إلا أنها كانت بين الحين والآخر تقطع حديثها وتسألني:

- «ما لك يا أمير؟ إنت مش عاجبني النهارده! في حاجة»؟

فأرد متوترًا: «لا يا قلبي، مفيش أي حاجة».

- «بس صوتك مش عاجبني! حتى ضحكتك حاسة إنها مش من قلبك! فين ضحكتك اللي كانت بتهز المكان يا أمير»؟
- «مفيش أي حاجة، إنتي بس متهيألك».
- «طيب يلا سيبك من الرخامة دي وشغل الكاميرا، عايزة أشوفك، إنت وحشتني أووووي».
- «يا ريت يا حبيبتي، بس للأسف، بعد ما كلمتك آخر مرة الكاميرا وقعت على الأرض اتكسرت ونسيت أشتري واحدة غيرها».
- «يووووه، ليه كده يا أمير، ده أنا مصبّرة نفسي طول اليوم علشان أشوفك، أنا بجد زعلت والله».
- «يا حبيبتي الأيام جايه كتير».

كنت أتهرّب منها بكل الحيل حتى لا تراني بهذه الحالة، فيعلم الله أنني منذ أن سمعت صوتها في هذه الليلة ودموعي لم تجف لحظة واحدة، ولأول مرة أتمنى أن تنتهي المكالمة بيني وبينها لأصرخ صرخة تخرج ما بداخلي من آلام، لأول مرة ألتمس الحجج والأعذار حتى أنهي مكالمتي مع نهلة، بعد أن كنت أتمنى في كل ليلة وأنا أكلمها أن تتوقف عقارب

الساعة ويطول الليل ليطول الحديث بيني وبينها لأنعم بصوتها الدافئ، حتى صوتها في هذه الليلة شعرت بأنني لا أستحقه.

تعبتْ نهلة من السؤال عن حالتي الغريبة في هذه الليلة لكن دون جدوى فقررتْ أن تنهي المكالمة وتنسحب بطريقة مهذبة قائلة:

- «طيب يا أمير، أنا حاسة إن عندك شغل الصبح ومكسوف تقول».
- «أنا فعلًا عندي شغل الصبح بس عادي يعني».
- «لا يا حبيبي، قوم ارتاح علشان تعرف تشتغل».
- «طيب يا نهلة»!
- «بس يعني على الأقل قولي بحبك يا نونا، إنت مقولتهاش من يومين».
- «حاضر يا حبيبتي.. بحبك يا نونا».

انتهت أصعب مكالمة بيني وبين نهلة وتركتني وحيدًا بين آلامي وأحزاني والأفكار التي تكاد تقتلني، فلو أن ما أعيشه معها كان حلمًا لتمنيت ألا ينتهي، ولكنه حقيقة وأنا من صنعتها بيدي، وكان لا بد من هذه الوقفة لأنني لم أتعود على الأحلام، حتى وإن كانت جميلة، وإن كنت المتسبب الوحيد فيما أنا فيه فيجب عليّ إصلاح ما أفسدته، فإما أن أصلح هذه الحقيقة التي ولدت مشوّهة وإما أن تنتهي إلى الأبد حتى لا أزيد من جراح إنسانة بريئة.

مرّت أكثر من ساعة وأنا تائه بين أفكاري حتى شعرت أن الوقت قد أصبح مناسبًا لإرسال رسالتي لنهلة، فقد تعمدت التأخير في إرسالها حتى أتأكد من أنها قد نامت، وأن رسالتي لن تصدمها في هذا الوقت المتأخر، أخرجت هاتفي وكتبت رسالتي والتي كان نصها... «أقسم لك بالله إني حبيتك أكتر من نفسي لكن في حقيقة خبيتها عنك لو قبلتيها يا نهلة أنا أوعدك إني أعيش العمر كله بين إيديكي، أنا متجوز يا نهلة وعندي ولدين»!

كتبت الرسالة وظللت أنظر إليها مترددًا وفي النهاية تمالكت أعصابي وضغطت على زر الإرسال، وكأنني أضغط على قلبي بسكين حاد، وكأنني أنهي حياتي بيدي، أرسلتها بأيد مرتعشة وقلب حزين وعقل تائه، ولكن الوحيد الذي شعر بالراحة هو ضميري الذي أرّقني كثيرًا وأشعرني بأنني ارتكبت كبيرة من الكبائر عندما أحببت إنسانة أعادت لي الحياة مرة أخرى، فليفرح ضميري ولتفرح زوجتي وليفرح الحاج سعيد ولتفرح الدكتورة ماجدة وليفرح كل من حولي، أما أنا فأشهد الله أنني لن أحب غيرها وإن طال بي العمر لألف عام، وإن قابلت كل نساء العالم فلن أرى غير وجهها وابتسامتها.

١٤

عدتُ إلى بيتي بعد هذه السهرة الحزينة وأنا محمل بهموم لا يتحملها بشر، ولأول مرة أسهر خارج البيت حتى الصباح، ولا أعلم إن كانت زوجتي نائمة أو أنها تتظاهر بالنوم كعادتها لتراقب تحركاتي وتصرفاتي، ولكنني لم أهتم ولن أهتم فيما بعد، غيّرت ملابسي واستلقيت على فراشي محاولًا النوم، ولكن هيهات! فقد ظل وجه نهلة أمامي بابتسامتها الساحرة، وخفة ظلها وأنوثتها الطاغية وعطرها الفواح، ظللت على هذا الوضع حتى يئست من النوم والراحة فنهضت مرة أخرى من فراشي واتجهت إلى الجامعة لعلي أخرج من هذه الحالة الصعبة، ولكن للأسف لم يختلف الوضع كثيرًا، فلم أستطع دخول محاضراتي من شدة التعب وقلة التركيز وجلست في مكتبي ساهمًا يحاصرني القلق وتطاردني الأسئلة التي لا أجد لها إجابة:

هل استيقظت نهلة من نومها!

هل قرأت رسالتي!

ربما قرأتها وصُدمت بما فيها وهي الآن في إحدى مستشفيات الأقصر

هل ستتصل لتعاتبني!

أم أنها ستهجرني إلى الأبد وتكره اليوم الذي عرفتني فيه!

هل ستتقبل موقفي وتعذرني!

أم أنني سأتحول في نظرها إلى إنسان خائن كذاب!

ضغوط كثيرة وحيرة وقلق وهموم ثقيلة تركتها في بيتي لأجدها في عملي وستطاردني في كل مكان، كنت أتمنى أن أبقى في الجامعة لنهاية اليوم حتى أذهب مباشرة إلى العيادة لعلي أجد راحتي هناك، ولكن فشل مخططي بعد أن دخلت الدكتورة ماجدة بابتسامتها السخيفة التي تملأ وجهها وبدأت تتحدث كعادتها عن أحدث قصات الشعر وأرقى محلات الملابس والأحذية التي تزورها باستمرار محاولةً لفت نظري لأناقتها ورقتها وجمالها، فتأكدتُ وقتها أنه لا سبيل إلى الراحة التي أبحث عنها فتركت مكتبي واتجهت مرة أخرى لمنزلي لعلي أحظى ولو بساعة من النوم والراحة، خاصة بعد أن شعرت بألم رهيب في رأسي ودوار جعلني غير قادر على الحركة، عدت إلى منزلي فوجدت زوجتي ومعها الحسن والحسين مجتمعين على مائدة الطعام فطلبتْ مني أن أتناول معهم طعام الغداء فاستجبت لطلبها فقط من أجل الطفلين، وتظاهرت بتناول الطعام حتى انتهى الحسن والحسين من طعامهما ودخلا غرفتهما ثم بدأت زوجتي التحقيق كعادتها متسائلة:

- «الأكل مش عاجبك؟ ولا أكلت بره»؟
- «لا، مليش نفس للأكل أصلًا».
- «وطول الوقت ساكت حتى مش بتتكلم مع ولادك».
- «معلش، سرحان مع نفسي شوية».

فتركتْ مكانها على مائدة الطعام وانتقلتْ إلى المقعد المقابل لمقعدي وقالت بسخرية:

- «ياااريتك كنت سرحان مع نفسك يا أمير»!
- «تقصدي إيه»؟
- «أقصد إنك سرحان مع اللي شغلاك، اللي بتنادي عليها وإنت نايم».

لم تكن تعلم زوجتي أنني قد وصلت لأقصى حالات الغضب والضيق وأنني لم أعد أحتمل أسئلتها وتلميحاتها الواضحة وخاصة أنني بعدما حدث مع نهلة، أصبحت مثل القنبلة التي ستنفجر في وجه من يقترب منها، فقابلت كلامها بسؤال لم تتوقعه قائلًا:

- «وإنتي من إمتى بتفرق معاكي إني أسرح أو أكلم واحدة تانية»؟

فردت سؤالي بسؤال آخر بعد أن ظهرت الصدمة على ملامحها:

- «معنى كده إن فعلًا في واحدة تانية في حياتك يا أمير»؟

اكتفيت بالنظر إليها غير مهتم بكلامها، فبادرتني بسؤال آخر غريب:

- «تقدر تقولي اللي في حياتك دي تختلف عني في إيه؟ هيا أجمل مني؟ جسمها أحلى من جسمي»؟

وعندها لم أتمالك نفسي وانفجرت في وجهها كالبركان:

- «جمال إيه وجسم إيه اللي بتتكلمي عنهم؟ الحب عمره ما كان له علاقة بالجمال والجسم، الحب اهتمام، وأنا عمري ما شفت منك اهتمام، كنت برجع من شغلي تعبان ألاقيكي سهرانة قدام التلفزيون ولا على بالك أو نايمة، عمري ما لقيتك مستنياني على باب البيت بلهفة زي أي ست بتحب جوزها، عمري ما صحيت من نومي لقيتك واقفة بتحضريلي لبسي وفطاري، عمري ما حسيت إنك بتغيري عليا، ولأني إنسان بحب شغلي ووقتي كله فيه، جالك إحساس إني عمري ما هحب ولا هعرف بنات فزودتي في إهمالك ليا ولأولادك ولنفسك كمان».

فصرخت في وجهي قائلة: «وإنت ناقصك إيه إنت وأولادك»؟

- «ناقصني كل حاجة، ناقصني حب وحنان واهتمام وأنوثة، لما اتجوزتك مكنتش محتاج زوجة وبس، كنت محتاج أم تحن عليا بعد ما أمي ماتت وأنا لسه طفل صغير، كنت محتاج أخت لأني عشت طول عمري وحيد لا عندي أخ ولا أخت، كنت محتاج إنسانة تحتويني بحبها وحنانها واهتمامها، لكن للأسف حضرتك كنتي مهتمة بشكلك ومظهرك بس قدام أهلك وصحباتك، كنتي بتفتكري تهتمي بشكلك ومنظرك ولبسك بس لما تكوني خارجة أو لما أهلك يزورونا، عمرك ما اهتميتي

بشكلك علشان جوزك، جوزك اللي كان بيرجع من شغله يغير هدومه ويجهز أكله وياكل وينام وإنتي لسه بتكلمي مامتك في التليفون، فمتزعليش لما يجري على واحدة تفتحله حضنها وتحسسه بحبها وحنانها وأنوثتها».

فقاطعتني قائلة:

- «إنت عايز خدامة مش زوجة، حتى أهلي مش عايزني أكلمهم، عايزني ملكك وتحت أمرك وأمر أولادك وبس».

فقلت معلقًا على كلامها الغريب:

- «مش عيب لما الست تخدم جوزها وأولادها وتكون تحت أمرهم، وعلى فكرة عايزك تعرفي حاجة مهمة أوي، إن أولادي دول هما سبب وجودك هنا لحد دلوقتي».
- «معنى كلامك إنك مش عايزني في حياتك، طيب ما تريح نفسك وتطلقني يا أمير»!

فأعدتُ كلامي مرة أخرى:

- «قلتلك ألف مرة إنك موجودة في حياتي لحد دلوقتي بسبب الحسن والحسين وبس ولولاهم كنت طلقتك من زمان».

فردت باكية وكأنها شعرت بذنبها بعد فوات الأوان: «وإيه المطلوب دلوقتي يا أمير»؟

- «المطلوب إنك تعيشي لأولادك وبس وتعتبري إني مش موجود في حياتك».

لأول مرة يحتد النقاش بيننا لهذا الحد ولأول مرة أتحدث بما بداخلي أمامها بعد أن كتمته طويلًا حرصًا على هذا البيت وخوفًا على أبنائي، ولكن وبعد أن أحسست بضياع نهلة من بين يدي أصبحت غير مهتم بأي شيء، أحسست أنني لم يبق لدي غالٍ أخشى ضياعه، فكل من بحياتي بعدها لا يساوي شيئًا.

أنهيت هذا الحوار الكئيب ثم اتجهت مباشرة إلى عيادتي وعلى الرغم أن وقتها لم يكن قد حان إلا أنني ذهبت أبحث عن راحتي هناك أمام صورتها وبين ذكرياتي معها ورائحتها التي تملأ المكان، بالفعل فتحت عيادتي ووضعت صورتها على مكتبي وأطفأت أنوار الغرفة وفتحت حاسوبي لأستمع لصوت الشيخ محمود التهامي وجلست على مقعدي وأغمضت عيني لأدخل في عالمها، وأستعيد كلماتها العذبة وابتسامتها الرقيقة وأشتمّ رائحتها التي امتزجت بصوت الشيخ محمود التهامي فغرقتُ معهما حزينًا باكيًا في بحر ذكرياتي.

ما بين سكون الليل وظلاله
ضل المتيم واهتدى بضلاله
وبذلك الشعب اليماني منية
للصب قد بعدت عن آماله
يا صاحبي هذا العقيق فقف به
متواله إن كنت لست بواله

وانظـره عنـي إن طـرفي عاقنـي
إرسـال دمعـي فيـه عـن إرسـاله
واسـأل غـزال كناسـه هـل عنده
علـم بقلبـي في هـواه وحالـه؟
وأظنـه لم يـدر ذل صبابتـي
إن ظـل ملتهيًـا بعـز جمالـه
أتـرى درى أني أحـن لهجـره
إذ كنـت مشـتاقًا لـه كوصالـه؟
وأبيـت سـهرانًا أمثّـل طيفـه
للطـرف كـي ألقـى خيـال خياله
لا ذقـت يومًـا راحـة مـن عـاذل
إن كنـت ملـتُ لقيلـه ولقالـه
فوحق طيب رضى الحبيب ووصله
مـا مـل قلبـي حبـه لملالـه
واهـا إلى ماء العذيـب! وكيف لي
بحشـاي لـو يطفـي بـبرد زلاله؟

تهت في بحر ذكرياتي وفاضت دموع العين وأنا أتمثلها أمامي وأمتع أذني بعذب كلماتها وبسماتها الرقيقة.

أحن إليها ويزيد من حنيني صوت التهامي الرائع وعطرها الذي يأسرني وصورتها التي لا تفارق عيني وحبها الذي ملك فؤادي، آهٍ يا نهلة لو كان الأمر بيدي لسكنت بين أحضانك ولجعلت زادي أنفاسك الدافئة وأنيسي في طريقي دقات قلبك، لو كان الأمر بيدي لاخترتك وحدك من بين نساء الكون ولهجرت أهلي وخلاني وعشت راهبًا بين جدران معبدك المقدس أكتفي بنظرة من عينيك الساحرتين وهمسة من شفتيك الناعمتين، وأقضي العمر بأكمله سعيًا لطلب رضاك، وبعد انتهاء العمر وعند مماتي ولو كان لي في الجنة نصيب لتمنيتك من بين حور العين نصيبي.

ظللت مع نهلة وذكرياتها وصوت الشيخ محمود ودموعي وأحزاني حتى انتصف الليل ثم رحت في نوم عميق لم أفق منه إلا في الصباح.

١٥

أسبوع كامل مر على رسالتي لنهلة ولم يجدّ جديد، فحياتي أصبحت تسير على وتيرة واحدة: حيرة وقلق وتوتر في النهار وسهر ودموع وآلام وذكريات في الليل، قلقي يزداد يومًا بعد يوم على نهلة التي لم ترد على رسالتي، وما زاد من خوفي وقلقي أن صفحتها على موقع التواصل الاجتماعي وكل مواقع المحادثات الخاصة بها أصبحت مغلقة تمامًا، وبدأت الشكوك والوساوس تطاردني، فهل أصيبت بمكروه بسبب رسالتي! هل أخرجتني من حياتها واعتبرت علاقتها بها صفحة سوداء في حياتها ستطويها وتستكمل مشوارها في الحياة من دوني! هل ستبحث عن شخص آخر تحبه ويحبها ويأخذ مكاني في قلبها! حاولت كثيرًا الاتصال بها ولكن منعني خجلي وموقفي الضعيف وخوفي أن تكون مريضة فيرد على اتصالي والدها أو أحد أقاربها فيزداد موقفي صعوبة، ولكنني أصبحت غير قادر على تحمل هذا القلق الذي سيطر على حياتي وجعلني مشتت الفكر، حتى إنني انقطعت عن عملي الجامعي بداعي المرض وأغلقت

عيادتي في وجه المرضى والمريدين وجعلتها ملاذًا خاصًّا لسهراتي وذكرياتي، حتى كان ذلك اليوم الذي بدأ مثل سابقيه من الأيام، استيقظت من نومي متأخرًا بعد سهرة طويلة في عيادتي استمرت حتى الصباح، بدّلت ملابسي وجلست قليلًا مع الحسن والحسين ثم خرجت لا أعرف وجهتي وتجولت بسيارتي في الشوارع ثم اتجهت إلى العيادة لأمارس عادة كل يوم، جلست على مقعدي وأمسكت بصورتها أتامل ملامحها، ثم فتحت حاسوبي لأبدأ جلسة جديدة مع الشيخ محمود التهامي، ولكنني توقفت عندما سمعت صوت هاتفي فأخرجته من جيبي وكانت المفاجأة، إنها نهلة، بالفعل هي، انتابتني هزة عنيفة وغمرتني سعادة بالغة وعلى الفور استقبلت اتصالها: «نهلة.... نهلة»!

تأخر ردها قليلًا ثم سألتني باكية: «ليه عملت فيا كده يا أمير»؟

فقلت راجيًا: «أرجوكي بلاش تبكي، والله العظيم دموعك دي بتقتلني».

فقالت بصوتها الحزين: «لو كنت صحيح بتخاف عليا وبتتعبك دموعي مكنتش عملت فيا كده».

فقلت محاولًا إرضاءها: «والله ما عملت حاجة ولا قصدت أني أجرحك، أرجوكي قدري موقفي وافهميني كويس».

– «أفهم إيه يا أمير! أفهم إنك عرفتني علشان تتسلى وتضيع وقت»؟

فقاطعتها قائلًا:

- «متقوليش كده، بلاش تظلميني، أقسم بالله أنا حبيتك أكتر من نفسي ومن يوم ما بعتلك الرسالة عايش في نار».

فقالت وقد ازدادت دموعها:

- «إنت عايش في نار وأنا مكنتش عايشة أصلًا يا أمير، لأني دخلت المستشفى وكنت في غيبوبة تامة تلات أيام، الدموع اللي نازلة من عيوني كنت حاسة إنها جمر مش دموع».

فقلت بعد أن آلمتني دموعها وأوجعني حزنها:

- «كفاية يا نهلة أرجوكي! أنا مش محتاج إنك تحسسيني بالذنب».

- «أنا مش لاقية تفسير للي عملته غير إنك لعبت بمشاعري».

فقاطعتها محاولًا الدفاع عن نفسي قائلًا:

- «اسمعيني كويس وبعدين احكمي براحتك، لما عرفتك يا نهلة كنتي زي أي واحدة داخلة تسأل عن علاج لمرض أو حالة، مكنش في داعي إني أكلمك عن حياتي متجوز ولا أعزب، وبعد ما عرفتك كويس وحبيتك خبيت عليكي إني متجوز مش علشان أتسلى زي ما بتقولي، لكن والله العظيم كنت خايف أنك تسيبيني بعد ما ربطت حياتي كلها بيك، لو كنت بلعب واتسلى مكنتش هخبي عليكي، لو كان ليا علاقات مع بنات كتير مكنش هيفرق معايا إنك تعرفي أو

متعرفيش، كنتي هتروحي وتيجي غيرك، لكن أنا لما عرفتك حسيت إني لقيت كنز غالي أوي.. وكان كل خوفي إنك تضيعي مني تاني، لا عرفت حد قبلك ولا بعدك ولا عمري كان عندي علاقات مع بنات.. وما صدقت إني لقيتك، كل يوم حبك كان بيزيد في قلبي أكتر وأكتر وزي ما كان حبك بيزيد، خوفي كان بيزيد أكتر لحد ما لقتني مش قادر أتحمل ووقفت مع نفسي وقررت أعترف لك لأن إحساسي بالذنب كان بيقتلني، وكمان اعترفت لك علشان أسيب لك حرية الاختيار، ولو رفضتي يبقى حقك ومقدرش ألومك، لكن لو وافقتي هحبك وضميري مرتاح من غير خوف وشك، من غير ما أحس إن في حاجز كبير بيني وبينك».

فقالت وكأنها لم تقتنع بكلامي:

- «آآه صح عندك حق، علشان تحبني وتسهر معايا على النت وبعد ما تقفل معايا تكمل سهرتك في حضن مراتك»!
- «لا يا نهلة، إنتي فهمتي غلط، لو وافقتي مش هكمل معاكي على النت ولو عملت كده يبقى فعلًا عايز ألعب وأتسلى بيك، لكن أنا هتجوزك لأني بحبك ومش قادر أعيش من غيرك.. والله العظيم ما قادر أعيش من غيرك، ارجعيلي يا نهلة ومش هتندمي، وأقسم لك بالله ما هخليكي تحسي لحظة واحدة إن في واحدة غيرك في حياتي».

سكتت نهلة قليلًا ثم ردت بعد تنهيدة طويلة:

- هرجعلك يا أمير، مش علشان تتجوزني زي ما بتقول! هرجعلك لأني مقدرتش أعيش من غيرك، لأني حبيتك أوي، لو طاوعت عقلي لحظة واحدة مكنتش كلمتك تاني لكن قلبي هو اللي حكم».

لم أتمالك نفسي بعد كلامها ووجدت دموعي تنهمر وعادت الرعشة تسري في جسدي مرة أخرى، وأحسست أن روحي التي غادرت جسدي منذ أسبوع تعود مرة أخرى مع عودة نهلة وارتسمت الابتسامة على وجهي وتركت هاتفي على مكتبي واحتضنت صورتها بقوة ونسيت أنها ما زالت تتحدث حتى انتبهت فجأة لصوتها وهي تناديني: «أمير..... أمير»!

فأمسكت بهاتفي مرة أخرى وأجبتها: «أيوه يا نهلة! معاكي».

- «إنت كنت فين؟ وبتعمل إيه»؟

- «ولا حاجة يا حبيبتي ولا حاجة».

عدت مرة أخرى لشرودي وتفكيري ثم فاجأتها بطلب لم تتوقعه:

- «نهلة، أنا عايز أشوفك»!

فقالت وكأنها لم تفهم طلبي:

- «لا يا أمير مش هينفع النهارده لأني تعبانة ووشي متغير أوي».

فقلت موضحًا طلبي:

- «نهلة، أنا مش عايز أشوفك هنا على الكاميرا، أنا عايز أشوفك وأقابلك عندك في الأقصر».

فقالت بعد أن فاجأها طلبي:

- «تشوفني وتقابلني! إنت ناسي إني أخدت الأجازة وقاعدة في البيت؟ يعني مش بخرج يا أمير».

فقلت ملحًّا في طلبي:

- «اتصرفي، اخترعي أي حجة، أنا لازم أشوفك، النهارده الخميس، أنا هكون عندك يوم السبت».

فقالت مندهشة من طلبي: «إنت مجنون، والله خروجي صعب جدًّا يا أمير».

- «أقسم بالله لأكون في الأقصر يوم السبت».

فتساءلت متعجبة من إصراري:

- «إيه يعني سبب الزيارة المفاجأة دي؟ وليه مصمم كده»؟

فقلت وشوقي يسبقني:

- «لإنك وحشتيني أوي يا نونا، يا روحي، يا حبيبة قلبي».

فقالت: «مع إن كلمة نونا وحشتني أوي! لكن جوايا جرح كبير أوي يا أمير».

- «أنا عارف ومقدر كل حاجة، لكن لو سمحتي إديني الفرصة إني أدواي الجرح ده وأعوضك عن كل دمعة نزلت من عينيكي اللي بتسحرني دي».

فقالت بعد أن هدأت ثورتها وبدأت تعود إلى طبيعتها:

«دايمًا بتغلبني بكلامك، ماشي يا أمير هحاول أخرج يوم السبت».

- «ليا طلب تاني».

- «إيه تاني يا سيدي»؟

- «قوليلي بحبك يا نهلة».

فردت بخفة ظلها المعهودة وتعليقاتها الساخرة وابتسامتها الساحرة: «بحبك يا نهلة»!

- «هههههه! بطلي رخامة وقوليلي بحبك».

فقالت: «بحبك يا أمير وبعشق كلامك ونظراتك وكل حاجة فيك، بحبك يا كداااب».

- «كداب!! طيب يلا امشي من هنا».

- «دي أخرتها يعني! بتطردني»؟

- «آه بطردك، يلا قومي نامي علشان عندي حاجة مهمة هعملها».

- «طيب قولي إيه هيا الحاجة المهمة دي»؟

- «مش هقولك دلوقتي، لما أخلصها هقولك».

- «ماشي يا كداب، تصبح على خير»!

- «تاني هتقولي كداب! والله لو شايفك دلوقتي كنت ضربتك».

فقالت بعد أن ضحكت ضحكتها العالية:

- «ماشي، تصبح على خير يا قلب نونا».

على الرغم من أن فرحة رجوعها قد ملكت عقلي وقلبي وتفكيري إلا أنني وأثناء الحديث معها، خطرت ببالي فكرة غريبة وتمثّل أمامي

شخص لم أتذكره منذ فترة بعيدة، وهو مصطفى ذلك الشاب الصعيدي الذي لازمني أثناء رحلتي إلى الأقصر، فلم أتردد لحظة في الاتصال به لأنفذ هذه الفكرة، وبالفعل اتصلت به، وكعادته استقبل مصطفى مكالمتي بترحاب شديد وحفاوة بالغة، ومن دون مقدمات طلبت منه أن يحاول من خلال معارفه في الصعيد أن يستأجر لي شقة في الأقصر قريبة من محطة القطار، وعللت ذلك كذبًا بأنني أنوي افتتاح عيادة هناك، ولم يخذلني الشاب الأصيل وطلب فقط أن أمهله حتى الصباح فاستجبت لطلبه.

غادرت العيادة والسعادة تغمرني، فقد عادت نهلة بعد أنا فقدت الأمل في عودتها وعادت معها الفرحة والابتسامة وراحة البال، عادت نهلة إلى حياتي ولكن بالطريقة التي كنت أتمناها، فلا شك ولا خوف ولا أسرار بعد اليوم، فقد كان هذا السر يمثل حاجزًا كبيرًا بيني وبينها، كنت أحبها وكلي خوف من فراقها بعد أن تعرف حقيقة زواجي، ولكنها الآن عرفت وقبلت وعادت إلى حياتي مرة أخرى بعد أن عشت أسبوعًا كاملًا عانيت فيه الضياع والحرمان، وعلى الرغم من أنني عشت منذ صغري وحيدًا بلا حبيب أو صديق إلا أنني منذ غيابها عرفت طعمًا آخر للوحدة، طعمًا لا يتحمله بشر وإحساس صعب جعلني أتأكد أن حياتي من دونها ستكون أشبه بالجحيم، وها أنا الآن وبعد عودتها أشعر أنني أسعد مخلوق على وجه الأرض.

***

لم يخذلني مصطفى، بل رد بأسرع مما كنت أتوقع، فقد اتصل بي في صباح الجمعة ليخبرني أنه قد اتفق على تأجير شقة بالقرب من محطة القطار وأن صاحبها سينتظرني لتوقيع عقد الإيجار وأعطاني رقم هاتف هذا المالك لأتواصل معه فور وصولي إلى الأقصر، شكرت مصطفى على هذه الخدمة الرائعة ووعدته بزيارة قريبة، وبذلك أكون قد تخلصت من المشكلة الكبرى التي واجهتني في الزيارة السابقة، فقد كنت أتمنى أن أجلس مع نهلة بحرية بعيدًا عن أعين الناس، وحتى تشعر هي الأخرى بالأمان وعدم الخوف من أن يراها أحد أقاربها أو إحدى زميلاتها وهي تجلس معي، أما الآن وبعد أن حل مصطفى هذه المعضلة فقد أصبح كل شيء مُعدًا لهذه الزيارة التي اشتقت إليها كثيرًا.

١٦

اكتسبت الكثير من الخبرات خلال زيارتي السابقة إلى الأقصر، فقد كنت في الزيارة السابقة مثل التائه، فلا أعرف وجهتي ولا مواعيد القطارات ولا مدة هذه الرحلة ولكنني تعلمت الكثير في رحلتي الأولى فقررت ألا أكرر أخطائي السابقة، وأهمها أنني ركبت القطار في العاشرة صباحًا ولذلك وصلت متأخرًا ولم أستطع أن أبقى مع نهلة أكثر من ساعتين، أما في هذه الرحلة فقررت أن أتحرك من القاهرة بعد الفجر مباشرة حتى أبقى طوال اليوم مع حبيبتي، كما أنني اصطحبت معي الكثير من الصحف والمجلات لأتغلب بها على ساعات الرحلة الطويلة.

تحركت من منزلي فجر السبت واتجهت مباشرة إلى محطة القطار وركبت القطار المتجة إلى الصعيد في الخامسة صباحًا، ولكنني في هذه الرحلة لم أشعر بقلق أو خوف فقد كنت مرحًا مبتسمًا أتحدث مع هذا وأضحك مع ذاك وأتحرك بين عربات القطار، وكأنني معتاد على هذه

الرحلة منذ سنين ولم أسأل المحيطين بي عن موعد الوصول والساعات المتبقية من الرحلة كما حدث في الرحلة السابقة، وأعتقد أن هذه الثقة وتلك الطمأنينة لم يكن السبب الوحيد فيهما خبرتي التي اكتسبتها من الرحلة السابقة، بل إن عودة نهلة مرة أخرى وقبولها بوضعي الحالي كان له مفعول السحر في تغير حالتي من التوتر والخوف والقلق والارتباك إلى الثقة والطمأنينة والمرح، حتى أنني في كثير من أوقات هذه الرحلة كنت أشعر أنني متوجه للقاء زوجتي التي تعلم كل أسراري وتقبلها، فتغمرني فرحة عارمة تجعل الابتسامة لا تفارق وجهي.

أما نهلة وكعادتها لم تتركني وحيدًا في هذه الرحلة، فلم تنقطع اتصالاتها منذ بداية الرحلة، وعلى الرغم من أنني طلبت منها أن تنام لتأخذ قسطًا من الراحة على أن أتصل بها فور وصولي إلا أنها كانت تتصل بي كل ساعة تقريبًا لتطمئن عليَّ وتعرف إلى أين وصلت وكم تبقى من زمن الرحلة ولم تخل اتصالاتها من تعليقاتها الساخرة وخفة ظلها المعهودة.. فها هي تتصل في العاشرة صباحًا لتسألني وهي تضحك:

- «وصلت ولا لسه يا أمير»؟

فأرد وأنا منبهر من خفة ظلها:

- «يا بنتي إنتي مجنونة! أنا راكب الساعة خمسة إزاي يعني أوصل الساعة عشرة»؟

فتستكمل سخريتها وضحكاتها قائلة:

- «عادي يا أمير، يمكن السواق بيسوق بسرعة والطريق فاضي».

فأرد بنفس طريقتها الساخرة:

- «هههههههه! لا ده إحنا واقفين من بدري علشان الطريق زحمة والإشارة حمرا».
- «ها ها ها ها دمك تقيل».
- «طيب سيبك من الكلام وقوليلي، جبتيلي برفيوم زي المرة اللي فاتت»؟
- «إنت لحقت تخلص اللي معاك يا أمير»؟
- «آه والله خلص».
- «ليه يابني؟ هو إنت بتشربه»!
- «هههههه قولي إنك بخيلة ومش عايزة تشتريلي واحد جديد».
- «لا يا سيدي والله لأجيبلك اتنين مش واحد».
- «تسلميلي يا قمر، يلا روحي إنتي ارتاحي وأنا هكون عندك قبل الساعة اتنين بإذن الله».
- «إنت لقيت كرسي تقعد عليه ولا واقف يا أمير»؟
- «والله واقف يا حبيبتي لأني مش حاجز، بس ولا يهمك، كله يهون علشان خاطر عيونك يا قمر».
- «طيب يا رومانسي إنت خلي بالك في الزحمة دي حد يسرق فلوسك».

- «الفلوس وصاحب الفلوس فداكي يا عمري».
- «يووووه ده أنا مش هخلص من السهوكة بتاعتك دي، ما إنت في الأول كنت بتتكسف ومكنتش بتعرف تقول كلمتين على بعض، إيه اللي حصل لك»؟
- «اسألي عيونك وخدودك وشفايفك هما السبب في اللي حصلي».
- «امممممم واضح فعلًا إني مش هخلص من السهوكة دي، طيب يا حبيبي كمل إنت مع نفسك وأنا هقوم أكدب على بابا وأقوله إني هنزل أزور شهد لأنها تعبانة وربنا يسامحني على الكدبة دي».
- «ياااا حظ أبوكي اللي هيشوف القمر ده ع الصبح»!
- «يا خويا اتنيل، ده أنا لسه مغسلتش وشي».
- «هههههههههههههههههههه والله حلو حتى من غير ما تغسليه».
- «يلا، أنا هروح أكلمه وإنت لما توصل بالسلامة كلمني».
- «حاضر يا حبيبتي».

١٧

بالفعل انتهت الرحلة في الوقت الذي حددته، فقد وصل القطار إلى محطة الأقصر في الواحدة والنصف بعد الظهر فغادرت المحطة واتجهت مسرعًا إلى العنوان الذي حدده مصطفى ولم يكن المكان بعيدًا عن محطة القطار كما طلبت منه، وبالفعل قابلت صاحب العقار الذي رحّب بي واستقبلني أحسن استقبال، وأخبرني بأن مصطفى قد أوصاه وطلب منه أن يوفر لي كل سبل الراحة.

وبالفعل لم يقصر الرجل واستجاب لكل مطالبي، حتى أنه كان رافضًا رفضًا قاطعًا فكرة الحصول على أي مقابل مادي إلا أنني رفضت دخول الشقة إلا بعد أن يحصل على حقه كاملًا، فوافق الرجل على مضض، وأوصلني إلى الشقة وسلمني مفاتيحها فدخلتها وألقيت عليها نظرة سريعة وكانت شقة صغيرة ولكنها جميلة ومرتبة، وأجمل ما فيها أنها مطلة على الشارع الرئيس.

وبينما أنا أتجول في الشقة وأتبيّن محتوياتها، إذ اتصلت نهلة وأخبرتني أنها تنتظرني أمام فندق الوفا الذي التقينا فيه في الزيارة السابقة، ولكنها فوجئت عندما أخبرتها أنني لن أقابلها في الفندق، بل سيكون لقاؤنا في شقة قريبة منه، فاضطربت قليلًا ورفضت الفكرة في بادئ الأمر، إلا أنني استطعت أن أقنعها بفكرتي بعد أن أكدت لها أن لقاءنا هنا أكثر أمانًا كما أنه سيريحها من القلق الذي يصيبها أثناء تواجدها معي أمام الناس، وافقت نهلة على الفكرة ووصفتُ لها العنوان، ثم جلست أنتظرها بشوق ولهفة، وما هي إلا دقائق معدودة حتى دق جرس الباب، فأسرعتُ إليه وفتحته فوجدتها أمامي بجمالها ورقتها وطلتها الباهية وابتسامتها الساحرة، وقفت أمامها ساهمًا وكأنني غير مصدق أنني أراها من جديد وجهًا لوجه، غير مصدق أن قصتنا ستكتمل وأن هذا الحب سيستمر، وقفت صامتًا وعيناي تتفحص كل تفاصيلها حتى احمرّ وجهها من شدة الخجل ثم قالت ساخرة من موقفي: «ما تجيب كرسيين ونقعد قدام الشقة أحسن يا أمير»!

فابتسمتُ لتعليقها الساخر ثم أمسكت بيدها وأدخلتها الشقة وأغلقت الباب فازداد خجلها وسحبت يدها من يدي وأرادت بذكائها أن تبعدني عنها وتشغلني في موضوع آخر فسألتني: «إيه بقى حكاية الشقة دي؟ وجبتها إمتى وإزاي»؟

فأجبتها مبتسمًا: «أنا حبايبي في كل مكان وكلهم يتمنوا يخدموني».

فسألتني مرة أخرى متعجبة: «يعني إنت ليك معارف في الأقصر يا أمير»؟

- «سيبك من المعارف والكلام ده وقوليلي، تقبلي تتجوزيني في شقة بسيطة زي دي»؟

فقالت وقد ازداد وجهها احمرارًا من شدة الخجل: «والله يا أمير أنا بمتنى أكون معاك حتى لو في أوضة على السطوح».

فاقتربت منها ونظرت في عينيها قائلًا بهمس: «أنا بحبك أوي يا نهلة»!

فصمتت نهلة ثم أدارت وجهها عني خجلًا فحاولت أن أعيد وجهها ناحيتي مرة أخرى، ولكنها رفضت، فأجلستها على المقعد القريب منها ثم نظرت في عينيها لأكتشف أنها تبكي وتداري دموعها عني فسألتها برفق: «إنتي بتبكي يا نهلة»؟!

فردت بصوت متهدج:

- «إنت جرحتني يا أمير، لما حبيتك مكنتش متخيلة أبدًا إن حياتك هيكون فيها واحدة غيري».

فأمسكت بيدها وقرّبتها من شفتي لأقبلها، ولكنها انتفضت من مكانها وجذبت يدها من يدي وقالت والخجل يملأ وجهها: «بتعمل إيه يا أمير؟ إنت اتجننت»؟

فأجبتها مبتسمًا: «آسف، أنا فعلا معنديش نظر، إزاي أبوس إيدك وقدامي شفايفك اللي تسحر دي»؟

فتعجبت نهلة من ردي، ولكنني لم أترك لها فرصة التعجب واقتربت منها أكثر وضممتها إلى حضني وهي تحاول عبثًا الخلاص من بين يدي ولكن من الواضح أنها أيضًا كانت تشتاق إلى هذا الحضن مثلما أشتاق إليه فما هي إلا لحظات قليلة واستلسمت تمامًا لأحضاني وقبلاتي ولم أعد أسمع إلا أنفاسها الدافئة وتنهيداتها التي تحمل كل معاني الرقة والأنوثة ولم أعد أشعر إلا بنعومتها التي فاقت نعومة الأطفال.

مرت ساعة وكأنها لحظات ونحن على هذا الحال غارقين في بحر من الأحضان والقبلات واللمسات الدافئة حتى أحسست بها تتشبث بي أكثر وتطوّقني بذراعيها، وكأنها تعتصر جسدي عصرًا فأخرجتها من حضني ورفعتها وجهها نحوي فوجدتها تبكي بصوت مكتوم فسألتها: «ما لك يا نهلة»؟

فعادت مرة أخرى إلى أحضاني وأسندت رأسها إلى صدري وقالت وهي تبكي: «خليك معايا يا أمير وإوعى تسيبني، أنا من غيرك كنت تايهة، عشت الأسبوع اللي فات من غيرك زي المجنونة، أنا خلاص يا أمير لا بشوف ولا بسمع ولا بكلم حد غيرك».

فأجلستها مرة أخرى على المقعد القريب منها ثم مسحت دموعها بيدي وقلت لها مبتسمًا وأنا أداعب شعرها الناعم: «كنتي من غيري زي المجنونة؟ يعني الحمد لله مش أنا بس اللي مجنون زي ما زميلتك قالت عني».

وأخيرًا ابتسمت نهلة فأمسكت بيدها ووضعتها على شفتي ثم قلت وأنا أقبّل يديها: «خلاص يا نهلة مفيش بُعد ولا فراق تاني، كفاية آلام وأحزان وقلق وتوتر، أنا كمان مبقتش قادر أبعد عنك لحظة واحدة ومش هقدر أتحمل الوضع ده تاني.. أنا خلاص يا نهلة قررت أزوركم وأطلب إيدك من والدك».

فانتفضت نهلة من مقعدها متسائلة بفرحة غطت ملامح وجهها: «بجد يا أمير»؟

- «بجد يا قلب أمير».
- «طيب إمتى»؟
- «إن شاء الله هرجع القاهرة بكرة، وعندي شغل هخلصه وبعدين أجي أزوركم أنا والحاج سعيد يوم الخميس الجاي إن شاء الله».

ومن الواضح أنها لم تتوقع هذا الموعد القريب؛ لأنها صمتت قليلًا وهي ساهمة ثم قالت مندهشة: «الخميس الجاي؟ يعني بعد أربع أيام؟ بسرعة كده يا أمير»؟

- «صدقيني يا نهلة أنا تعبت، بُعدك عني بيقتلني، ويا ريتك كنتي في مكان قريب كنت أقدر أشوفك أو أزورك كل يوم، لكن للأسف المسافة اللي بيني وبينك تقتل، فمفيش داعي إننا نضيع وقت أكتر من كده».

فوضعت نهلة يدها على خدها وكأنها تفكر في شيء ما، فتغيّر وجهها واختفت ملامح الفرحة منه فسألتها: «مالك يا نهلة؟ بتفكري في إيه»؟

فردت بصوت حزين: «أنا خايفة بابا يرفض يا أمير»!

فسألتها بضيق وغضب: «يرفضني أنا يا نهلة؟! يرفض أمير الباهي»؟!

فلم ترد نهلة واكتفت بالنظر في عيني، ثم أعادت نظرها مرة أخرى إلى الأرض ففهمت صمتها ونظراتها وعدتُ إلى مقعدي مرة أخرى وجلست صامتًا قليلًا، ثم قلت بصوت يملؤه الحزن:

- «أبوكي يرفضني! طبعًا تقصدي إنه هيرفضني لما يعرف إني متجوز، طيب قوليلي إيه ذنبي؟ إيه المشكلة لما أحس إني مش مرتاح في حياتي وأفكر في الزوجة التانية اللي تريحني وتحميني من الحرام، وطالما إني هتقي ربنا في بنته وهشيلها على راسي، يبقى هيرفض ليه؟ ما يوافق وياخد الشروط اللي تريحه وأنا مش هتأخر، لكن مينفعش يرفض يا نهلة لأني مش هقدر أعيش من غيرك».

تنهدت نهلة تنهيدة عميقة ثم قالت وهي تبتسم: «طيب بلاش نسبق الأحداث وخلينا نتوقع الخير».

- «طيب تمام، إنتي بقى الدور عليكي تمهدي الموضوع لأبوكي وتاخدي منه ميعاد».

فرفضت نهلة كلامي حتى قبل أنا أكمله قائلة: «أنا؟! لا طبعًا يا حبيبي أنا أتكسف أقول الكلام ده لبابا، انسى إني أعمل كده».

فقلت متعجبًا من موقفها: «الله!! أومال يعني أدخل عليكم كده فجأة من غير مواعيد ولا الراجل ياخد فكرة عن الموضوع»!

فاقترحت نهلة اقتراحًا وجدته مناسبًا؛ حيث قالت: «طيب بص.. أنا هقوله إنك عندك مؤتمر هنا في الأقصر، وإنك هتيجي تزورنا علشان تشوف كريم عن قرب وتعرف حالته كويس».

وافقتُ نهلة على اقتراحها واستكملنا جلستنا الممتعة المليئة بالابتسامات والأحضان والقبلات والأحاديث الدافئة حتى فاجأتني نهلة بصرختها وهي تقول: «يا نهار أبيض، الساعة خمسة يا أمير، أنا كده اتأخرت أووي».

ثم تناولت حقيبتها وجهّزت نفسها للرحيل، فأمسكت بيدها مرة أخرى وارتسمت على وجهي علامات الحزن فابتسمتْ قائلة:

- «متهيألي مفيش داعي المرة دي لحزنك ودموعك، إنت كلها أربع أيام وتكون عندي، وكمان في بيتي».

فقلت وقد بدأ الحزن يتملكني: «طيب خليني أوصلك للمحطة اللي بتركبي منها».

فرفضت قائلة: «مينفعش تمشي معايا يا أمير، أنا أخاف حد يشوفنا».

فطمأنتها قائلًا: «متخافيش مش همشي جنبك، أنا همشي قدامك وإنتي خليكي ورايا».

- «مااشي يا سيدي وأنا موافقة».

غادرنا الشقة وبالفعل مشيت أمامها، وهي تمشي خلفي وبين الحين والآخر التفت خلفي وأنظر في عينيها الساحرتين، فأجدها تبتسم خجلًا كعادتها حتى مررنا بالصدفة أمام متجر لبيع الهدايا، فألقيت نظرة سريعة على ما يعرضه، فأعجبتني سلسلة فضية يتدلى منها قلب مقسوم إلى نصفين على أحدهما مكتوب «لا إله إلا الله» وعلى الآخر جملة «محمد رسول الله»، فدخلت المتجر واشتريت هذه السلسلة، وأخذتُ نصف القلب ثم تباطأتُ قليلًا حتى أصبحت نهلة بجواري فوضعت النصف الآخر في يدها، دون أن يلاحظني أحد، ثم عدت لمشيتي الطبيعية مرة أخرى، والتفت خلفي فوجدتها تنظر لنصف القلب وتبتسم ثم قرّبته من شفتيها وقبّلته.

واستمر سيرنا حتى وصلنا إلى موقف السيارات، ووقفتُ أنظر إليها حتى استقلتْ سيارتها وغادرت، ولكن ما أسعدني في هذا اليوم أنني لم أعاني ما عانيته من آلام وهموم وأحزان ودموع في المرة السابقة عندما ودعتها، بل كانت ابتسامتنا هي عنوان هذا الوداع، فقد اقترب حلمنا من نهايته السعيدة، وبعد أيام قليلة ستكون علاقتي بها رسمية وأمام الجميع وينتهي إلى الأبد شعوري السخيف بالألم والفراق.

***

بعد أن رحلت نهلة وجدت أن الوقت ما زال مبكرًا على موعد قطاري الذي سيتحرك في العاشرة مساءً، فأخذت أتجول في شوارع

الأقصر الجميلة وانتهزت الفرصة لشراء بعض الهدايا التذكارية من هذه المدينة الأثرية الرائعة، كما أنني لم أنس الحسن والحسين، فكان لهما كالعادة النصيب الأكبر من الهدايا والملابس، وبعد أن قضيت أكثر من ساعتين في شوارع الأقصر عدت إلى الشقة مرة أخرى لأرتاح قليلًا وأجلب حقيبتي وأستعد لرحلة العودة، عدت إلى الشقة واسترخيت على المقعد المطل على الشارع الرئيس، ثم وجدت هاتفي يرن فتأكدت أنها نهلة تتصل لتطمئنني على وصولها بالسلامة فتلقيت اتصالها فرحًا: «ألو، وصلتي يا حبيبتي»؟

- «أيوه يا أمير، وصلت».
- «والدك لاحظ حاجة»؟
- «لا الحمد لله هو أصلًا مش في البيت».
- «طيب قوليلي، عجبك القلب»؟
- «عجبني أوي يا حبيبي، أنا حطيته في السلسلة اللي في صدري، وهيفضل كده حتى بعد ما نتجوز».
- «هههههه يااااا حظه القلب ده اللي هيفضل في حضنك».

فقاطعتني وهي تبتسم قائلة:

- «على فكرة يا أمير أنا كنت ملاحظة من أول ما عرفتك إنك رومانسي أوي ومثقف أوي وشيك أوي وكلامك مرتب ومنظم وحلو أوي، لكن بصراحة النهاردة بس أول مرة أعرف إنك قليل الأدب أووووي».

فلم أستطع أن أسيطر على نفسي من حالة الضحك التي انتابتني ثم قلت:

- «عيب يا نونا تقولي كده على زوج المستقبل، وبعدين أنا عملت إيه يعني علشان تقولي كده»؟

فسألتني متعجبة: «يعني مش عارف إنت عملت إيه»؟

- «والله يا نونا شفايفي ما قدرت تقاوم جمالك ونعومتك».

فقالت بخفة ظلها: «وبالنسبة لإيدك كمان مقدرتش تقاوم»؟

فضحكت مرة أخرى ثم قلت:

- «خلاص يا نونا كلها أيام وتكوني مراتي، ووقتها لا تقولي شفايفك ولا إيدك».

فسألتني: «بس قولي بجد، هو إنت كنت حالق دقنك قبل ما أجيلك على طول؟ أصلها كانت ناعمة أوي، والله كنت مكسوفة أوي، كنت حاسة إن بشرتك أنعم من بشرتي».

فأجبتها ضاحكًا بصوت عالٍ: «واضح إنك فعلًا كنتي مكسوفة، والدليل إنك كنتي مركزة في أدق التفاصيل حتى دقني عرفتي إنها ناعمة».

وأثناء حواري معها لمحت بطرف عيني حافظة أوراق ملقاة على الأرض، فالتقطها لأجدها تحتوي على مفكرة بها العديد من أرقام الهواتف ومجموعة من الصور لأشخاص غريبة لا أعرفها، ثم انتبهت فجأة لصوت نهلة وهيا تتحدث: «ما لك يا أمير إنت رحت فين»؟

فقلت متعجبًا من وجود هذه الحافظة: «مش عارف يا نهلة! لقيت حاجة غريبة هنا»!

فواصلت سخريتها وتعليقاتها المضحكة قائلة: «خير! لقيت إيه؟ إوعى يكون الشقة فيها عفريت»؟

- «عفريت إيه بس، دي حافظة فيها صور ومفكرة تليفونات صغيرة».

ففوجئت نهلة بكلامي وعلا صوتها فجأة قائلة: «يا نهار أسووود، هيا وقعت عندك»؟

- «إيه هيا اللي وقعت عندي»؟
- «دي صور شهد يا أمير اللي الواد كان بيهددها بيهم اللي اسمه «طارق»، سابتهم معايا كانت خايفة حد يشوفهم عندها في البيت».

فأخذت أتفحص الصور مرة أخرى ثم قلت ساخرًا: «هيا دي شهد اللي بتقول عليا مجنون»!

- «أيوه يا سيدي، هيا دي».
- «ومتصورة وهيا نايمة على صدر الواد وبتدلع أوي، أومال لو حلوة شوية كانت عملت إيه»؟!
- «وإنت ماااالك حلوة ولا وحشة، حط الصور مكانها وبلاش تبص عليها، وبعدين شهد صاحبتي وزي القمر».
- «أمر بالستر يا حبيبتي، دي شبه البساريا».

فضحكت ثم سألتني متعجبة: هههههه يعني إيه بساريا يا أمير»؟

- «البساريا دي نوع من السمك بس صغير أووي».

- «هههههههه! يا سلام على تشبيهاتك الغريبة».

فسألتها: «وبعدين في واحدة محترمة تعمل كده»؟

فقالت رافضة كلامي: «لا.. لا.. لا بلاش تتكلم عن الاحترام؛ لأن لو كان حد شافني النهارده وأنا في حضنك كان هيقول عليا أنا كمان إني مش محترمة».

- «لا بعد الشر عليكي يا عمري».

- «طيب المهم قولي، إنت هتبات عندك ولا إيه»؟

- «لا يا حبيبتي أنا خلاص همشي؛ لأن باقي على ميعاد القطر نص ساعة».

- «طيب إنت أكلت يا أمير»؟

- «أيوه يا حبيبتي أكلت».

- «طيب يا حبيبي خلي بالك من نفسك، وأنا هكلمك باستمرار لحد ما توصل».

- «حاضر يا نونا، ربنا بس يهوّن عليا الرحلة الطويلة دي».

فقالت قبل أن تنهي المحادثة:

- «أمير، إوعى يا حبيبي حد يشوف معاك الصور دي».

فطمأنتها قائلًا: «لا يا حبيبتي اطمني، أنا هسيبها هنا في الشقة».

- «طيب توصل بالسلامة يا حبيبي».

ـ «الله يسلمك»!

أخذت حقيبتي واتجهت إلى محطة القطار، ووقفت في ساحة الانتظار ثم التفتُ خلفي لألقي نظرة على لافتة فندق «الوفا» المطلة من بعيد بأضوائها المتلألئة، فتذكرت لقائي الأول مع نهلة في هذا المكان الجميل، ثم انطلقت صافرة القطار القادم من بعيد فوضعت قدمي في عربة القطار ثم ألقيت نظرة أخرى على لافتة الفندق والقطار يتحرك، ولكن نظرتي إليها هذه المرة اختلفت كثيرًا عن المرة السابقة التي ودّعت فيها الفندق بالدموع والآلام، أما اليوم وكما ودّعت نهلة بابتسامتي ودعتُ أيضًا لافتة الفندق بابتسامة أكبر، وكأنني انتصرت على دموعي وأحزاني، وكم هي غريبة نفس الإنسان التي تحزن وتنهار وقت الفراق وفقدان الأمل، فترسم على وجهه كل علامات الحزن والاكتئاب، ثم يعود الأمل فجأة فتصحو نفسه وتتألق فتجعله أخف وأرق من العصفور الذي يطير بجناحيه فرحًا ليلامس السماء!

ركبت القطار بوجه مشرق، ونفس مطمئنة، فلم أحزن ولم أبكِ ولم أتألم، بل رحت في نوم عميق لم أفق منه إلا مع انتهاء الرحلة في القاهرة.

١٨

عدت إلى بيتي محمّلًا بالهدايا للحسن والحسين، وعلى غير عادتي دخلت البيت سعيدًا مبتسمًا واتجهت مباشرة إلى غرفتهما وأيقظتهما وجلست أداعبهما وألهو معهما، حتى إن زوجتي تعجبت من حالتي الغريبة، ووقفتْ بمدخل الغرفة تشاهد ما يحدث غير مصدقة وكعادتها أبت أن تمر هذه اللحظات السعيدة دون أن تطرح بعضًا من تعليقاتها وأسئلتها المستفزة، فقالت بنبرة تملؤها السخرية:

- «حلو البرفيوم اللي ملا الشقة من أول ما وصلت! هو إنت المرة دي كان عندك مؤتمر في فرنسا»؟

لم أهتم بكلامها وأسلوبها المستفز، واتجهت إلى غرفة نومي لأحصل على قسط من الراحة، قبل استئناف عملي في عيادتي في المساء، ولكن قبل أن أنام أجريت اتصالًا هاتفيًّا بالحاج سعيد، اطمأننت على صحته ثم

طلبت منه أن يزورني في العيادة مساءً لأمر مهم، وكعادته رحّب الرجل بهذه الدعوة ووعدني باللقاء في الموعد الذي حددته.

استيقظت من نومي في الخامسة مساءً تقريبًا ثم اتجهت مباشرة إلى عيادتي، ومن الواضح أن حالة النشوة والسعيدة التي أعيشها قد ظهرت آثارها في عملي أيضًا، فقد بدأت عملي في السادسة مساءً بكل همة ونشاط وكأنني قد اشتقت إلى العيادة التي ظلت مغلقة لعشرة أيام متواصلة، انهمكت في عملي دون شعور بالوقت حتى نظرت إلى هاتفي فاكتشفت أن الساعة اقتربت من الواحدة صباحًا، ودخلت الفتاة المسؤولة عن العيادة لتخبرني بأن الحاج سعيد ينتظر بالخارج، فطلبت منها إدخاله على الفور.

دخل الحاج سعيد بطلعته البهيّة وابتسامته التي تعلو وجهه فقمت من مقعدي أستقبله، فاحتضنني حضنًا طويلًا وكأنه يعتصرني عصرًا بقوته المفرطة وقامته الطويلة، ولم يخل هذا الحضن من عبارات اللوم والعتاب على غيابي وتغيّر حالتي في الفترة السابقة، ثم جلس الحاج سعيد بوجهه العريض الأبيض الذي يميل إلى الحمرة واستمر على ابتسامته قائلًا:

- «الله الله الله! ده النهارده الوش بيضحك والشبابيك مفتوحة والحالة عال».
- «الحمد لله يا حاج سعيد! ربنا يديمها نعمة».
- «إيه يا بني؟ ولا شفتك ولا سمعت صوتك من آخر مرة كنت عندي في البيت، خير في حاجة»؟
- «والله مشاغل يا حاج».

فنظر الحاج سعيد في عيني بعينيه الثاقبتين وكأنه غير مصدق لما أقول ثم قال مبتسمًا:

- «يا بني مشاغل إيه! هو إنت مفكرني مراتك هتضحك عليها بكلمتين»!
- «هههههههههه! طيب ما تفتكر لنا حاجة حلوة يا حاج».
- «سيبك من الكدب ده ومتقولش مشاغل، لأني عارف إن العيادة كانت مقفولة طول الأسبوع اللي فات».
- «اممممم هيا البت اللي بره لحقت تنقل لك الأخبار».
- «البت اللي بره أصيلة أكتر منك، على الأقل لما بتصل عليها بترد مش بتقفل تليفونها زيك».
- «ربنا العالم يا حاج سعيد إِنِّي بعتبرك أبويا، وإنت عارف كويس إني مليش في الدنيا غيرك، أنا وعيت على الدنيا يا حاج لا لقيت أخ ولا أخت ولا أم وحتى أبويا مات وأنا في الثانوية، فرميت حملي عليك ولسه برخم عليك وبضايقك، هعمل إيه مليش غيرك».
- «هههههه! يا عم رخّم براحتك، بس بالله عليك بلاش تغيب وتقلقني عليك، تعرف يا أمير أنا فعلًا بتصل بالبت اللي بره باستمرار أطمن عليك، لكن اللي متعرفوش إني كل ليلة لازم أعدي بعربيتي من الشارع وأرفع راسي أبص على العيادة، ووالله يا أمير بتضايق وبحزن لما ألاقي النور مطفي

والعيادة مقفولة، وبطير من الفرحة لما ألاقيها مفتوحة ونورها مالي المكان والناس نازلة وطالعة العيادة، أومال يا أمير! ده أنا بتباهى بيك في كل مكان، وخصوصًا يا واد لما بيستضيفوك في التلفزيون وتبقى منور الشاشة كده ومكتوب في الشريط اللي تحت: «الدكتور أمير الباهي أحسن دكتور أمراض نفسية وعصبية في مصر» هههههه! والله ببقى عايز أقوم أتحزم وأرقص».

فعقّبت على كلامه بسؤال ساخر: «إنت بتعرف ترقص يا حاج سعيد.! يعني الناس كلها بتعرف ترقص وإنت بتعرف ترقص ومراتي الوحيدة اللي مش بتعرف»؟

فَعَلَا صوته في المكان وهو يضحك قائلًا: «والله العظيم ضحكتني من قلبي، طيب ما تجيبها يا أمير وأنا أعلمها الرقص».

تحدثنا كثيرًا وسخرنا من أحوالنا وأوضاعنا وضحكنا كثيرًا ثم قطعت هذه الحالة الجميلة بطلبي من الحاج سعيد قائلًا: «أنا عايزك في موضوع مهم يا حاج سعيد».

فرد قائلًا: «إنت تؤمر يا أمير، إنت لما اتصلت في النهار قلت أكيد في حاجة، قول محتاج إيه»؟

سكتُّ قليلًا ثم قمت من مكاني وأشعلت سيجارة واقتربت من الحاج سعيد وقلت بصوت منخفض: «عايزك تيجي معايا الأقصر يا حاج».

فسكت الحاج سعيد ونظر في الأرض وكأن طلبي قد صدمه ثم قال: «لسه مصمم على موضوع نهلة يا أمير»؟

فقلت: «أيوه لسه مصمم».

فسألني: «اعترفت لها بظروفك ووافقت عليها»؟

- «أيوه وافقت».
- «وأهلها موافقين»؟
- «أهلها لسه ميعرفوش يا حاج».
- «وناوي تروح إمتى»؟
- «يوم الخميس إن شاء الله».

فتعجب من تعجلي قائلًا: «بسرعة كده يا أمير»!

- «مفيش داعي للتأجيل، أنا عايز أخلص كل حاجة وإحنا في الإجازة».

فسكت الحاج سعيد طويلًا، وكأنه كان يفكر قبل اتخاذ قراره، وفي النهاية قام من مكانه وقال وهو يستعد للخروج:

- «على العموم أنا بتمنى لك كل خير يا أمير، لكن للأسف أنا مش هقدر أكون معاك».

فسألته وقد صدمني رده: «هتسيبني لوحدي»!

فقال: «إنت روحت هناك أكتر من مرة، وعارف طريقك كويس يا أمير، مش محتاج حد معاك».

فسألته: «ممكن أعرف سبب رفضك»؟

فابتسم الحاج سعيد وكأنه يحاول إرضائي وقال وهو يغادر العيادة: «مفيش أسباب ولا حاجة، صدقني، إنت مش محتاج حد معاك يسندك أو يساعدك إنت اسمك لوحده كفايه يا أمير».

***

غادر الحاج سعيد العيادة، وتركني وحيدًا تائهًا بين أفكاري، فقد صدمني برده ورفضه الغامض، فلأول مرة يتخلى عني ولأول مرة يرفض طلبي ومن دون أن يوضح أسباب رفضه، حتى أن موقفه أثار حيرتي وجعلني أغرق في بحر من الأفكار الغريبة والأسئلة التي لا أجد لها إجابة.

فهل رفض الحاج سعيد طلبي منحازًا إلى زوجتي التي تواظب على الاتصال به وتنقل له كل صغيرة وكبيرة وتحاول دائمًا أن تظهر أمامه بمظهر الضعيفة المظلومة وتطلب منه أن يحاول التأثير عليَّ وإقصائي عن أي موقف تراه غير مناسب لها!

هل رفض خوفًا على أبنائي، فكثيرًا ما تحدث معي عن مستقبلهما بعد زواجي وما سيصيبهما من آلام وتشرد!

هل رفض لأنه بخبرته الكبيرة في الحياة قد رأى ما لم أرَ وتوقع أن لهذا الطريق نتائج سيئة ولذلك آثر الانسحاب!

هل عندما سألني عن موقف أهلها كان يلمح لاستحالة موافقة والدها ذلك الرجل الصعيدي الصلب، ولذلك انسحب حتى لا يضع نفسه في هذا الموقف المهين!

أسئلة كثيرة خطرت ببالي ولم أجد لها إجابة مقنعة، ولكن مهما كثرت الأسئلة ومهما ازدادت حيرتي فالوضع لن يتغير، فقد ازداد موقفي صعوبة بعد انسحاب الحاج السعيد، والذي كنت أعتبره سندي الوحيد في هذا الطريق وهذه الرحلة الصعبة، حتى وإن كنت لبقًا وكلامي منظمًا ومرتبًا، فهؤلاء الكبار -وخاصة سكان الجنوب من أهل الصعيد- يحتاجون إلى لغة مختلفة وأسلوب مختلف عن أسلوبنا نحن الشباب، ومن المؤكد أن الحاج سعيد بخبرته وأسلوبه وطريقته في التعامل وحتى في ملابسه التي تشبه ملابسهم كان سينجح في إقناعهم، ولكن... ولكن انسحب الحاج سعيد وتركني وحيدًا في طريقي الصعب.

ووسط هذه الأفكار التي تزاحمت في رأسي نظرت إلى هاتفي فاكتشفت أن الساعة قد اقتربت من الثالثة، ولم يتبق على أذان الفجر سوى ساعة، فحملت حقيبتي لأرحل، ولكن استوقفني صوت هاتفي فجلست مرة أخرى وكانت نهلة هي المتصلة، فتلقيت اتصالها متعبًا من كثرة العمل والتفكير:

- «أهلًا يا نهلة، عاملة إيه»؟

فقالت: «إيه المقابلة الجافة دي، وكمان طول اليوم مسمعتش صوتك يا أمير»!

فقلت والتعب يملأ صوتي: «معلش يا حبيبتي كنت مشغول أوي في العيادة».

فقالت وكأنها لم تقتنع بكلامي: «لا.. لا.. لا مش موضوع شغل ده؛ لأن صوتك كمان مش عاجبني خاااالص، ما لك يا أمير»؟

فتنهّدت تنهيدة أخرجت ما بداخلي من نيران وآلام ثم قلت بحزن: «الحاج سعيد رفض ييجي معايا الأقصر يا نهلة».

فسألتني: «وهو ده اللي مزعلك»؟

- «طبعًا مزعلني، هو أنا ليا في الدنيا غيره»!

صمتت نهلة قليلًا وكأنها كانت تفكر في شيء ما ثم قالت: «بقولك إيه يا أمير، أنا عندي فكرة وياريت تعجبك».

- «خير يا حبيبتي! قولي».

فقالت متحفزة: «متهيألي مفيش بيت في مصر كلها يقدر يرفض يكون في علاقة نسب بينه وبين الدكتور أمير الباهي، أشهر دكتور أمراض نفسية وعصبية في مصر.. لكن في ناس ممكن تفكر وناس ممكن ترفض من غير ما تفكر لما تعرف إنك متجوز وعندك أولاد».

فقلت متعجبًا من كلامها المُعاد: «متهيألي يعني كلامك مفيهوش أي جديد».

فسكتت قليلًا ثم فاجأتني بفكرتها الغريبة قائلة: «لا يا أمير، الجديد والفكرة اللي جت على بالي إنك تخبي عن بابا إنك متجوز».

تعجبت من كلام نهلة، واندهشت لفكرتها العجيبة، ولكن في نفس الوقت فرحت لأنها مستعدة لعمل أي شيء من أجلي، حتى وإن كان هذا

الشيء مخالفًا لعاداتنا وتقاليدنا، حتى وإن كان هذا الشيء هو الكذب على والدها، ولكنني قابلت فكرتها بدهشتي وسؤالي قائلًا:

- «يا سلالالام! ده على أساس إن الاتفاق والخطوبة والفرح هيتموا من غير أبوكي ما ينزل القاهرة ويزورني ويسأل عني! هو أنا متجوز تحت الأرض يا نهلة! كل الناس هنا عارفة إني متجوز وعندي أولاد».

فقاطعتني قائلة: «استنى بس يا أمير واسمعني كويس».

- «قولي يا أم العُريف».

فضحكت من كلمتي ثم قالت: «إنت هتقول لبابا إن عندك سفر ومؤتمر بره مصر بعد شهر، وإنك لازم تخلص الاتفاق وتتجوز خلال الشهر ده، وكمان تقوله إنك هتتجوز هنا في الأقصر، وتقضي شهر العسل لحد ما ييجي ميعاد السفر، وبعدين تسافر وتاخدني معاك على أساس إنك رايح تحضر المؤتمر بتاعك، وبعد يومين تلاتة ولا حتى أسبوع نرجع على شقتنا في القاهرة، ولو بابا عرف يبقى خلاص الموضوع بقى أمر واقع، وبابا ممكن يزعل شويه وبعدين هيروق».

فأعدتُ سؤالي مرة أخرى: «وأبوكي هيوافق على الجواز من غير ما ينزل القاهرة ويسأل عني»؟

فاستأنفت كلامها قائلة: «يا حبيبي مش هيكون في وقت يسافر ويلف ويسأل، وبعدين أنا هفتح له الإنترنت وأخليه يشوف أخبارك وصورك أو أحمل من اليوتيوب برنامج من البرامج اللي إنت بتظهر فيها

في التلفزيون وأخليه يشوفها، وأقنعه إنك شخصية عامة ومحترمة ومصر كلها تعرفك وإنك مش محتاج إن حد يسأل عليك».

وعلى الرغم من عدم اقتناعي بكلامها إلا أنني كنت أستمع إليها وأنا في غاية السعادة، فهي تفكر وتحتار وتنشغل مثلي -بل أكثر- ومستعدة لعمل المستحيل حتى تكون معي وبين أحضاني، حتى ولو كان وجودها معي على حساب أهلها، استمعت لفكرتها العجيبة ثم قلت لها مبتسمًا:

- «أنا بحبك أوي يا نهلة! وكل يوم حبي ليكي بيزيد أكتر وأكتر وصدقيني، والله العظيم أنا مستعد أعمل المستحيل علشان أكون جنبك، لكن معلش يا حبيبتي أنا مش هبدأ حياتي معاكي بالكذب، وعيب أوي إن الناس تفتح لي بيتها وترحب بيا ويكرموني وأنا أقابل كرمهم ده بالكدب والخيانة».

فردت نهلة بصوت منخفض وكأنها غضبت من عدم اقتناعي بفكرتها:

- «طيب فكر في كلامي كويس يا أمير؛ لأن ده مش وقت أصول ومبادئ».

فقلت متمسكًا برأيي ومبدأي:

- «مش محتاج إني أفكر علشان اختار الطريق الصحيح؛ لأنه أصلًا باين وواضح أوي قدامي، أنا هاجي يوم الخميس يا نهلة ولوحدي ولا أخ ولا أخت ولا صاحب، مفيش غير ربنا

معايا، ومش هكدب ولا هخون وطالما نيتي خير ربنا مش هيخذلني أبدًا».

فقالت وكأنها قد يئست من إقناعي:

- «اللي شايفه صح اعمله يا أمير، أكيد إنت تفكيرك ورؤيتك أحسن من تفكيري ورؤيتي، وفي كل الأحوال بتمنى إن ربنا يقربنا من بعض ويفرحنا».
- «إن شاء الله يا حبيبتي خير».

***

غادرتُ عيادتي مع أذان الفجر، ومع أنني دخلتها أول اليوم وأنا مفعم بالأمل والابتسامة تملأ وجهي، خرجت منها آخر اليوم وأنا حيران مشتت الفكر ترتسم على وجهي كل علامات الحزن والاكتئاب، حتى إنني قدت سيارتي بصعوبة ووصلت بيتي متعبًا، فاستلقيت على فراشي وأنا بملابسي وحذائي ورحت في نوم عميق.

١٩

استيقظت من نومي في الثالثة عصرًا فلم أتحمل كعادتي الوجود في البيت، فَقُدت سيارتي أتجول بها في شوارع القاهرة، ثم خرجت من هذا الزحام الممل والكئيب وانعطفت بسيارتي إلى أحد الشوارع المطلة على النيل، حتى وجدت مكانًا هادئًا في أحد المقاهي، فتركت سيارتي وسحبت مقعدًا وجلست وحيدًا على النيل بعيدًا عن الضوضاء وصخب مكبرات الصوت الموجودة بالمقهى، أفكر في حالي وما آلت إليه أموري في الفترة الأخيرة، وكالعادة بدأت الأسئلة تطاردني والأفكار تتزاحم في رأسي، فهل كل ما أعانيه في الفترة السابقة من آلام وأحزان ودموع سببه الحب! هل التشتت الذي اقتحم حياتي في الفترة الأخيرة بسبب الحب! فقد أصبحت مشتتًا في بيتي، في الجامعة، في عيادتي، إذًا الحب هو سبب كل المشكلات وكل الأحزان والآلام والدموع والتفكير والشرود.. فلماذا إذًا يتغنون بحلاوة وجمال ورقة الحب وأيامه ولياليه وسهراته الممتعة! ولكن ربما هم على صواب وأنا المخطئ، يجوز أن من تحدث وتغنى بجمال وروعة

الحب لم يقصد حبي أنا ولم يجعله من ضمن أنواع الحب التي تسبب الفرحة والنشوة، من المؤكد أنه كان يقصد حب الشباب الصغار، حب المراهقة، ومن المؤكد أيضًا أنه لم يقصد حبي أنا على الإطلاق؛ لأن حبي ليس من أنواع الحب التي تجلب الفرحة والسعادة والنشوة، بل هو النوع الوحيد الذي يجلب القهر والحزن والآلام والدموع، يجلب الفكر الذي قد يصل بصاحبه إلى مرحلة الجنون، يجلب الخوف والقلق والتوتر، من المؤكد أن من تغنوا بجمال الحب وروعته لم يقصدوا حبي أنا؛ لأن حبي في نظر الكثيرين حرااام وعار وخيانة، فهو في نظر زوجتي خيانة لرباط الزوجية المقدس، خيانة لجدران البيت التي احتضنت علاقة الزواج، حتى وإن كان زواجًا باهتًا تقليديًّا لا طعم له ولا رائحة، وفي نظر المجتمع فهو سعي واضح وراء الشهوة الجنسية والمتع والملذات، ومن جهة أخرى فهو أيضًا ظلم وقهر وتشريد للأبناء.

ولذلك فأنا لست من هؤلاء الذين يتمتعون بلذة الحب ونشوته، لست من المسموح لهم بالسهر في ليالي الحب الدافئة التي يتجلى فيها القمر بأجمل صورة مع صوت الحبيبة وابتسامتها وصورتها وخيالات المحب التي لا تنقطع، وتلك الأفكار المجنونة التي تسبح به في عالم وردي عندما ينظر إلى صورة حبيبته، فينقطع عنه صوت الواقع ويصبح أسيرًا لصوتها وينعزل عمن حوله وتعمى عيونه إلا عن صورتها فينسى أو يتناسى الزمان والمكان والحدود ويتذكر فقط مكانها ويسعد ولا يتحرج أبدًا إن ضمت حدودها حدوده ودار في مدارها.. فليتني كنت من هؤلاء! ولكن قدري

أن أكون من التعساء الذين بحثوا عن الحب بعد فوات الأوان، فسعوا خلف أوهام قد تصل بهم إلى الهلاك.

أنظر إلى صفحة النيل الصافية وتخرج من بين ضلوعي تنهيدة عميقة تشعرني أن ما بداخلي بركان قد انفجر بعد أن ظل كامنًا مكتومًا لآلاف السنين، وأن أنفاسي ما هي إلا حمم تقذف لهبًا يكاد يحرق كل من حولي، ثم تظهر صورتها أمامي على صفحة النيل الصافية فأحدثها متحسرًا:

«آه يا نهلة! لو كنت عرفتك قبل زواجي وفي زمن غير هذا الزمن وعمر غير هذا لما دخلت في هذه الدوامة التي تكاد تقتلني، لو عرفتك قبل ذلك لأعلنت حبك وجعلته تاجًا على رأسي أمام الجميع، ولوضعت صورتك على كل جدار من جدران بيتي، ولكنه القدر الذي جعلني أكتم حبك بين طيات نفسي، وكأنه سر خطير، وكأن البوح به من المحرمات، هو ذلك القدر الذي حكم عليَّ أن أعشقك وأخوض مغامرة محفوفة بالمخاطر كمن يقامر بعمره، فقد يفوز ويربح ما يضمن له السعادة الأبدية وقد يخسر، وما أبشع خسارته في تلك الظروف! لأنها قد تعصف بحياته كلها فيكون قد حكم على نفسه بالهلاك في مغامرة غير مضمونة على الإطلاق، تمامًا مثل مغامرتي التي قد تنجح، ووقتها سأفوز بنهلة والسعادة التي طالما حلمت بها، سأثبت للجميع أن حبي لم يكن مجرد نزوة، ولكنه كان حلمًا وهدفًا سعيت خلفه وتحديت الجميع حتى حققته، وقد تفشل مغامرتي وأنهي حياتي بيدي وأقضي بنفسي على كيان عظيم صنعته بعرقي ومجهودي، سأموت قهرًا وسيموت معي للأبد اسم الدكتور أمير الباهي الطبيب الذي لمع وذاعت شهرته في مصر والوطن العربي»..

لم أفق من أفكاري وشرودي إلا على صوت الفتى العامل بالمقهى، ومن الواضح أنه كرر سؤاله أكثر من مرة، بينما كنت تائهًا في عالم نهلة، ولكن انتبهت لسؤاله أخيرًا وهو يقول:

- «تشرب حاجة يا فندم»؟

فطلبت منه طلبًا تعجب منه ووقف يفكر قليلًا وذلك عندما قلت له:

- «طبعًا هشرب، بس الأول هطلب منك طلب وحاول تحققه، تاخد موبايلي ده وتشغل الأغنية اللي هشاور لك عليها في السماعات دي اللي عمالة تخبط وتصرخ ومش فاهم منها حاجة».

فابتسم الفتى بعد أن فكّر قليلا ووافق على فكرتي، فحددت له أنشودة من أناشيد الشيخ محمود التهامي لأسمع ويسمع كل الموجودين في المكان صوته الرائع وهو ينشد:

يا رفــاقَ الصبـرِ فــي حكـمِ القـدرْ
هل لنــا مــن منصـفٍ يجلــو الخبـرْ
أيـن كـان الـحـبُّ أو كـيـف ظـهـرْ
!سحـرُ لحـظٍ أم عـن الغيـبِ صـدر
قيـلَ كان الحـبُّ مــن قبــلِ البشــرْ
حـيــثُ لا شـغلٌ ولا قـيــدُ صـورْ
هـامــتِ الأرواحُ مــن غــيرِ حـذرْ
فــي جـمــالٍ لاحَ يــومًا واسـتَـتَـرْ

نحــن فـي الأشبـاحِ نقتــصُّ الأثـرْ
مـــا بـــدا في هـيــكلٍ إلا قـهــرْ
ضـلــتِ الألــبابُ بل زاغَ الـبـصـرْ
عيــنُ ســرٍّ مـــسَّ قلــبًا فاستـعـرْ
وانجلَــى لـي فـي أنــا ظـلٌّ وحــرْ
فَــرطُ وجــدٍ إذ بـدا لــي بـي أضـرْ
وانجـلَى فــي أينمــا فاشهــدْ وقــرْ
ظـاهــرٌ دومًـا بـخــيرٍ أو بـشــرْ
ويـلُ نفـسي كـدتُ تُصلينـي سقــرْ
أوهمتنــي سوَّلــتْ لي لــم تــذر
أَشرقـي روحـي فإنِّــي فــي خطــرْ
أدركي ركبــي فقــد حــانَ السفـرْ
كـم أنادي من على هجــري أصــرْ!
تــاركًا قــلبي لـصبــرٍ أو أمــرْ
يصطــلي مــرَّ احـتجــابٍ لا يــذرْ
طينــتي كــوني كــماءٍ لا حـجــرْ

أيُّ قلــبٍ مــلَّ صبــرًا وازْدَجَــر
بعـدمــا أضنـاهُ وجــدٌ فانكـسـرْ
أدمــنَ الشــوقَ وبالســلوى كـفـرْ
مـا سـبيلي؟ حـيرةٌ.. مـا مـن مفـرْ
لا تلومـونــي فكــم للحــبِّ خـرْ
!جـاثــيًا سـيدُ بــدوٍ أو حـضــرْ
بعـتُ عمري كي أرى بعد الضجــرْ
بعـدمــا ذقــتُ ارتطاماتِ الفـكــرْ
أَن ركــضي خــلفَ زعــمٍ منتـظـرْ
لـيــس إلا بــعض أوهــام البـشـر
والــدوا شـاهـدتــه رأي الـنـظــر
عنــدما أُدخــلتُ مــن بـابٍ أغــرْ
بــابُ آلِ المصطفـى خــيرُ الــدررْ
والتــزمتُ الشــكرَ إذ زال الـكــدرْ
واعتزمــتُ الســيرَ في هـديِ القمـرْ
سـيرةُ الهـادي وذي أزكَـى السيَـرْ

٢٥

في نفس توقيت الأسبوع الماضي، وبعد أذان الفجر في صباح الخميس المتفق عليه توجهت مباشرة إلى محطة القطار؛ لأبدأ رحلة جديدة إلى الأقصر تنفيذًا لاتفاقي مع نهلة للقاء والدها، وطلب يدها وإعلان خطبتنا، ولكن رحلة اليوم اختلفت كثيرًا عن سابقتيها، فبمجرد أن جلست في مقعدي في عربة القطار انتابني شعور غريب بالقلق وعدم الراحة، وحاولت كثيرًا أن أتغلب على هذا الشعور بالتحرك في القطار أو تغيير مكاني والجلوس في المكان المخصص لعمل الأطعمة والمشروبات أو تبادل الحديث مع المحيطين ولكنني فشلت، حتى اتصالات نهلة التي لم تنقطع تطمئن تارة وتضحك وتسخر كعادتها تارة أخرى لم تغير من حالتي، فاستسلمت لهذه الحالة الصعبة وظللت في مقعدي ساهمًا تداعب أصابعي مسبحة والدي التي لا تفارق يدي، وعيوني ثابتة متجهة نحو نافذة القطار، وكأنني أراقب الأراضي الزراعية التي يمر بها القطار ومنظر النيل الرائع، ولكن الحقيقة أنني لم أكن أرى الخضرة الجميلة ولا منظر النيل الرائع، بل كنت شاردًا

في الأفكار التي تزاحمت في رأسي وموقف والد نهلة ذلك الرجل الغامض الذي لا أعرف عنه شيئًا ولم أكلمه إلا مرة واحدة وكانت لدقائق معدودة عبر الإنترنت، فهل سيتقبل هذا الرجل موقفي ويوافق على طلبي لتتم فرحتي وسعادتي، أم أنه....! لا.. لا، لن أكمل الاحتمال الثاني لأنه غير مقبول على الإطلاق، فبعدما وصلتْ إليه علاقتي مع نهلة لم يعد مقبولًا إلا احتمالًا واحدًا فقط، وهو انتهاء هذه العلاقة بالزواج السعيد، أما أي احتمال آخر فستكون عواقبه وخيمة على الجميع، ولذلك أنا لا أفكر إلا في اتجاه واحد، وهو الموافقة من ذلك الرجل ومباركة زواجنا.

وفي تلك الأثناء وبينما أنا غارق في أفكاري، إذ تنبهت لصوت هاتفي، فاعتقدت أنها نهلة تتصل لتطمئن عليَّ وبتعليقاتها الساخرة تخفف من صعوبة الرحلة، ولكنني تعجبت عندما نظرت في هاتفي واكتشفت أن المتصل هو الحاج سعيد فتلقيت اتصاله:

- «صباح الخير يا حاج، أخبارك إيه»؟
- «كويس يا أمير الحمد لله، إنت سافرت زي ما قلت»؟
- «أيوه يا حاج أنا دلوقتي في القطر».
- «طيب يا أمير، خير إن شاء الله»!

ومن خلال خبرتي الطويلة بحياة الحاج سعيد وأحواله تأكدت أنه يريد أن يقول شيئًا فبادرته بسؤالي: «ما لك يا حاج! إنت عايز تقول حاجة»؟

فقال: «كنت عايز أطمن عليك يا أمير، وكمان أقولك إن كل الأمور مقبولة ومتوقعة يا بني في الظروف اللي زي دي، والدنيا فيها كتير وإنت لسه العمر والمستقبل قدامك».

لم أفهم من كلامه شيئًا، وكأنه يحكي ألغازًا غير مفهومة، أو أنه يلمح لشيء ما فقاطعته متسائلًا:

- «في إيه يا حاج، إنت أول مرة تلف وتدور، إنت عارف حاجة ومخبيها عني، أو عايز تقول حاجة وخايف عليا»؟

فقال: «والله يا ابني لابلف ولا بدور ولا بخبي حاجة، كل اللي أعرفه في حياتي هو إنت، حتى ولادي اللي من صلبي بعرفك إنت أكتر منهم، عارف كل كبيرة وصغيرة في حياتك وأكتر حاجة أعرفها وبتخوفني عليك هو إنك حساس زيادة عن اللازم، زمان كنت بقولك إنك زي الطفل الصغير من أقل حاجة يزعل ويعيط، ولما كبرت بقيت أقول إنك زي ورقة السيجارة أي حاجة تأثر فيها وتحرقها».

فقاطعته مرة أخرى بسؤالي: «عايز تقول إيه يا حاج سعيد»؟

فقال موضحًا حديثه: «عايز أقولك يا بني إن الراجل ده ممكن يوافق على طلبك ويبقى خير وبركة، لكن في نفس الوقت نتوقع إنه ممكن يرفض ومش هتكون آخر الدنيا يا أمير، بالعكس تبقى تجربة وأكيد هتستفيد منها دروس كتير، فلازم يعني نتوقع الأمرين ونحطهم في الحسبان».

تظاهرت بتقبلي لنصائح الحاج سعيد ووعدته بتطبيقها والعمل بها وشكرته على اتصاله، وأنهيت مكالمته التي جاءت في وقت عصيب وليتها لم تأت، فقد كنت في أمسّ الحاجة لمن يهدأني ويقلل من توتري، ولكن هذه المكالمة زادت من قلقي، فمن الواضح ومن دون أدنى شك أن الحاج سعيد قد استنتج رد والد نهلة وتوصل إلى ما لم أستطع الوصول إليه بخبرته الطويلة وتجاربه في الحياة، وأن اتصاله هذا كالمخدر الذي يتناوله المريض قبل العمليات الجراحية لتحمل آلام الجراحة، فمن المؤكد أن الحاج سعيد قد توقع أن والد نهلة سيرفض طلبي، وأنه خاف عليَّ من تبعات هذه الصدمة، فاتصل وقال هذه الكلمات ليجعلني ممهدًا لاستقبال خبر الرفض ويخفف من حدة هذه الصدمة قبل وقوعها، كما أنني على يقين أن هذا الرفض الذي توقعه الحاج سعيد هو السبب الرئيس الذي جعله يرفض مرافقتي في هذه الرحلة، فهو بقيمته ومكانته العالية لا يقبل أن يُرفض له طلب، وقد اعتاد أن يتلقى الجميع مطالبه بالسمع والطاعة، ولذلك آثر السلامة ورفض مرافقتي في هذا المشوار حفاظًا على هيبته.

وبغض النظر عن الأسباب التي منعته من الحضور وبغض النظر عن احتمالاتي وتوقعاتي، فإن الأمر الأخطر من كل ذلك أن مكالمته قد زادت من حدة توتري وقلقي، حتى إن المسبحة وقعت من يدي أكثر من مرة وأخذت الرعشة تسري في أوصالي، ونظرتُ من زجاج النافذة فجأة فاكتشفت أن وجهي أصبح شاحبًا، ومال لونه للصفرة، وأصبحتُ كطالب صغير مقبل على امتحان صعب، فحاولت إخراج نفسي من هذه الحالة الصعبة فاتصلت بنهلة التي ردت على الفور قائلة:

- «أيوه يا حبيبي وصلت فين دلوقتي»؟
- «والله يا نهلة ما أعرف، بس قوليلي، بابا عارف إني جاي عندكم النهارده»؟
- «أيوه يا حبيبي ما أنا قلت له اللي اتفقنا عليه، وهو عارف إنك جاي تشوف كريم».

فصمتُ قليلًا ثم سألتها متوترًا بصوت مهزوز: «هو أبوكي ممكن يرفضني يا نهلة»؟

فابتسمتْ ابتسامتها الساحرة ثم قالت: «هو في حد في الدنيا يقدر يرفض الدكتور أمير الباهي»!

فقلت: «سيبك من المجاملات وقوليلي بجد، هو فعلًا ممكن يرفض»؟

فتنهدت نهلة تنهيدة تدل على عدم ثقتها في موافقة أبيها ثم قالت:

- «بص يا أمير، إنت هتدخل تشوف كريم وتقعد مع بابا شوية، ومتهيألي في الوقت ده إنت ممكن تحكم على شخصيته، لو حسيت إنه ارتاح لك وحبك كلمه في موضوعنا بمنتهى الصراحة، لكن يا أمير لو حسيت أي إحساس تاني فلو سمحت لازم تنفذ اللي طلبته منك قبل كده، ومتجيبش سيرة إنك متجوز خاااالص، وأوعى تقولي إنك مش هتكدب، يا سيدي أكدب كدبة بيضا بس المهم نكون مع بعض وبعد كده يحلها ربنا».

لم أقتنع بكلامها ولكنني ابتسمت نفس الابتسامة التي أنهيت بها مكالمة الحاج سعيد وقلت لها:

- «طيب يا نونا! روحي إنتي شوفي إنتي كنتي بتعملي إيه وخليها على الله، وأنا أول ما أنزل الأقصر هتصل عليكي علشان توصفيلي الطريق».
- «طيب يا قلبي خلي بالك من نفسك، وتوصل ليا بالسلامة».

٢١

انتهت الرحلة التي لم أحسب مدتها في هذه المرة، فقد كان فكري مشغولًا بما هو أهم، ولأول مرة أجدني غير سعيد بانتهاء الرحلة لأنني اليوم لن أقابل نهلة بل سأقابل والدها الذي سيحدد بكلمة منه مصيري فيما تبقى من عمري، اتصلت بنهلة بمجرد أن وضعت قدمي في محطة الأقصر وبدأتْ تصف لي الطريق إلى قريتها، فبدأتُ أتنقل من سيارة لأخرى، وهي تتابعني باتصالاتها حتى وصلتُ بعد قرابة الساعتين إلى قرية صغيرة يغلب عليها الطابع الفلاحي البسيط بكل ملامحه من المنازل الفقيرة ذات الطابق الواحد، والمبنيّة من الطوب اللبن والمواشي المقيدة أمامها، وأهلها البسطاء في ملابسهم ولهجتهم وطيبتهم والنساء الجالسات أمام بيوتهن تتعلق أنظارهن بكل غريب يدخل القرية، ولا يهدأون إلا بعد أن يعرفوا قصته ومقصده.

تأكدتُ من نهلة أن هذه القرية هي قريتها بالفعل، ثم بدأتُ أسأل عن والدها حتى دلني أحد الأشخاص على منزله، وكعادة أهل القرية الكرماء أصرّ هذا الشخص على مرافقتي ولم يتركني إلا أمام منزل نهلة الذي يشبه منازل القرية في بساطته، وإن اختلف عنها قليلًا في مساحته الواسعة، وأنه مكوّن من طابقين وأمامه أريكة كبيرة يجلس عليها رجل مُسن، يبدو أنه من أهل البيت، اقتربت منه قليلًا ثم سألته عن والد نهلة فنهض الرجل سريعًا ودخل البيت، وما هي إلا لحظات قليلة حتى عاد مرة أخرى ومعه والد نهلة، وإن كنت قد رأيته من قبل من خلال الكاميرا عندما كان يحدثني عن حالة كريم في بداية معرفتي بنهلة إلا أنه على الطبيعة قد اختلف كثيرًا، فهو رجل طويل القامة أسمر اللون ضخم الجثة ويبدو أنه من طول إقامته بالخليج قد تمسك بزيهم التقليدي، فقد كان يرتدي جلبابًا أبيض اللون وعلى رأسه عمامة بيضاء قد وضعها بنفس طريقة أهل الخليج.

رحّب بي الرجل واستقبلني بحفاوة بالغة، ثم اقتادني إلى غرفة واسعة يسمونها المضيفة، ثم تركني قليلًا، ومن الواضح أن نهلة كانت تراقب كل تحركاتي فاستغلت خروج والدها واتصلت بي فتلقيت اتصالها قلقًا متوترًا وقلت بصوت منخفض:

- «إيه يا نهلة! بتتصلي دلوقتي ليه! أنا خلاص وصلت وقاعد تحت في بيتكم».

فردت بسخريتها المعهودة: «ما أنا عارفة إنك وصلت وشيفاك وإنت داخل خايف ورجليك بتخبط في بعضها، محسسني إنك داخل بيت الرعب».

فسألتها: «المهم، عايزة إيه دلوقتي»؟

- «يا عم مش عايزة حاجة، أنا بس بطمن عليك وكنت عايزة أعرف رأيك في بيتنا».

فقلت متعجبًا من سؤالها في هذا التوقيت العصيب:

- «ده على أساس إنه بيت الأمة! يلا أقفلي أنا خايف أبوكي يدخل وأنا بكلمك، وابقي ادعيلي ربنا يوفقني معاه».
- «بدعيلك يا حبيب قلبي، بس زي ما قلتلك قبل كده، لو حد من أهلي دخل وإنت معاه أووعى تفاتحه في موضوعنا قدامه».
- «حاضر يا رغاااية، يلا اقفلي بقى مش عايز مشاكل من أولها».
- «ماشي يا أمير! هتتحاسب على الغلط ده بعدين».

عاد الرجل مرة أخرى وجلس بجواري يكرر ترحابه وشكره على زيارتي، فطلبت منه أن يقودني إلى غرفة كريم لأراه عن قرب وأحدد حالته، إلا أنه رفض رفضًا قاطعًا وأقسم بأغلظ الأيمان أن أتناول معه طعام الغذاء قبل أي شيء، وعندما رفضت ذلك متعللًا بانشغالي ووقتي الذي لا يسمح وموعد القطار، فاجأني الرجل بيمين أغلظ أنني لن أرحل في هذا اليوم، ولن يتركني إلا في الغد على أن يقوم هو بنفسه بتوصيلي إلى

محطة القطار، تعجّبت من إصراره وأيمانه الكثيرة، ولكنني لم أجد مفرًا أمام هذا الإصرار، فتناولت معه الطعام ثم دخل في وصلة طويلة من الحديث عن رحلة حياته وأسفاره المتعددة في دول الخليج ومعاناته في تربية أبنائه بعد أن توفيت زوجته، وتركتْ له حملًا ثقيلًا من الأعباء والمسؤوليات، ولكنه استطاع بوفائه وإخلاصه أن يكمل المسيرة بمفرده، وأن يصل بابنته إلى أعلى درجات التعليم، وأن يوفر لها ولأخيها كل شيء.

تحدث الرجل كثيرًا وعلى الرغم من تظاهري بالإصغاء لحديثه إلا أنني لم أكن منتبهًا لحديثه في كثير من الأوقات، فقد كنت مشغولًا بما يدور في رأسي من تساؤلات وأفكار واحتمالات مختلفة لما ستأول إليه هذه المقابلة، ولكنه ظل يتحدث حتى فاجأته بطلبي استكمال حديثنا في غرفة كريم حتى أتمكن من رؤية انفعالاته وردود أفعاله عن قرب فأستطيع تحديد حالته، وأخيرًا استجاب الرجل لطلبي وقادني إلى غرفة الطفل المريض، وبالفعل رأيته وجلست بجانبه وفحصته بعناية، واستطعت تشخيص حالته ثم تحدثت مع والده عن الطريقة الصحيحة لعلاجه، وطمأنته على حالته وأن الموضوع يحتاج فقط إلى الصبر وعدم التعجل، ففرح الرجل وعاد إليه الأمل في علاج ابنه وعاد مرة أخرى يلقي عليَّ عبارات الشكر والثناء والإعجاب بمهارتي وقدرتي، وبعد أن انتهيت من فحص الطفل شعرت أن الوقت قد أصبح مناسبًا تمامًا للحديث عن هدفي الأساسي من الزيارة، خاصة في ظل هذه الحفاوة التي ألقاها والتفاهم الذي بات متبادلًا بيني وبين الرجل، فطلبت منه أن نعود مرة أخرى إلى مكاننا فوافق على الفور.

وبعد أن عدنا إلى الغرفة الواسعة، استجمعت ما تبقي لدي من شجاعة وبدأ الحوار بيننا عن نهلة، فبدأتُ حديثي بمقدمة عنها وعن أدبها وحسن تربيتها والرقي الذي تتمتع به قائلًا:

- «بصراحة يا حاج أنا شفت الآنسة نهلة عن طريق الكاميرا هنا لما كانت معاك وأنا بشوف كريم، والكلام ده كان من سنة تقريبًا وكمان شفتها أكتر من مرة في الجامعة لما كان عندي مؤتمر هنا في الأقصر، وبصراحة يعني ما شاء الله عليك عرفت تربي وتعلم، نعم الأدب والأخلاق يا حاج»!

فابتسم الرجل ابتسامة فخر ثم قال:

- «أيوه فعلًا هيا قالتلي إن حضرتك كان عندك مؤتمر في الأقصر، وإنها قابلتك هناك وكلمتك عن كريم وحضرتك وعدتها بزيارتنا».

فعدتُ مرة أخرى أستجمع شجاعتي وألملم كلماتي بعد أن بدأ التوتر يسيطر على ملامحي، وبدأتْ الرعشة تسري في جسدي، ولكنني تغلبت على كل ذلك وفي لحظة من لحظات الشجاعة قلت له:

- «بصراحة يا حاج أنا طمعان في كرمك وبطلب منك إيد الآنسة نهلة».

كنت أتوقع بعد طلبي هذا أن يتفاجأ الرجل ويندهش ويطلب مهلة للتفكير، ولكن على عكس توقعي وجدته يبتسم واحمرّ وجهه من السعادة ثم قال والفرحة تغمره:

- «يا سلام! ده إحنا نتشرف بيك يا دكتور أمير، ده يوم السعد والهنا لما أناسب الدكتور أمير الباهي، لكن إنت عارف إن نهلة فاهمة ومتعلمة ولازم طبعًا أخد رأيها، هيا صاحبة القرار، ولو إنت من هنا من الأقصر كنت قلتلك سيبني أسبوع أفكر، لكن إنت مشوارك بعيد يا بني ومش عايز أتعبك أكتر من كده فأنا هاخد رأي نهلة حالًا وأرد عليك».

خرج الرجل وتركني مع فرحتي التي لا توصف، فلم أكن أتوقع أن تمر الأمور بهذه السهولة ولم أتخيل أن يوافق الرجل بهذه السرعة، أحسست في هذه اللحظات أن الدنيا تفتح لي ذراعيها وأن السعادة التي اشتقت إليها تناديني بأعلى صوت لأنضم لقائمة السعداء الذين كان الحب سببًا في فرحتهم مدى الحياة...

وما هي إلى دقائق قليلة وعاد الرجل والابتسامة تملأ وجهه وجلس بجواري ثم قال والابتسامة تملأ وجهه:

- «سألت البنت يا سيدي، وزي كل البنات ضحكت وقالتلي اللي تشوفه يا بابا».

وبينما نحن نتحدث، إذ انتبهت لرسالة وصلت إلى هاتفي، فأخرجته لأقرأ الرسالة فكانت نهلة كعادتها وبخفة ظلها تداعبني برسالة تقول فيها «على فكرة أنا لسه موافقتش، أنا محتاجة وقت أفكر وكمان أسأل عن أخلاقك».

فابتسمتُ وأنا أعيد هاتفي لمكانه فسألني الرجل: «في حاجة يا دكتور»؟

فاضطررت للكذب وأجبته مبتسمًا:

ـ «لالا، ده واحد صاحبي كان بيطمن عليا».

فسألني الرجل باهتمام:

ـ «هو إنت عندك كام سنة يا دكتور أمير»؟

فأجبته: «أنا ٣٤ سنة يا حاج».

فاندهش الرجل ثم فاجأني بالسؤال الذي كنت أخشاه:

ـ «يااااه، وإنت إزاي متجوزتش لحد دلوقتي؟ ده إنت أي بيت في مصر يتمناك».

وقع السؤال على مسامعي كالصدمة التي هزت كل أركاني، وعاد التوتر إلى ملامحي مرة أخرى وشعرت ببرودة غريبة تسري في جسدي واختفت الابتسامة من وجهي وعجز لساني عن الرد، وبدأتُ أبحث عن إجابة مقنعه لسؤاله حتى وجدتُ الرجل يكرر سؤاله مرة أخرى فلم أستطع التهرب من سؤاله فأجبته بصوت متهدج:

ـ «أنا فعلًا اتجوزت يا حاج».

اندهش الرجل لهذه الإجابة، ثم صمت قليلًا وكأنه كان يحاول استيعاب كلماتي ثم عادت إليه الابتسامة مرة أخرى وقال وهو يبتسم:

ـ «آآآه! تقصد اتجوزت قبل كده وانفصلت يعني»؟

فتأكدت وقتها أنه لا مفر من الاعتراف الصعب الذي أخشى عواقبه فقلت بصوت مرتعش:

- «لا يا حاج، أنا متجوز ولسه مراتي موجودة معايا».

وهنا انتفض الرجل من مكانه كمن لدغه عقرب واسودَّ وجهه واختفت الابتسامة منه، وجحظت عيناه وتغيرت لهجته وقال بصوت عالٍ:

- «نعم! حضرتك متجوز في القاهرة وجاي تتجوز بنتي، الدكتورة نهلة اللي علمتها أحسن تعليم وربيتها أحسن تربية على آخر الزمن تكون زوجة تانية! نهلة بنتي يكون ليها ضُرة»!

فقاطعته محاولًا تهدئته وإعادة الأمور إلى نصابها مرة أخرى قائلًا:

- «يا حاج ده شرع ربنا، وبنتك هيكون ليها كل الحقوق وكل طلباتك وطلبات بنتك على راسي، أنا مستعد والله حتى لو نهلة تطلب نجمة من السما «.

ولكنه لم يترك لي الفرصة للحديث والإقناع واستمر في عصبيته التي أظهرت وجهه الآخر وزادت حدة صوته وقال بغضب:

- «آه طبعًا شرع ربنا! ونعم بالله يا سيدي، لكن بنتي مش هتتجوز واحد متجوز حتى لو كان الواحد ده هو أمير الباهي أشهر دكتور في مصر كلها».

فحاولتُ مرة أخرى أن أشرح ظروفي وأقنعه بكلامي ووجهة نظري، ولكنه قاطعني قائلًا بنبرة لا تحمل إلا معنى واحدًا وهو الطرد:

- «آنست وشرفت يا دكتور، أنا معنديش بنات للجواز».

ثم همَّ بالخروج من الغرفة وقال وهو يخرج:

- «اشرب الشاي بتاعك يا دكتور، ومعلش اعذرني علشان عندي ميعاد مهم».

خرج الرجل وتركني وحيدًا بعد أن طردني من بيته بطريقة مهذّبة، فجلست قليلًا مصدومًا منكس الرأس أفكر فيما حدث، وفي النهاية قررت الرحيل وبمجرد أن وقفت وجدت الدنيا قد اسودت أمام عينيّ وقدماي غير قادرتين على الحركة وكأن الصدمة قد شلت حركتي كما شلت تفكيري.

خرجت من منزل نهلة وأنا في حالة غريبة لم تمر بي من قبل، فقد حزنت كثيرًا وتألمت كثيرًا وعشت أوقاتًا صعبة، ولكن ما أشعر بي الآن هو شعور غريب وحالة لم أعهدها من قبل، فالأمر ليس مجرد تعب نفسي أو ضيق ولكنني بالفعل غير قادر على الحركة.

خرجت من بيتها بصعوبة وبدأت أتحرك كالمجنون، أمشي قليلًا ثم أتوقف وألقي نظرة أخرى باكية على البيت الذي يضم بين جنباته حلمي وأملي وسعادتي التي طالما حلمت بها، البيت الذي دخلته منذ قليل يحدوني الأمل وتدفعني النشوة للقبض بيدي على سعادتي التي حُرمت منها طوال حياتي ولكن للأسف خرجت منه الآن وأنا غير مصدق لما حدث، أعاود المشي ثم أقف قليلا وأتلفت حولي لأتبين الطريق الذي جئت منه، حتى

شعرت أنني غير قادر تحريك قدمي فجلست على جانب الطريق ألتقط أنفاسي، ثم عادت الأفكار مرة أخرى تتصارع في رأسي والأسئلة تطاردني:

ماذا حدث! هل أعطتني الدنيا شعاعًا من الأمل والفرحة ثم سحبته مرة أخرى!

هل ما أراه الآن حقيقة، أم أنني في كابوس مخيف وسأفيق منه لأجد الأمور تسير كما تمنيت!

هل ضاعت نهلة من يدي!

أين السعادة.. الفرحة.. الأمل.. المستقبل الجميل الذي حلمنا به! هل تبددت كل الأحلام وأصحبتُ كمن تعب وشقي وباع كل شيء للحصول على حلم جميل، وعندما ابتسمت له الدنيا ووصل إلى حلمه ولمسه بكفه اكتشف أنه كان يسعى خلف سراب!

لماذا تفعل بي الدنيا كل هذا!

إذا كانت نهلة ليست من نصيبي، ولن تكتب لي السعادة معها، فلماذا حكم عليَّ القدر بحبها! لماذا وضعها القدر في طريقي لتصبح أملي الوحيد وفرحتي التي أتمناها من الله! لماذا ابتسمت الدنيا حتى جعلتني ألامس السماء بيدي ثم عادت من جديد لتريني وجهها القبيح!

قبل أن أعرفها وأعشقها كنت أعيش حياة روتينية مملة، ولكنني وعلى الأقل كنت محتفظًا بشخصيتي وهويتي وكياني، كنت مفتخرًا بشخص الدكتور أمير الباهي ذلك الرجل الذي استطاع بنجاحه ومهارته في مجال الطب أن يصل إلى أعلى المناصب، حتى وإن لم يكن سعيدًا في بيته

وزواجه فهو سعيد بما وصل إليه من نجاح وتفوق، أما الآن وبعد هذه الضربة القاضية التي تلقيتها من والدها فقد خسرتُ كل شيء: خسرت نهلة، خسرت حبي والحلم الذي حلمت به وبعتُ كل شيء للحصول عليه، خسرت بيتي وأبنائي، خسرت مكانتي وعملي ونجاحي بعد هذه الحالة التي وصلت إليها.

مرت ساعة كاملة وأنا جالس في مكاني على حافة الطريق، تائه بين أفكاري ودموعي حتى لمحت سيارة قادمة من بعيد، فأشرت إليها فتوقفت بجانبي واستجمعت ما تبقي لدي من قوة ووقفت لأرد على قائدها الذي سألني:

- «رايح فين يا بيه»؟

فأجبته وأنا مستند إلى مقدمة السيارة من شدة التعب:

- «عايز أروح الأقصر لو سمحت».

فتعجب الرجل من طلبي قائلًا:

- «يااااه، ده مشوار بعيد أوي يا بيه».

فاقتربت منه وأخرجت حافظة نقودي ورجوته قائلا:

- «أرجوك، أنا مستعد أدفع لك المبلغ اللي تطلبه وزيادة بس وديني الأقصر».

فوافق الرجل بعد أن رأى المال وقال بلطف:

- «طيب اركب يا بيه، مع إنه مشوار طويل بس أن هوصلك لأن شكلك تعبان أوي».

ركبت السيارة وأسندت رأسي إلى المقعد الذي كنت أجلس عليه واضعًا يدي على وجهي لأخفي دموعي التي انهمرت كالسيل، وأنا أغادر قرية نهلة خائب الأمل، ومن الواضح أن السائق قد لاحظ حالتي الغريبة وأحب أن يدخل معي في حوار يسليه في هذه الرحلة الطويلة فسألني:

- «ما لك يا بيه؟ في حاجة»؟

فأجبته بضيق شديد: «لو سمحت، خليك في طريقك وبس ومتسألنيش تاني».

تعجّب السائق من طريقتي في الكلام، ولكنه استجاب لطلبي حفاظًا على المبلغ الكبير الذي وعدته به، ولكنه أخذ يتمتم بجمل وكلمات لم أتبين منها إلا جملة.

- «إنت حر، أنا غلطان إني سألتك أصلًا».

وصلت أخيرًا إلى محطة قطار الأقصر بعد رحلة صعبة ومملة وسائق متطفّل، وبعد أن نزلت من السيارة اكتشفت أن حالتي تزداد سوءًا، فما زالت الرعشة تسري في جسدي ورؤيتي للأشياء تكاد تكون معدومة وأنفاسي تتلاحق بشكل مخيف، كما أن هناك ألمًا فظيعًا في رأسي لا أستطيع تحمّله، لكنني تحاملت على نفسي حتى وصلت إلى رصيف القطار، وكل ما أتمناه في هذا الوقت العصيب أن يمكنني الله عز وجل من الوصول إلى القاهرة على خير، وأن تنتهي هذه الرحلة من دون كوارث أخرى، فحسبي ما خسرته، وكل ما أخشاه أن تنتصر عليَّ آلامي وأموت غريبًا في هذه البلاد التي لا يعرفني فيها أحد.

وصل القطار أخيرًا بصافرته المزعجة، وكعادتي أبيتُ أن أغادر المكان قبل أن أودع لافتة فندق «الوفا» موطن الذكريات والأوقات السعيدة، فالتفتُ خلفي لألقي نظرة أخيرة عليها، ولكن للأسف بمجرد أن رفعت رأسي شعرت بأن المكان كله يدور من حولي، وأحسست بأنني سأسقط على الأرض من شدة التعب، فأمسكت بسلم عربة القطار وركبت مسرعًا قبل أن يُغشى عليَّ ووصلت إلى مقعدي بصعوبة، فجلستُ وأغمضت عيني وأسندت رأسي إلى مقعدي وتحرك القطار وأنا في حالة خطيرة.

أغفو قليلًا فتمر أمام عيني ذكريات ومواقف كثيرة ثم أفيق فجأة على أصوات الضجيج والزحام من حولي، أصوات عالية وزحام رهيب في القطار ولكنني لا أرى شيئًا، فبمجرد أن أفتح عيني يصيبني الدوار ويزداد الألم في رأسي، ثم انتبهت فجأة وفي لحظة هدأ فيها الضجيج من حولي إلى صوت هاتفي، فأخرجته لأكتشف أن نهلة قد اتصلت أكثر من عشرين مرة فتلقيت اتصالها وبصعوبة وضعت الهاتف على أذني لأجدها منهارة تبكي وتصرخ وتعاتبني بصوت غاضب قائلة:

- «ليه يا أمير؟ ليه مسمعتش كلامي؟ قلتلك ألف مرة بلاش تقول إنك متجوز.. قلتلك اكدب مرة واحدة يا أخي عشان تريحني وتريح نفسك.. كسبت إيه دلوقتي من المبادئ والأصول اللي وجعت دماغي بيها!

قلتلك اكدب مرة واحدة وبعد ما نتجوز كل حاجة هتتصلح.. رد عليا يا أمير..

قولي كسبت إيه دلوقتي! طيب قولي أنا كسبت إيه!

بابا دخل عليا من شوية واتهمني إني كنت بكلمك وبقابلك من وراه، ولما عليت صوتي وقلتله أيوه بحبه وعايزه أتجوزه ضربني لأول مرة في حياته، وكمان كسّر اللاب توب بتاعي، وحلف أني ما هخرج من البيت تاني.. وإنه هيجوزني لأول واحد يتقدّم لي..

بابا بيقولي أني جبتله العار يا أمير

رد عليا، أنا صوتي راح من كتر العياط.. وقلبي اتكسر يا أمير وحياتي كلها اتدمرت!

رد عليا وقولي، كان هيحصل إيه لو كنت كدبت عليه! كان زماننا دلوقتي مع بعض وبنرتب لجوازنا، كنا هنسيب الدنيا كلها يا أمير ونعيش مع بعض، كنت هرتاح من الهم اللي أنا فيه، وإنت كنت هترتاح من عيشتك الزفت اللي إنت عايشها مع واحدة لا طايقها ولا عايزها!

حرام عليك يا أمير! والله حرام عليك.. لو كنت تعرف أنا حبيتك أد إيه مكنتش عملت كده، لو كنت تعرف إن حياتي كلها هتضيع من غيرك كنت سمعت كلامي! لو كنت عرفت إنك فرحتي الوحيدة في الدنيا دي مكنتش عملت كده.

كان لازم تسمع كلامي وتكدب.. تكدب.. تكدب.. أيووه يا أمير تكدب! لأن في زماننا ده الكدب والنفاق هما اللي بيكسبوا، أما الصدق والأصول والمبادئ بتوعك مبقاش ليهم مكان في دنيتنا.

لو كنت كدبت، بابا كان هيزعل شوية ومع الوقت كان هينسى ويسامحنا، حتى لو مش هيسامحنا.. ياااا أخي والله ما كانت هتفرق، لأني مش عايزة إلا إنت وبس! إنت حبيبي وجوزي وأبويا وأخويا وكل حاجة في دنيتي!

رد عليا، متسبنيش كده! أنا هموت يا أمير، رد عليا»!

تحدثت نهلة كثيرًا وبكت وصرخت وعاتبت وانهارت وحاولتُ كثيرًا أن أرد عليها لأهدئ من ثورتها وأعدها بأنني لن أتخلى عنها، وسأبقى معها حتى آخر يوم في حياتي ولكنني فشلت.

نعم فشلت في الرد عليها بعد أن شعرتُ بدوار رهيب فأسندت رأسي إلى مقعدي وأغمضت عيني وبدأتْ دموعي تنهمر وكأنها سيول لا تتوقف وتلاحقت أنفاسي بسرعة مخيفة وكأنني أحتضر، ثم فتحت عيني فجأة لأجد كل شيء حولي ينقلب رأسًا على عقب، فسقف القطار أصبح تحت قدمي والمقاعد كأنها معلقة في الهواء وازداد الألم في رأسي ووجدتُ قلبي يدق بسرعة غريبة وجسمي كله يهتز بعنف فسقط الهاتف من بين يدي وغبت عن الوعي تمامًا.

٢٢

فتحت عيني فجأة لأجدني ملقى على سرير في غرفة مليئة بالأجهزة الطبية وعلى فمي جهاز للتنفس، وفي بداية الأمر توقعت أنني أحلم فبدأت أتلفت حولي وأتلمس هذا السرير والجهاز الموضوع على فمي ومع مرور الوقت تأكدت أنه ليس حلمًا بل حقيقة، ولكن كيف أتيت إلى هذا المكان! فأخذت بصعوبة أسترجع ما حدث فتذكرت صوت نهلة وهي تبكي وتصرخ، بالفعل آخر ما حدث معي كان مكالمة نهلة.. فحاولت النهوض من فراشي لأبحث عن هاتفي، ولكن للأسف فشلت، فبمجرد أن رفعت رأسي عن وسادتي وجدت الغرفة كلها تدور بي واسودت الدنيا في عيني مرة وأخرى وبمجرد أن تحركت في فراشي انطلقت صافرة إنذار عالية، وما هي إلا لحظات معدودة حتى وجدت ممرضة تقف بجوار فراشي تقول بابتسامة:

ـ «حمد لله على سلامتك يا دكتور أمير»!

لم أهتم بكلامها وابتسامتها وسألتها مندهشًا:

- «أنا فين؟ وإيه اللي جابني هنا»؟

فأجابتني الفتاة وهي محافظة على ابتسامتها:

- «متقلقش يا دكتور! إنت هنا في مستشفى المنيا، في قسم العناية المركزة».

- «العناية المركزة؟ ليه؟ هيا حالتي صعبة أوي كده»؟

فأجابت الممرضة بهدوء:

- «أيوه حضرتك إنت هنا في العناية المركزة، أما بالنسبة لحالتك فأنا حالًا هنادي للدكتور المختص وهو هيشرح لحضرتك كل حاجة».

وبالفعل انصرفت الممرضة وبعد دقائق عادت مرة أخرى ومعها الطبيب الذي وقف بجواري، وقال وهو يضع يده على كتفي مبتسمًا:

- «حمد لله على السلامة يا دكتور»؟

فسألته باهتمام:

- «في إيه يا دكتور»؟

فجلس بجواري وبدأ يتحدث برفق قائلًا:

- «أولًا: أرجو إن حضرتك تسامحنا لأننا فتحنا محفظتك، وكان لازم نعمل كده علشان ناخد بياناتك، ده إجراء قانوني وحضرتك أستاذنا كلنا وأكيد عارف الكلام ده.

ثانيًا: وده الأهم، يا ريت حضرتك بلاش تتكلم كتير، وحتى لو اتكلمت بلاش تفتح عينيك علشان متحسش بدوخة».

فقاطعته وأنا مندهش من كلامه:

- «ليه ده كله! أنا عندي إيه؟ وإزاي جيت هنا أصلًا»؟

فأجابني الطبيب برفق:

- «يا ريت حضرتك تهدا، أنا مش عايز أي انفعال أو عصبية، وبالنسبة لموضوع وجودك هنا فحضرتك اتنقلت هنا بعربية إسعاف يوم الجمعة الساعة اتنين ونص صباحًا، أما عن حالتك فبصراحة حضرتك كنت جاي في حالة صعبة جدًّا، فمن الواضح إنك اتعرضت لمشكلة صعبة وأرهقت نفسك في التفكير، فحصلت صدمة عصبية حادة بالإضافة إلى هبوط حاد في الدورة الدموية، فدخلت في غيبوبة تامة والحمد لله إن حضرتك اتنقلت في الوقت المناسب؛ لأن لو كان حصل تأخير كان وضعك هيبقى صعب جدًّا».

استمعت إلى كلام الطبيب وأنا غير مصدق لما حدث، ولكن أكثر ما لفت انتباهي في كلامه أنني انتقلت إلى المستشفى يوم الجمعة فقاطعته متسائلًا:

«إنت بتقول إني اتنقلت هنا يوم الخميس بالليل اللي هو تقريبا فجر الجمعة؟ ليه حضرتك! أومال هو النهارده إيه»!

فأجابني الطبيب مبتسمًا:

- «النهارده الأربع يا دكتور أمير».

صُدمت من كلامه، فرفعت رأسي محاولًا الجلوس لأبحث عن هاتفي فوضع يده على صدري وأعادني مرة أخرى إلى وسادتي منفعلًا:

- «لو سمحت، أنا قلت لك بلاش أي حركة أو انفعال، لو سمحت لازم تسمع الكلام، إنت دكتور وعارف كويس خطورة حالتك».

فقاطعته غاضبًا والكلمات تخرج مني بصعوبة:

- «النهارده الأربع إزاي؟ إزاي فات أسبوع وأنا هنا؟ أنا عايز تليفوني حالًا»، أنا لازم أكلم نهلة واطمن عليها، أنا سامعها بتبكي وتصرخ، لازم اطمن عليها

فقال وهو يحضّر حقنة كانت في يده وكأنه لم يهتم بكلامي:

- «التليفون موجود يا دكتور، لكن للأسف، مش هينفع تتكلم في التليفون لأنك ممنوع من الكلام والانفعال».

فقلت وهو يضع الحقنة في يدي: «أنا لازم أمشي من هنا حالًا».

وظللت أكرر هذه الجملة حتى غبت عن الوعي مرة أخرى، فمن الواضح أن الحقنة التي كان يحضرها الطبيب كانت عبارة عن مهدئ ومنوّم حتى يمنعني من الحديث نهائيًّا.

أفقت مرة أخرى من غيبوبتي لأجد الطبيب يجلس بجواري وقبل أن أتحدث وضع يده على فمي قائلًا بنبرة الرجاء والتوسل:

- «دكتور أمير، أرجوك افهمني علشان مصلحتك! الصدمة اللي حصلت لحضرتك أثرت على كل أجهزة جسمك، وعلشان ترجع لحالتك الطبيعية محتاج وقت، أي حركة أو انفعال أو توتر وإنت في حالتك دي هتوصلنا لنتيجة كارثية».

حاولت أن أبادله الحديث فمنعني وأكمل كلامه قائلًا:

- «والله أنا عارف إن حضرتك أكبر وأشهر دكتور أمراض نفسية وعصبية في مصر كلها، وأكيد عندك شغل ومواعيد وارتباطات كتير، لكن صحتك أهم من أي حاجة، وبتخصصك ده وخبرتك العريضة في الطب المفروض تساعدنا».

فكرتُ في كلامه وتركته حتى قال ما عنده ثم قلت وأنا مغمض العين:

- «أنا لازم أرجع القاهرة حالًا».

تعجب الطبيب من إصراري على الرحيل وقال بعد أن تنهّد تنهيدة طويلة وكأنه قد يئس من إقناعي:

- «واضح إنك مصمم على الرجوع للقاهرة، لكن أحب أقولك إن دي هتكون مغامرة كبيرة وكمان محتاج عربية إسعاف مجهّزة».

فوافقت على الفور قائلًا: «وأنا موافق يا دكتور».

فعقّب على موافقتي بنبرة تحمل كل معاني الخجل قائلًا:

- «أنا آسف يا دكتور! إنت في حالتك دي متقدرش تاخد قرار خطير زي ده، حتى ولو أخدت قرار بالموافقة أو الرفض فقرارك لا يُعتد به».

ففتحت عيني بصعوبة ونظرت إليه مندهشًا من كلامه ثم سألته:

- «حضرتك تقصد إيه»؟

فأجابني وهو ما زال ينظر إلى الأرض خجلًا:

- «اعذرني يا دكتور، لكن لازم حد من أهلك هو اللي يوافق، وكمان ينقلك من هنا على مسؤوليته الخاصة».

وعلى الرغم من عدم قدرتي على تحريك أي عضو من أعضائي وعلى الرغم من حزني الذي لا يُوصف، ابتسمت ابتسامة تخفي خلفها أمواجًا من الحزن والأسى، ثم قلت والدموع تملأ عيني: «لو سمحت، كمل جميلك وافتح موبايلي، هتلاقي رقم باسم الحاج سعيد، كلمه وهو هييجي على طول».

فرد الطبيب وهو يستعد للخروج: «حاضر يا دكتور، اللي تشوفه».

٢٣

استيقظت من نومي بعد ساعات على صوت شخص يبكي بجواري، ومن دون تفكير عرفت أنه الحاج سعيد، فبمجرد أن وصله اتصال الطبيب حضر على الفور، وفي وقت قليل تم ترتيب نقلي لإحدى مستشفيات القاهرة والتي اخترتها برغبتي لوجود الكثير من زملائي الأطباء هناك، وبعد فحص شامل ودقيق في المستشفى الجديد لم يختلف تقرير الأطباء كثيرًا عن تشخيص مستشفى المنيا، فقد أكد الأطباء هنا أيضًا على حدوث صدمة عصبية حادة أثرت على كل أجهزة الجسم، وأن العلاج والعودة إلى الحالة الطبيعية ستحتاج وقتًا ليس بالقليل، كنت أستمع إلى حوارات الأطباء بجواري وأنا ساهم غير قادر على الحركة أو حتى النطق بكلمة واحدة، أفتح عيني لأرى نظرات الحزن والإشفاق من المحيطين بي، ثم أغفو وأغيب عن الوعي تمامًا، لأرى خيالات كثيرة تمر أمام عيني ومواقف تُعاد كما هي وكأنها تحدث الآن.

أرى والد نهلة وهو قمة غضبه وانفعاله، أرى نهلة وهي تمسك بنصف القلب الذي أهديته لها وتضعه على شفتيها لتقبّله والابتسامة تملأ وجهها، أرى لافتة فندق «الوفا» بأضوائها المتألقة، ثم تغيب هذه الخيالات من أمامي فأسمع ضجيج القطار وصافرته المزعجة، فكأنني جالس وسط القطار، أسمع أحاديث المحيطين بي بلهجاتهم الغريبة ومناقشاتهم الحادة والعنيفة، ثم تختفي أصوات القطار ليظهر جليًّا صوت الشيخ محمود التهامي وأناشيده الرائعة التي تأخذني إلى عالم العشق والجمال، ومن بعده صوت نهلة وهي تصرخ وتبكي بكاءً حارًّا، ثم يهزني وبقوة صوت والدها وهو يثور في وجهي بلهجته الحادة قائلًا ومكررًا: «معنديش بنات للجواز.. معنديش بنات للجواز.. معنديش بنات للجواز»!

ثم أفيق من غفوتي مرة أخرى على صوت الحاج سعيد وهو يبكي بجوار فراشي، فأفتح عيني لأرى زوجتي تجلس بجواره وتنظر نحوي بعينين تملؤهما الحيرة والدهشة، ثم تلتفت إلى الحاج سعيد وتبدأ معه حوارًا ساخنًا التقطتُ منه بعض الجمل والكلمات التي وصلت بصعوبة إلى مسامعي، فقد سألته أكثر من مرة وبنبرة حادة:

- «إزاي وصل للحالة دي؟ ده لا بينطق ولا بيتحرك».

فيرد الحاج سعيد كاذبًا محاولًا تضليلها عن الحقيقة:

- «أنا معرفش أي حاجة، غير إنه كان عنده مؤتمر في الصعيد، وهو راجع العربية اللي كان فيها عملت حادثة».

فتنظر إليه زوجتي نظرة شك ثم تسأله مرة أخرى:

- عربية ولا قطر يا حاج سعيد!، أنا مبقتش فاهمة أي حاجة،، وإزاي بتقول حادثة والدكاترة كلهم بيأكدوا إنها صدمة عصبية؟

فيجيبها ممتعضًا من موقفها:

- «حادثة أو صدمة عصبية، مش ده المهم، المهم يا بنتي إن جوزك دلوقتي في محنة، وكلنا لازم نقف جنبه، وبصراحة كده بدل ما تسأليني وتشكي في كلامي كان المفروض تسألي نفسك، هو كان فين وبيعمل إيه، إنتي مراته والمفروض تكوني أقرب الناس له وتعرفي عنه كل حاجة».

فزادت ثورتها وحدتها في النقاش قائلة:

- «مراته! ده على الورق بس يا حاج، إنما أنا ولا أعرف عنه أي حاجة، ولا بيكلمني ولا بيقعد معايا وكمان البيت مش بيدخله إلا وش الفجر».

وهنا تدخلتْ الممرضة لتنهي هذا النقاش الحاد وتطلب منهما مغادرة الغرفة فورًا؛ لأن الصوت العالي ضار بالمريض، فاستجاب الحاج سعيد لطلبها وهمّ بالخروج وطلب من زوجتي العودة إلى المنزل على أن يتصل بها وقت الحاجة، معللًا ذلك بأن وجودها ليس ضروريًّا في ظل العناية الفائقة التي ألقاها في المستشفى، وبالفعل غادرت زوجتي المكان، وبعد قليل عاد الحاج سعيد وحده وجلس بجوار فراشي ودخل في نوبة من البكاء الحار وهو يقول بصوت مكتوم:

- «سامحني يا أمير! أنا الغلطان إني اللي سيبتك لوحدك في موقف صعب زي ده، كان لازم أكون جنبك، سيبتك تروح للنار برجليك وإنت أضعف وأرق من الطفل الصغير.. خفت على نفسي من الإحراج ومخفتش عليك من كسرة قلبك، كنت دايمًا بقول إنك حساس لكن مكنتش متخيل أبدًا إحساسك وطيبة قلبك ممكن يوصّلوك للمرحلة دي».

تأثرتُ بكلمات الحاج سعيد وعتابه الشديد لنفسه، فحاولت أن أخفف عنه فأمسكت بيده فنظر إليَّ فابتسمتُ له لأطمئنه على حالتي، فانتفض من مكانه وصاح فرحًا:

- «إنت فُقت يا أمير! الحمد والشكر لك يا رب».

ثم سجد على الأرض من شدة الفرحة وقام يقبل يدي ورأسي قائلًا:

- «سامحني يا أمير، سامحني يا بني»!

فتحاملت على نفسي وتكلمت بصعوبة وقلت مبتسمًا:

- «فداك يا حاج سعيد، ولا يهمك».

فزادت فرحته عندما سمع صوتي وقال والدموع تملأ عينيه:

- «أيوه كده! حسك في الدنيا يا دكتور أمير.. يا أحسن وأكبر وأشهر دكتور في مصر، يا بني وأخويا وأبويا وصاحبي، يا رافع راسي في الدنيا كلها، قووم يا أمير نوّر بيتك وشغلك وعيادتك».

ثم وقف في منتصف الغرفة وبدأ يطلق أيمانه المغلظة قائلًا:

- «والله العظيم يا أمير ندر عليا يوم ما تقف على رجليك لأعمل ليلة لله، ياكل ويشرب فيها كل الفقرا والغلابة وتحلف بيها مصر كلها».

فابتسمت لإرضائه وقلت بصعوبة:

- «إن شاء الله يا حاج».

٢٤

بعد أكثر من ثلاثة أسابيع من المرض والآلم والغياب عن الوعي عدت إلى منزلي بمجرد أن استطعت الوقوف على قدمي، وعلى الرغم من أنها كانت عودة مشوبة بالقلق والحذر والحصار المشدد من زوجتي والحاج سعيد وتحذيرات الأطباء، إلا أنني ارتحتُ كثيرًا لهذه العودة التي أصررت عليها، معللًا ذلك بكرهي الشديد لجو المستشفيات، ولكن الحقيقة التي أخفيتها والتي جعلتني أصرّ على الخروج تكمن في الحصول على حريتي والخروج من جو المراقبة التي يفرضها عليَّ الأطباء من جانب، وزوجتي والحاج سعيد من جانب آخر، والتي وصلت إلى حرماني من هاتفي الشخصي، معللين ذلك بالخوف عليَّ من التعرض لأي ضغط عصبي أو انفعال قد يؤثر على صحتي، في الوقت الذي كنت فيه في أمس الحاجة لمراقبة هاتفي لأتواصل مع نهلة والتعرف على آخر المستجدات في موقف والدها معها.

فعلى الرغم من الحالة الصعبة التي عشتها إلا أنها لم تغب عني لحظة واحدة، حتى أوقات غيابي عن وعيي كانت أمامي بابتسامتها الساحرة وخفة ظلها، وعلى الرغم من أنني تألمت كثيرًا في مرضي إلا أن خوفي عليها في هذه الفترة كان أشد وأقسى من مرضي وآلامي، وكم كان ألمي يزداد عندما أتخيلها وهي تتصل بي لأكون بجوارها في محنتها بحبي وقلبي فلا تجدني! كنت على يقين أنها تتصل في كل ساعة، بل كل دقيقة وأن اتصالاتها ورسائلها ستزداد بسبب قلقها عليَّ، فمنذ بداية علاقتنا لم أتأخر في الرد على اتصالاتها ورسائلها، ومن المؤكد أن عدم ردي عليها في الفترة الأخيرة جعلها تتصل مئات المرات، وهذا كان السبب الأكبر الذي جعلني أصر على مغادرة المستشفى والعودة إلى منزلي.

***

عدت إلى منزلي أخيرًا، وزالت الكثير من الآلام والأوجاع بمجرد أن رأيت الحسن والحسين، فاحتضنتهما وأجلستهما بجواري ولكن كعادتها دخلت زوجتي لتقطع هذه اللحظات الرائعة، فأخذت الولدين بحجة إراحتي وإبعادي عن أي حركة وإجهاد، ولكن بعد لحظات عادت مرة أخرى لتفتح معي تحقيقًا جديدًا من تحقيقاتها، فتأكدت أنها أخذت الولدين لا لراحتي ولكن لتأخذ حريتها في الكلام والأسئلة المستفزة ولم تراعٍ حالتي ولم تهتم بألمي، وقالت وعيناها تحمل كل معاني الشك:

- «كنت فين يا أمير؟ واللي حصل لك ده سببه إيه؟ وأوعى تقول حادثة لأني مش هصدق»؟

فأجبتها وأنا مغمض العينين:

- «والتحقيق ده مش ممكن يتأجل شوية؟ إنتي شايفة إن ده وقت أسئلة وعتاب»؟

فقالت وقد أصرّت على سؤالها:

- «أنا مش هتعبك ولا هزعجك، أنا بس عايزة إجابة لسؤالي».
- «اللي حصل أنا قلته للحاج سعيد.. وهو قالك ومفيش أي داعي إنك تسألي تاني».
- «لكن أنا عايزة أسمع منك إنت».

فلم أجد مفرًّا من الكذب كالعادة وقلت:

- «اللي حصل إن كان عندي مؤتمر في الصعيد، وأنا راجع حصلت هزة غريبة في القطر، وفي حاجة وقعت على راسي وفجأة لقيتني في المستشفى، بس كده».

فقالت مستنكرة ومتعجبة:

- «حاجة وقعت على راسك تعمل صدمة عصبية يا أمير»؟

فقلت محاولًا إنهاء هذا الحديث:

- «ما إنتي عارفة إن الدكاترة دايمًا بيكبروا الأمور ويصعبوها».

فقالت وهي تغادر الغرفة:

- «ماشي يا أمير! مع إني مش مصدقة ولا كلمة من كلامك لكن هسيبك دلوقتي تنام وترتاح وبعدين هنكمل كلامنا».

خرجت زوجتي بعد فاصل من الأسئلة ونظرات الشك والتكذيب ولكنني لم أهتم بنظراتها وبما قالت، وظللت بفراشي حتى تأكدت أنها قد نامت، فبدأت أتحرك في الشقة على أطراف أصابعي أبحث عن هاتفي، وكما توقعت عثرت عليه في حقيبة يدها، فعدت به مسرعًا إلى فراشي وأطفأت أنوار الغرفة، لأقرأ رسائل نهلة وأرد على اتصالاتها من دون إزعاج، فتحت هاتفي متلهفًا، ولكنني كنت على موعد مع مفاجأة لم أتوقعها ولم تخطر ببالي.

بحثت في هاتفي كثيرًا ثم أغلقته وفتحته مرة أخرى فلربما أصابه عطل مفاجئ من قلة استخدامه في الفترة الأخيرة، ولكن خاب ظني، فالهاتف سليم وبلا أعطال، أما المفاجأة التي أصابتني بالذهول أن نهلة لم تتصل منذ آخر اتصال تم بيننا في القطار ولا مرة ولم ترسل رسالة واحدة!

تركت هاتفي ووضعت يدي على رأسي من هول هذه الصدمة التي لم أتوقعها على الإطلاق، وما زاد من قلقي والأمر الوحيد الذي فكرت فيه في هذه اللحظات أنه من المؤكد قد أصابها مكروه، فمن المستحيل أن يمر يوم واحد على نهلة دون أن تسمع صوتي، فماذا حدث!

وحتى أقضي على هذا القلق الذي أصابني قررت أن أتصل بها لأعرف منها سبب هذا الغياب الذي لم أعتده منها، وعلى الفور أمسكت بهاتفي مرة أخرى واتصلت بها لأتلقى المفاجأة الثانية وهي أن هاتفها مغلق، إذًا شكي في محله، ومن المؤكد أن هناك ضررًا قد أصابها أو أن هناك أمرًا خطيرًا قد حدث في حياتها، وهو ما منعها من الاتصال وجعلها تغلق هاتفها، ولكن وبعد مزيد من التفكير توصّلت إلى حل آخر قد

يأتي بالجديد ويقضي على شكوكي، فقمت مسرعًا إلى حاسوبي الشخصي وفتحته لأبحث عن رسالة منها في أحد مواقع التواصل التي كنا نتحدث من خلالها ولكن للأسف تلقيت الصدمة الثالثة! فكل حساباتها على مواقع التواصل مغلقة، تركت حاسوبي مثلما تركت هاتفي وشعرت بأن الرعشة عادت تسري في جسدي مرة أخرى وعادت الأوهام والشكوك والأسئلة تتزاحم في رأسي مرة أخرى:

هل حرمها ذلك الرجل القاسي من هاتفها وحاسوبها!

ولكن، حتى لو صحّ هذا الاحتمال، فكان بإمكانها أن تحدثني من خلال هاتف إحدي صديقاتها، وخاصة أن العام الدراسي قد بدأ ومن المؤكد أنها تحضر محاضراتها وتقابل صديقاتها!

هل احتد نقاشها مع أبيها بسببي وآذاها هذا الرجل!

هل من الممكن تصل درجة الغضب بهذا الأب للحد الذي يجعله يقتل ابنته!

يقتلها؟!! ولم لا؟ ألم تقل نهلة في مكالمتها الأخيرة أنه اتهمها بجلب العار له وللعائلة بأكملها!

ولكن من المستحيل أن يفعل ذلك وهو من يفتخر بها في كل مكان ويعتبرها فرحته الوحيدة.

هل من الممكن أن يكون الضرر أو المرض قد أصاب الرجل نفسه بعد صدمته في ابنته التي تريد الزواج من شخص متزوج، وأن نهلة قد أغلقت هاتفها لإرضائه!

آآآآه يا نهلة! خرجت من المستشفى وعرّضت حياتي للخطر فقط لأسمع صوتك وأطمئن عليك وأريح أعصابي بكلمة من شفتيك الناعمتين، ولكن من الواضح أن راحتي أصبحت أمرًا صعب المنال، فقد غادرت المستشفى لأدخل في دوامة الخوف والقلق والتوتر، دوامة الشكوك التي أحاطت بي وجعلت الآلام تعاودني مرة أخرى، فأين أنتِ يا نهلة! وأين صوتك الحنون!

ظللت على هذه الحالة حتى أذان الفجر ثم غلبني التعب وهاجمتني الآلام فأسلمت رأسي إلى وسادتي ورحت في نوم عميق.

***

استيقظت من نومي في اليوم التالي لأجد الحاج سعيد يجلس بجواري، جاء كعادته في الفترة الأخيرة ليطمئن على حالتي ويراقب تصرفاتي وتحركاتي ويبعدني عن أي انفعال تنفيذًا لتوصيات وأوامر الأطباء، ومن الواضح أنه قد لاحظ تغيّر حالتي وشرودي في هذا اليوم فحاول بطريقته أن يخرجني من هذا الجو وقال وهو يبتسم:

- «يلا شد حيلك يا بطل، عايزين نشوفك منور شغلك وعيادتك من تاني».

فلم أهتم بما قال بل تحدثت بما لم يتوقع قائلًا:

- «نهلة متصلتش من يوم ما كنت عندها يا حاج، وكمان تليفونها مقفول، أنا خايف عليها أوي».

فأسرع إلى باب الغرفة وأغلقه ثم عاد مسرعًا وجلس على فراشي يتحدث بصوت هامس حتى لا تسمع زوجتي كلامه وتعجب من موقفي متسائلًا:

- «تاني! نهلة تاني يا أمير! ده إحنا ما صدقنا إن اللي حصل المرة دي مرّ على خير، إنت عايز إيه تاني! البنت دي هتوديك لحد فين! يا بني فووق وارجع لبيتك ولشغلك، حاول تنساها يا أمير، ده إنت من يوم ما عرفتها وإنت حالتك في النازل، انساها يا بني وارتاح وريحنا».

استمعت لكلامه وأنا غارق في أفكاري واحتمالاتي التشاؤمية ولكنني انتبهت له فجأة عندما طالبني بنسيانها فالتفت إليه وقلت متعجبًا: «أنساها»!

ثم أغمضت عيني وتنهّدت تنهيدة طويلة استرجعت معها كل ذكرياتي مع نهلة، واستأنفت كلامي مرة أخرى قائلًا: «أنسى نهلة يا حاج؟! للأسف، نهلة مش من النوع اللي يتنسي، أنسى طيبة قلبها ولا حنيتها ولا حبها اللي خلاني أحس بطعم الدنيا بعد ما كنت عايش زي الإنسان الآلي لا قلب ولا إحساس ولا مشاعر.. أنسى إيه يا حاج! أنسى ابتسامتها ولا أنوثتها ولا رقتها ولا خفة دمها ولا عيونها اللي كانت بتفهمني من نظرة واحدة! نهلة مش مجرد بنت الواحد يتعلق بها، نهلة اللي لسه مكملتش عشرين سنة كنت بلاقي فيها حكمة وخبرة وحنية الأم اللي بتخبي ابنها في حضنا وتغطيه برموش عنيها.. وفي نفس الوقت ألاقي فيها

شقاوة ودلع بنتك الصغيرة اللي تخاف عليها من الهوا الطاير؛ لدرجة إني في المرات القليلة اللي شفتها فيهم كنت لازم أجيبلها شيكولاته».

سكتُ قليلًا ثم استأنفت كلامي بعد تنهيدة طويلة قائلًا:

- «عارف إنك خايف عليا، لكن صدقني لو شفتها واتعاملت معاها كنت عذرتني، نهلة اللي عرفتني يا دوب من سنة لو شفت معاملتها معايا كنت قلت إنها تعرفني من عشرين سنة، نهلة اللي بيني وبينها بلاد كانت تعرف عني كل كبيرة وصغيرة، مواعيد الجامعة والعيادة، مواعيد محاضراتي، مواعيد نومي، البرفيوم بتاعي حتى اللبس اللي بلبسه كانت لازم تعلق عليه وتقول ده لايق عليك أوي.. وده بلاش تلبسه تاني».

ثم شردت للحظات وقلت مرة أخرى والحزن يملأ نبرات صوتي:

- «تصدق يا حاج إن مراتي عمرها ما وقفت جنبي وأنا بلبس أو حتى قالت رأيها في لبسي»!!

كان الحاج سعيد يستمع لكلامي عن نهلة واضعًا يده على خده وكأنه يتابع رواية مؤثرة، غير مصدق أن أمير ذلك الشاب الجاف العملي جدًّا أصبح بهذه الرومانسية، ذلك الشاب الذي لم يهتم طوال حياته إلا بدراسته وعمله ونجاحاته المتواصلة، ذلك الشاب الذي مرّ عليه من خلال عمله آلاف من الفتيات الجميلات لم يهتم بهن ولم تستطع إحداهن أن تشغله عن عمله أو تجذب انتباهه أصبح الآن أسيرًا لفتاة تتحكم في كل مجريات حياته!

ترك الحاج سعيد مقعده وأخذ يتجول في الغرفة، وهو يبتسم بوجهه المشرق ثم التفت نحوي مرة أخرى وقال يداعبني:

- «مع إني مصدقك أووووي وكل اللي قلته كلام جميل، لكن أقسم بالله أنا حاسس إن البت دي عملالك عمل»!

جعلتني كلماته أبتسم بعد اكتئاب وحزن طويلين ثم قلت له راجيًا ومتوسلًا:

- «أنا عايز أروح العيادة».

فاندهش من طلبي وقال بحدة: «لا طبعًا، عيادة إيه! لسه بدري على العيادة والشغل، إنت محتاج للراحة».

فقاطعته موضحًا طلبي ورغبتي: «لا.. لا.. إنت فهمت غلط، أنا مش هروح العيادة للكشف والشغل، أنا بس عايز أخرج وأغير جو المرض ده».

ففكر قليلًا ثم قال: «ماشي أنا موافق! بس أنا اللي أوصلك بنفسي وهسيبك ساعتين وهاجي أرجّعك للبيت تاني».

٢٥

دخلت عيادتي بعد غياب استمر لأكثر من ثلاثة أسابيع، وبمجرد أن فتحت بابها شممت عطر نهلة الذي ينتشر في المكان فأسرعت إلى مكتبي وجلست على مقعدي وأخرجت صورتها واحتضنتها وأنا أبكي بكاءً حارًّا، ثم فتحت حاسوبي وتركت المجال للشيخ محمود التهامي ليشدو بصوته العذب وأسندت رأسي إلى مقعدي، وأغمضت عيني وبدأت أستعيد ذكرياتي معها، كلماتها وابتساماتها وخفة ظلها ورقتها، ولكنني في هذه الليلة وعلى غير عادتي لم أسرح ولم أترك نفسي لعالم الذكريات، فبمجرد أن استمعت لصوت الشيخ محمود انتفضت من مكاني فجأة وتركت صورتها وكأن شيئًا بداخلي قد تحرك رافضًا هذه السلبية وتلك الدموع التي لا تدل إلا على الضعف والاستكانة وبدأت أسأل نفسي:

ما فائدة تلك الذكريات البائدة؟!

إلى متى ستظل على هذه السلبية التي تقودك إلى الموت البطيء؟!

الإنسانة التي عشقتها وغيرت كل حياتك قد تكون في ورطة أو محنة بسببك وتحتاجك بجوارها وأنت لا تفعل شيئًا إلا البكاء واستعادة الذكريات؟!

هل ستكتفي بتلك الذكريات وأنت قادر على صنع الحقيقة التي تحقق سعادتك!

هل ستترك نفسك للدموع والأحزان وتقف مكتوف الأيدي وهي تضيع منك!

ولكن.. ماذا أفعل وأنا في هذه الحالة من المرض والضعف؟!

سؤال تكرر في ذهني كثيرًا حتى توصلت إلى فكرة صعبة، وهي السفر مرة أخرى إلى الأقصر ومحاولة التوصل إليها ومعرفة سبب اختفائها، ولكن هل سأتحمل مشقة السفر لعشر ساعات وأنا في هذه الحالة، فأنا مع أي مجهود أشعر بدوار غريب، وألم قاتل في رأسي، فكيف أصل إليها!

جلست مرة أخرى أفكر في حل لما أنا فيه حتى هداني تفكيري إلى فكرة لم تخطر ببالي من قبل، وهي فكرة السفر إلى الأقصر عن طريق الطيران الداخلي، فكيف لم أفكر في هذه الطريقة وأريح نفسي من مشقة السفر بالقطار في أسفاري السابقة؟!

على الفور بدأت بالبحث عبر شبكة الإنترنت عن طريقة الحجز ومواعيد الطائرات، وبالصدفة اكتشفت أن هناك رحلة طيران إلى مطار الأقصر غدًا في السادسة صباحًا ومن دون تفكير وبمجازفة تصل إلى

حد الجنون اتصلت بشركة الطيران وحجزت مقعدًا بهذه الطائرة، وبعد أن أتممت عملية الحجز انتبهت لهاتفي، فوجدت الحاج سعيد يتعجل خروجي ليعيدني إلى منزلي، فنزلت على الفور وعدت معه إلى المنزل ولم يتركني الرجل إلا بعد أن ألقى عليَّ سيلًا من التوصيات والتحذيرات وضرورة الانتباه لصحتي وحالتي المرضية، فتظاهرت بالاهتمام لنصائحه والالتزام بتعليماته وأهمها النوم مبكرًا، وعدم التفكير في أي شيء، ثم ودعته ودخلت غرفتي لأرتاح قليلًا قبل هذه الرحلة الجديدة.

٢٦

استيقظت من نومي على أذان الفجر، فأديت صلاتي ثم غيّرت ملابسي دون أن يشعر بي أحد، ثم اتجهت مباشرة إلى المطار وانطلقت الطائرة في موعدها لتبدأ رحلة جديدة إلى الأقصر، وكعادتي غصت في بحر من الأفكار والاحتمالات والتوقعات، وقد كان تفكيري منصبًا طوال الرحلة التي استمرت لأكثر من ساعتين على تحركاتي بعد هبوط الطائرة وأين سأبحث عن نهلة؟ وبعد تفكير طويل وعميق قررت البحث عنها أولًا في سكن الطالبات، فلعلي أجدها هناك أو على الأقل أظفر بمعلومة تريحني وتطمئنني وتطفئ النيران المشتعلة بداخلي، وبالفعل وبمجرد أن هبطت الطائرة توجهت مباشرة إلى سكن الطالبات، فقابلتني المشرفة على السكن ورحّبتْ بي واستقبلتني أحسن استقبال، بعد أن اطلعت على بطاقة تحقيق الشخصية الخاصة بي وتحققت من شخصيتي، ثم سألتني عن سبب زيارتي فأجبتها كذبًا بأنني أريد مقابلة إحدى طالبات الدار والتي تربطني بها صلة قرابة، فأبدت المشرفة موافقتها على طلبي وطلبت اسم الطالبة

لإحضارها، فأخرجت ورقة صغيرة من حقيبتي وكتبت عليها الاسم بالكامل وأعطيتها لهذه السيدة الفاضلة، التي توجهت على الفور لملفات الطالبات لتحدد رقم غرفتها وتستدعيها ولكن بعد بحث طويل عادت السيدة وسألتني مبتسمة:

- «حضرتك متأكد إن الطالبة دي ساكنة عندنا»؟

فأجبتها مترددًا: «هيا كانت ساكنة هنا السنة اللي فاتت، وأعتقد يعني إنها مش هتغير سكنها».

فعادت السيدة إلى ملفاتها مرة أخرى لتتأكد من كلامي ثم قالت وهي تؤكد على كلامي: «فعلًا يا دكتور كلامك صحيح، هيا كانت موجودة السنة اللي فاتت لكن السنة دي مقدمتش ورقها عندنا».

فوقفت ساهمًا للحظات ثم شكرتها بلطف وغادرت المكان.

بدأت الوساوس والأفكار التشاؤمية تزداد بداخلي وأخذت الأسئلة تتزاحم في رأسي مرة أخرى، ولكنني قبل أن أغوص في أفكاري مرة أخرى خطرت ببالي فكرة رأيتها مناسبة في هذا التوقيت، فقد تزيل الكثير من الغموض الذي أصبح يسيطر على الموقف والذي كاد يقتلني، وعلى الفور استوقفت سيارة وطلبت من قائدها التوجه إلى الجامعة، لعلي أقابلها هناك أو على الأقل أتوصل لأية معلومة تدلني على مكانها، أو سبب غيابها، وما حدث في سكن الطالبات حدث أيضًا في الجامعة، فقد استقبلني أفراد الأمن أحسن استقبال، بعد أن تعرفوا عليَّ ثم قادني أحدهم إلى مكتب المسؤول عن شئون الطلاب، والذي رحّب بي كثيرًا وعرض مساعدته،

وللمرة الثانية أخرجت ورقة صغيرة وكتبت عليها اسمها بالكامل وصلة القرابة الكاذبة بيني وبينها ثم قدمتها إليه فسألني بأدب:

- «هيا في سنة كام يا فندم»؟

فأجبته: «هيا السنة اللي فاتت كانت في السنة التالتة».

فبدأ الرجل يبحث في ملفات الفرقة الثالثة، وقال مبتسمًا: «فعلًا كلام حضرتك صحيح، السنة اللي فاتت كانت في تالتة، وكمان نجحت بتقدير امتياز وانتقلت للفرقة الرابعة».

وقعت كلمات الرجل على مسامعي كالنسمات الباردة في حر الصيف وأخذتُ نفسًا عميقًا وعادت الابتسامة إلى وجهي مرة أخرى بعد أن شعرت أنني عثرت عليها ثم سألته: «ممكن أقابلها لو سمحت»؟

فرحّب الرجل بطلبي وعلى الفور طلب من أحد الموظفين استدعاء الطالبة إلى مكتب شؤون الطلاب لأمر مهم.. شكرت الرجل على اهتمامه بي واعتذرت له كثيرًا على ماسببته من إزعاج وتعطيل، ولكنه ردّ على اعتذاري بلطف وأدب قائلًا:

- «متقولش كده يا دكتور أمير، ده إحنا نتمنى نخدمك».

وما هي إلى دقائق معدودة حتى عاد الموظف وبيده ورقة وضعها أمام مدير المكتب ثم انصرف، فقرأ الرجل الورقة ثم قال معتذرًا:

- «للأسف يا دكتور أمير، الطالبة دي منقطعة من بداية الدراسة».

أصابتني كلماته بصدمة جديدة وغابت الابتسامة من وجهي مرة أخرى وبعد صمت قليل سألته: «وده معناه إيه حضرتك»؟

فأجاب الرجل بعد أن أسند ظهره إلى مقعده: «ممكن تكون سابت التعليم مثلًا، أو تكون حولت لجامعة تانية، أو لا قدّر الله تكون ماتت».

زادت كلمات الرجل من خوفي وقلقي وبدأت الرعشة تسري في جسدي مرة أخرى ثم سألته قلقًا:

«طيب لو كانت حولت لجامعة تانية مش المفروض إدارة الكلية تكون عارفة»؟

فأجاب الرجل بثقة:

- «التحويل بيكون إلكتروني يا فندم، ولحد الآن موصلنيش أي إشارة بتحويلها أو إن جامعة تانية طلبت بياناتها».

خرجت من الجامعة واجمًا تحيط بي أحزان وأوهام لا يتحملها بشر، فقد أغلقت أمامي كل السبل وباءت محاولاتي وتوقعاتي بالفشل، وأخذت أمشي في شوارع الأقصر كالتائه، أمشي قليلًا لا أعرف وجهتي ثم أتوقف قليلًا لأغوص مرة أخرى في بحر أفكاري وأسئلتي، أين أبحث عنها! أين أجدها! وقد باتت كل الاحتمالات ممكنة: هل منعها والدها من الجامعة مثلما منعها من الاتصال بي!

أو قد يكون هذا الرجل قرر السفر مرة أخرى واصطحبها وأخاها إلى خارج مصر، ولم لا! فقد قضى أغلب سنوات عمره خارج مصر!

أو أنها بالفعل قد... لا.. لا.. لا، لن أكمل، فأنا من الممكن أن أتحمل أي توقع أو احتمال إلا هذا، إلا موتها، وبمجرد أن هاجمني هذا الاحتمال القاسي ومن دون استئذان وجدتُ دموعي تنهمر وقلبي يرجف بين ضلوعي، وبينما أنا في هذه الحالة الصعبة إذ خطرت ببالي فكرة غريبة، قد تنهي كل شكوكي وتأتي بالخبر اليقين، ولكنها في نفس الوقت تعتبر مجازفة ومخاطرة قد تكون وخيمة العواقب، ولكنني لن أفكر في عواقب أو نتائج، سأبحث عنها في كل مكان، سأقتحم كل الأهوال والمصاعب حتى أعثر عليها، ومن دون التفكير في أي نتيجة سيئة قد تضرني أو تهين كرامتي، وهل هناك مجازفة أو مغامرة أكبر من وجودي هنا الآن وأنا في قمة مرضي وتعبي!

نحّيت كل أفكاري جانبًا وقررت التوجه إلى منزلها لأكشف هذا الغموض القاتل، وماذا سيضيرني في ذلك؟! هل سيرفض والدها مقابلتي! هل سيحرجني بكلماته القاسية! هل سيطردني من بيته! حتى ولو حدث ذلك فالأهم هو الاطمئنان عليها حتى ولو من جيرانها..

بالفعل اتخذت قراري بالتوجه إلى منزلها، ولكن التعب كان قد نال منّي كل منال، وبدأت هذه الرعشة الغريبة تسري في جسدي بشدة، فرأيت الذهاب إلى شقتي التي استأجرتها وأخذ قسط من الراحة قبل التوجه إلى منزلها.

بالفعل توجّهت إلى شقتي ودخلتها وأنا في قمة الإرهاق فجلست على مقعدي وأسندت ظهري إليه وأغمضت عيني أحاول مقاومة هذا الألم القاتل الذي يسيطر على رأسي، وظللت على هذه الحالة لدقائق حتى

ارتحت قليلًا، ففتحت عيني وأمسكت بهاتفي وبدأت أبحث فيه فلعل هاتفها قد عاد للعمل فأتصل بها أو تكون قد أرسلتْ رسالة ولم أرها.

وبينما أقلب في هاتفي، إذ لمحت بطرف عيني شيئًا كنت قد نسيته منذ تواجدي آخر مرة في هذه الشقة، إنها الحافظة التي تحوي صور شهد، فنهضت إليها مسرعًا لعلي أجد بها ما يريحني، فتحت الحافظة وبدأت أفرغ محتوياتها، مجموعة صور لشهد مع عشيقها ومفكرة بها مجموعة من أرقام الهواتف، أمسكت بهذه المفكرة وكأنني عثرت على كنز ثمين وبدأت أقلب فيها وأنا أسأل نفسي متعجبًا، كيف فكرت في كل هذه الاحتمالات والتكهنات ولم أفكر في شهد وهي أقرب صديقة لنهلة! كيف لم أفكر فيها وهي كاتمة أسرارها!

كان أول رقم في هذه المفكرة هو رقم شهد نفسها، فلم أتردد لحظة في الاتصال بها، ولكنها لم ترد فانتظرت لدقائق ثم عاودت اتصالي مرة أخرى حتى ردت ودار بيننا الحوار التالي:

- «ألوو، مين معايا»؟
- «أنا أمير».
- «أمير مين»؟
- «أمير الباهي».

فقالت من دون اهتمام: «معرفش حد بالاسم ده».

فقلت وقد علا صوتي:

- «أنا أمير يا شهد، اللي كلمتك عنه نهلة، واللي إنتي قلتي عنه إنه مجنون، افتكرتيني ولا لسه»؟

فصمتت شهد للحظات وكأنها صُدمت من هذه المفاجأة ثم قالت:

- «أيوه أيوه افتكرت، المهم إنت بتتصل ليه؟ وجبت رقم تليفوني منين»؟

فلم أهتم بكلامها وسألتها متلهفًا:

- «فين نهلة يا شهد»؟

فقالت: «أنا معرفش أي حاجة عن نهلة، ويا ريت تقفل ومتتصلش هنا تاني».

أصابني ردها بغيظ شديد فتغيرت نبرة صوتي من الهدوء واللطف إلى الحدة والانفعال وقلت بصوت عال مهددًا ومتوعدًا:

- «اسمعيني كويس، أمير الرومانسي الطيب اللي كلمتك عنه نهلة خلاااص انتهى، وأقسم بالله لو ما قلتي نهلة فين لأخليكي تندمي طول حياتك».

فردت منفعلة:

- «إنت مين علشان تهددني بالشكل ده، أنا مستحيل أسمح لأي واحد مهما كان إنه يكلمني بالشكل ده».

فقاطعتها قبل أن تستمر في تعاليها ونبرتها الواثقة قائلًا:

- «الكدب ده تقوليه لواحد تاني ميعرفش تاريخك، اسمعيني كويس، في فندق اسمه «الوفا» جنب محطة القطر، أنا هكون

هناك بعد نص ساعة، أقسم بالله لو ما لقيتك قدامي بعد نص ساعة كل صورك المحترمة مع البيه بتاعك لأخليها تلف مصر كلها».

صُدمت الفتاة مما سمعت وسكتت قليلًا من هول الصدمة، ثم قالت بعد أن انخفض صوتها وانكسرت لهجتها المتعالية:

- «وإنت جبت صوري منين»؟

فأجبتها قبل أن أنهي المكالمة قائلًا:

- «متسأليش، أنا قلت اللي عندي وإنتي حرة، أنا رايح الفندق دلوقتي، سلام»!

فقالت مسرعة قبل أنا أنهي المكالمة:

- «وأنا هعرفك إزاي؟ أنا مشفتكش قبل كده».

فقلت: «هتلاقيني ماسك سبحة سودة، وكمان لابس نضارة سودة.. سلام».

٢٧

بمجرد أن انتهت مكالمتي مع شهد بدّلت ملابسي وأخذت حافظة الصور واتجهت مسرعًا للقائها يحدوني الأمل وتدفعني اللهفة للاطمئنان على نهلة والتعرف على سبب اختفائها، وصلتُ الفندق في الموعد الذي حددته لشهد، وكان أول ما وقعت عيناي عليه هو المكان الذي جلست فيه مع نهلة لأول مرة، فوقفت للحظات أتأمل المكان وأتذكر نهلة وهي جالسة فيه برقتها وجمالها، أتذكر كلماتها وبسماتها وخجلها وخفة ظلها، ولم يخرجني من حالة التأمل تلك إلا صوت أحد عمال الفندق وهو يرحّب بي بأدب ولطف، ثم دعاني إلى الجلوس، ولكنني رفضت أن أجلس في هذا المكان من دونها واخترت مكانًا آخر مطلًا على النيل وجلست صامتًا ساهمًا إلى أن حضرت هذه الفتاة المتكبّرة ووقفتْ بجواري وقالت وهي تدير وجهها عني:

ـ «إنت أمير»؟

فالتفت إليها وطلبت منها الجلوس، فجلست الفتاة وكل علامات الضيق والغضب ترتسم على وجهها، ثم بدأتْ تلقي بالعديد من الأسئلة:

- «نعم! حضرتك عايز مني إيه؟ وإزاي وصلت لصوري؟ هو إنت تعرف طارق»؟

لم أهتم بأسئلتها ولا بلهجتها المستفزة، بل انشغلت بإشعال سيجارة كانت في يدي وتركتها حتى أنهت كلامها، ثم قلت وأنا أنفث دخان سيجارتي:

- «أنا مش جايبك علشان تسأليني، إنتي هنا علشان تجاوبي على أسئلتي وبس، وبعدين طارق مين اللي بتسأليني عنه، هو إنتي مش واخدة بالك إنتي بتكلمي مين»؟

فقالت وقد ازداد غضبها وزادت حدة صوتها:

- «هو تحقيق ولا إيه؟ أنا أتكلم براحتي».

فقلت محاولًا السيطرة على غضبها:

- «ولا تحقيق ولا حاجة، كل اللي عايز أعرفه منك مكان نهلة وليه قافلة تليفونها».

فأجابت إجابة استفزتني وزادت من النار المشتعلة بداخلي حين قالت:

- «متهيألي واحدة مش بتتصل عليك وكمان قافلة تليفونها يبقى مش عايزة تكلمك، استنى لما تفتح تليفونها وابقى أعرف منها كل حاجة بنفسك».

فقلت وأنا أحاول السيطرة على النيران التي بدأت تشتعل داخلي:

- «هيا قافلة تليفونها ومش عايزة تتصل، لكن أنا كلمتك إنتي وعايز أعرف منك إنتي، يا ريت تريحيني وتقولي اللي عندك».

فصمتت الفتاة قليلًا ثم قالت:

- «دكتور أمير، أنا فعلًا ساكتة ومش عايز أتكلم علشان فعلًا عايزة أريحك، لأني لو اتكلمت هقول كلام هيزعلك».

وهنا بدأت تزداد دقات قلبي وبدأت الرعشة تسري في جسدي مرة أخرى وقلت بصوت مرتعش:

- «لا.. لا متخافيش عليا من الزعل، أنا جاي لحد هنا علشان أعرف الحقيقة وبس».

فصمتت الفتاة مرة أخرى ونظرت إلى النيل قليلًا وتنهدت تنهيدة عميقة ثم قالت:

- «نهلة اتجوزت يا دكتور أمير».

وقع الخبر على مسامعي وقع الصاعقة، حتى إن عينيّ قد اتسعتا بشكل غريب، وبدأتُ أحملق في وجهها ممنيًا نفسي بأنني قد أخطأت السمع أو أنني لم أسمع من الأساس وانتفضت من مكاني كالمجنون واقتربت منها وقلت بصوت عالٍ:

- «إنتي بتقولي إيه؟ عيدي كلامك تاني، متهيألي إني سمعت غلط».

فقالت الفتاة وهي تتلفت حولها خجلًا بعد أن بدأ المحيطون ينتبهون لحديثنا:

- «لو سمحت، يا ريت تقعد مكانك وتهدى شوية، الناس كلها بتبص علينا».

فقلت وأنا في قمة غضبي وثورتي:

- «وأنا ما لي بالناس يبصوا ولا يتحرقوا، إنتي بتقولي إيه! إنتي اتجننتي! نهلة ممكن تكون تعبانة أو مثلًا أبوها مانعها من الخروج والاتصال».

ثم علا صوتي وصرخت في وجهها وأنا أستأنف كلامي قائلًا:

- «نهلة ممكن تكون مااااااتت، إنما اللي بتقوليه ده مستحيل، مستحيل، إنتي كداابة».

فقالت الفتاة وهي تمسك بحقيبة يدها:

- «لأ، كده كتير، أنا همشي قبل ما الفندق كله يتلم علينا».

ولكنها اندهشت وبدا الخوف في وجهها عندما وقفتُ أمامها وأمسكت بحقيبتها وقلت مهددًا ومتوعدًا:

- «أقسملك بالله أنا ما بقى عندي أي حاجة في حياتي أخاف عليها، ولو مرجعتيش مكانك وقلتي كل حاجة هرميكي في النيل اللي وراكي ده».

فعادت الفتاة إلى مقعدها وهي تبكي من شدة الخوف وتقول بصوت مهزوز:

- «أقسم بالله أنا ما بكدب عليك، والله العظيم نهلة اتجوزت من أسبوعين تقريبًا».

فجلستُ في مقعدي وأحسستُ أن الصدمة قد أصابتني بالشلل وبدأت الرعشة تزداد بجسدي، حتى إن السيجارة وقعت من يدي ولكنني قاومت ما بي من تعب حتى أستوضح منها الأمر برمته وسألتها مرة أخرى:

- «اتجوزت مين؟ وفين»؟

فأجابت الفتاة بعد أن هدأت قليلًا وكفكفت دموعها وقالت:

- «اتجوزت ظابط مهم أوي من قرايب والدتها في إسكندرية».

فسألتها مرة أخرى بصوتي المرتعش:

- «فين في إسكندرية»؟

فأجابت بعد أن صمتت قليلًا لتتذكر المكان:

- «تقريبا في حي اسمه العجمي».

فأسندتُ ظهري إلى مقعدي ولم أستطع مقاومة دموعي التي انهمرت كالسيل وظللت أبكي حتى قامت الفتاة من مقعدها واقتربت مني وقالت مشفقة على حالتي:

- «دكتور أمير، أنا حاسة بيك أوي، ومن كلام نهلة عنك عرفت إنك طيب أوي وحنين أوي، وزي ما قلتلك الحقيقة اللي جرحتك وحرقت قلبك، لازم أكون أمينة وأقولك إن نهلة

مقفلتش تليفونها بمزاجها، نهلة اتجبرت على كل حاجة.. والله والله والله نهلة بتحبك أوي ولازم تعذرها وتقدر موقفها».

كان صوت نهلة وهي تصرخ وتستغيث بي في مكالمتها الأخيرة يصل إلى أذني أسرع وأعلى من صوت صديقتها التي كانت تحاول تهدئتي وتخفيف آلامي، فتحدثت الفتاة كثيرًا وهي تضع يدها على كتفي مشفقة على حالتي ولكن من الواضح أنها قد يئست من حالتي وعدم ردي، فتناولتْ حقيبتها وهمّت بمغادرة المكان، ولكنني أمسكت بيدها قبل أن تغادر وفتحت حقيبتي وأخرجت الحافظة التي تحوي صورها ووضعتها في يدها وتركتُ الفندق كالمجنون، أمشي قليلًا ثم أجري ثم أقف أقلب وجهي في وجوه المارين عبثًا لعلي أعثر عليها وأمشي خلفها حتى أوصلها إلى سكن الطالبات ثم أنتظرها حتى تشير إليَّ من نافذة غرفتها، أبحث عن ابتسامتها الساحرة في وجوه الفتيات المارات بجواري، أبحث عنها بدموعي المنهمرة وجسدي المرتعش وقلبي الخفاق، صوتها ما زال يملأ أذني، يتردد في مسامعي وهي تقول بوجهها المشرق: «قولي بحبك يا نونا»! يزداد الضجيج من حولي وصخب الشوارع والسيارات ولكنني لا أسمع إلا صوتها ولا أرى إلا صورتها.

ظللت أجري في شوارع الأقصر حتى وصلت إلى شقتي وبدأت أجهز حقيبتي وأنا أبكي، ثم ازداد بكائي عندما وقفت في نفس المكان الذي شهد أجمل أوقاتنا معًا، وتذكرت كل ما دار بيننا في هذا المكان وفي النهاية حملت حقيبتي وودعت الشقة بدموعي وودعت الأقصر كلها للأبد.

٢٨

عدت إلى بيتي محملًا بآلام ومتاعب وأحزان تنوء بحملها الجبال، وخيبة أمل لم أعهدها في حياتي المليئة بالنجاحات، ودموع حارة ألهبت جفوني بعد ضياع أكبر حلم في حياتي، بعد الصدمة التي قسمتني نصفين وأحرقت قلبي الضعيف.

ووسط هذه الأحزان وتلك الآلام استقبلتني زوجتي كعادتها بوابل من الأسئلة والاستفسارات بنبرة صوتها العالية المستفزة قائلة:

كنت فين يا أمير؟

وليه مش بترد على تليفونك؟

إزاي تخرج وإحنا نايمين زي الهربان؟ وإزاي تبات بره البيت وإنت في الحالة دي؟

هو إحنا ناقصين قلق وتعب!!!

لم أهتم حتى بالنظر إليها، ولكنني اتجهت مباشرة إلى غرفتي وأوصدت بابها واستلقيت على فراشي ودخلت في حالة غريبة لم أشعر بها من قبل، فأصبحت لا أرى إلا صورة نهلة حتى وإن أغمضت عيني فهي أمامي بجمالها ورقتها وابتسامتها الساحرة وخفة ظلها، ورغم الضجيج والأصوات العالية داخل المنزل وخارجه أصبحت لا أسمع إلا صوتها، صوت كلماتها الرقيقة، صوت ابتسامتها العذبة، حتى صوتها في آخر مكالمة وهي تبكي وتصرخ، أصبحت أسيرًا لها حتى بعد أن... بعد أن غابت.

جلست على فراشي أسترجع ما كان بيني وبينها ودموعي لا تنقطع، أتذكر كل ذكرى بيننا منذ بداية علاقتنا وصوتها يتردد في أذني وهي تقول بصوتها الرقيق: «إوعى تسيبني يا أمير، أنا من يوم ما حبيتك وإنت حبيبي وأخويا وأبويا وكل حاجة في دنيتي»، أتذكرها وهي تقول بابتسامتها الساحرة: «قولي بحبك يا نونا»، أتذكر حوارات كاملة دارت بيني وبينها فأغوص معها في عالم خيالي تمتزج فيه المشاعر الدافئة والذكريات الجميلة والهمسات الساحرة.. ثم أفيق فجأة وتعتصرني الآلام ويكاد الحزن والغيظ يقطعان أحشائي، عندما أتخيلها بين أحضان شخص آخر فأنتفض من مكاني كالمجنون وتتزاحم الأوهام والأسئلة في رأسي:

هل قَبِلَتْ نهلة أن تكون في أحضان شخص غيري؟

هل تشعر بالسعادة وهي بين أحضانه؟

هل اختارت ذلك برغبتها؟ أم أنها مجبورة كما قالت شهد؟

هل استسلمت للأمر الواقع ونسيت حبي؟

هل بهذه السهولة تنسى أمير وحبه وكلامه الذي كان يطربها وسهراته التي كانت تؤنسها، وترتمي في أحضان شخص آخر؟

هل بهذه السهولة نست أمير الذي تواعدت معه على الحب والوفاء والإخلاص حتى نهاية العمر وفي غمضة عين يتحول وفاؤها وإخلاصها وولاؤها لشخص آخر؟

عجبًا لهذا القدر وأحكامه الغريبة! فهو من حكم عليَّ بالزواج من إنسانة لا أحبها ولا تحبني وهو نفسه من حرمني من الإنسانة الوحيدة التي أحببتها وحلمت بسعادتي معها وقدّمها على طبق من ذهب لإنسان آخر لا يعرفها ولا تعرفه، فكأنه يعاندني ويُخرج لسانه لكل محب، كأنه يقول لكل عاشق: احلم كما شئت واعشق واسهر وتأمل وافرح، ولكن في النهاية أنا من سأحكم، وحكمي دائمًا هو الفراق والقهر والحزن والدموع، احلم كما شئت ولكنني في النهاية سأغتال حلمك البسيط وأجعل دموعك نارًا تكوي ضلوعك عندما ترى محبوبتك التي حلمت بها بين أحضان شخص آخر.

فعجبًا لك أيها القدر! تضع السعادة في طريقنا فنفرح ونظن أننا لامسنا بأطراف أصابعنا عنان السماء ثم تنزعها فجأة فنهوي وتهوي معنا أحلامنا لسابع أرض.

حاصرتني الأفكار والأوهام كثيرًا ثم أفقت فجأة على صوت الحاج سعيد، فمن الواضح أنه طرق الباب كثيرًا، ولكنني كنت غائبًا في عالمي الخيالي فبدأ ينادي عليَّ بصوت عالٍ حتى انتبهت وفتحت الباب واستقبلته وبمجرد أن دخل بدأ يعيد نفس أسئلة زوجتي ولكنني لا أجيب، فعذرًا

يا صديقي العزيز، فإن كنتم تتحدثون وتسألون وتتعجبون فأنا لا أسمع إلا صوتها، وإن كنتم تظهرون وتتحركون أمامي فأنا لا أرى إلا صورتها.

ظل الحاج سعيد يتكلم وينصح كعادته، وعندما يئس من صمتي الغريب اقترب مني وجلس بجواري وسألني بصوت هامس:

- «إنت قابلت نهلة وقالتلك حاجة زعلتك»؟

فاكتفيت بالنظر إليه ولم أجبه، فسأل مرة أخرى:

- «طيب هيا مريضة مثلًا وإنت زعلان عليها»؟

فظللت على صمتي ولم أجبه فصمت قليلًا، وكأنه كان يفكر ثم سأل مرة أخرى:

- «يعني لا قالت لك حاجة زعلتك ولا مريضة، طيب يمكن لا قدر الله يعني تكون ماتت»؟

فنظرت إليه بعينين دامعتين وتخليت عن صمتي قائلًا:

- «نهلة اتجوزت ظابط قريبها في إسكندرية».

لم يتفاجأ الحاج سعيد من كلامي، ولكنه صمت قليلًا ثم قام من مكانه واتجه نحو الشرفة المطلة على حديقة المنزل، ثم أشعل سيجارة وعاد إلى جواري مرة أخرى ووضع يده على كتفي وقال برفق:

- «دقنك طويلة أوي وشعرك أطول، ما تقوم تحلق دقنك وتغير هدومك ونخرج مع بعض نغير جو».

فنظرت إليه متعجبًا من بروده وعدم اهتمامه، ومن الواضح أنه فهم مغزى نظرتي فتنهّد تنهيدة عميقة ثم قال:

- «إوعى تكون مفكر إني مش حاسس بيك أو مش مهتم بكلامك، بالعكس يا أمير، دي الدموع اللي في عيونك دي بتقطع في قلبي، لكن إنت عايزني أقولك إيه؟ أعاتبك إنك مسمعتش كلامي من الأول؟ أزود همومك وأحزانك؟ صدقني يا بني خلاص مبقاش له لازمة العتاب والندم، أنا من البداية قلتلك إن الطريق صعب يا أمير مصدقتنيش، ومشيت ورا حلمك وفرحتك ويا ريتني كنت أقدر أمنعك وقتها! لكن لقيتك طاير من الفرحة وللأسف اللي اتوقعته حصل، خلاص يا أمير اللي أقدر أقوله دلوقتي

وياريت تسمعه وتنفذه، إنك تطوي الصفحة دي للأبد وتعتبرها تجربة وتاخد منها دروس تنفعك في حياتك».

غادر الحاج سعيد بعد أن يئس من صمتي وتركني وحيدًا أصارع آلامي وأحزاني ودموعي.

وأصبحت أيامي تمر على هذا النمط الغريب، صمت تام ووحدة واكتئاب قاتل، تائه بين ذكرياتي وأفكاري التي لا تنتهي، حتى الطعام لا أتناول منه إلا ما يكفي لبقائي حيًّا حتى تغيّر شكلي تغيّرًا كاملًا فصرت هزيلًا ضعيفًا شاحب الوجه، أنتظر الموت وأتمناه مع كل لحظة تمر من حياتي، ومن كان يصدق أن الدكتور أمير الباهي صاحب الإنجازات والنجاحات الباهرة التي تحدث عنها الجميع أن يصل به الحال لتمني الموت، فأصبحت حالتي مثار جدل وتعجب من الجميع، حتى إنني في أحد أيامي الكئيبة فوجئت بالحاج سعيد يدخل غرفتي ومعه أحد الأطباء

المعروفين في مجالي وتخصصي، ويطلب منه فحصي ومحاولة الوصول إلى العلاج المناسب الذي يعيدني لطبيعتي مرة أخرى، فقمت من فراشي مسرعًا وأمسكت الحاج سعيد من يده وقلت بصوت غاضب:

- «إنت جايبلي دكتور يحلل حالتي يا حاج! هو إنتوا خلاص مفكرين إني اتجننت! أمير الباهي أكبر دكتور نفسي وعصبي في مصر جايب له طالب من طلابه يكشف عليه»!

فحاول أن يبرر موقفه ويهدئ من ثورتي، ولكنني لم أتح له فرصة الحديث وطلبت منه أن يُخرج هذا الطبيب فورًا، فاستجاب لطلبي خوفًا من ثورتي العنيفة، واصطحب الطبيب وغادرا المنزل وعدت مرة أخرى لصمتي وانطوائي حتى دخلتْ زوجتي تحاول كعادتها في الفترة الأخيرة أن تخرجني من صمتي فقالت برفق:

- «يا أمير شكلك بقى غريب أوي، شعرك ودقنك طولوا أووي، ما تقوم تخرج وتروح صالون الحلاقة».

فابتسمت ابتسامة حملت كل معاني السخرية وقلت بصوت حزين:

- «أول مرة من يوم جوازنا تاخدي بالك من شعري أو دقني، يمكن لو كنتي أخدتي بالك من زمان مكنتش وصلت للي أنا فيه ده».

فردت زوجتي متعجبة: «مش فاهمة إنت تقصد إيه»!

فأجبتها وأنا أستعد للخروج: «ولا عمرك هتفهمي».

فسألتني مرة أخرى: «هتخرج تروح صالون الحلاقة»؟

فقلت: «لا، أنا رايح العيادة».

٢٩

لم تكن زيارتي للعيادة بسبب شوقي لعملي ومرضاي، بل كان السبب الرئيس هو شوقي الشديد ولهفتي على نهلة وصورتها واستعادة ذكريات سهراتنا الجميلة في هذا المكان مع عطرها الجذاب وصوت الشيخ محمود التهامي، فبمجرد أن دخلت عيادتي أسرعت إلى مكتبي وأخرجت صورة نهلة واحتضنتها وجلست على مقعدي أتحسس وجهها وملامحها الجميلة التي اشتقت إليها، اشتقت إلى كل كلمة من كلماتها، إلى عينيها الساحرتين وابتسامتها الرائعة، إلى خفة ظلها وتعليقاتها الساحرة، اشتقت إلى كل شيء كان بيننا، حتى إنني فتحت هاتفي وبدأت أقرأ رسائلها القديمة التي ما زلت محتفظًا بها، وسالت دموعي عندما قرأت رسالتها التي قالت فيها: «إوعى تسيبني يا أمير، أنا في الأسبوع اللي بعدت فيه عنك كنت تايهة».

أحسست وأنا أقرأ هذه الرسالة أنها تناديني، تستغيث بي، تحتاج وجودي كما أحتاج وجودها وأتمناه، تشتاق لرؤيتي كما أشتاق، ولكن كيف السبيل إلى وصالك يا من منحتني الحياة! يا من زرعت الأمل بداخلي، يا من رسمت بيديك الناعمتين طريق السعادة، ففي الماضي القريب كانت أحلامي لا حدود لها فحلمت بالقرب منك، بالزواج والسعادة الدائمة، حلمت بأحضانك الدافئة وهمساتك الساحرة، ولكن الآن وبعد أن صدمني واقعي الحزين تضاءل الحلم، حتى إنني صرت أحلم برؤيتك ولو لمرة واحدة، أن أسمع صوتك بل أنفاسك، بالفعل تضاءل الحلم بداخلي ولكنه لم يمت.

وفي لحظة من لحظات الجنون والأفكار الغريبة التي أضحت تسيطر عليَّ في الفترة الأخيرة، خطرت ببالي فكرة لم أكن لأعيرها دقيقة واحدة من تفكيري لو كنت بحالتي الطبيعية، ولكنني أصبحت أتصرف بلا وعي، أسعي خلف قلبي وحبي وشوقي لها الذي يزداد مع كل لحظة تمر من عمري، خطرت ببالي الفكرة وقبل أن أدرس نتائجها وعواقبها هاجمني سؤال جعلني أتخذ قراري دون تفكير وكان السؤال:

ـ «أليست الإسكندرية أقرب من الأقصر»!

وكأن هذا السؤال قد خطر ببالي ليمنعني من التفكير في أية عاقبة، فغادرت العيادة واتجهت إلى منزلي وأنا متخذ هذا القرار الغريب ومصرّ على تنفيذه.

ومع أنني عُرفت من صغري بكفاءتي في الحكم على الأشياء وشهد الجميع بحكمتي ورويتي وحسن تقييمي للأمور والتفكير المنطقي العقلاني قبل اتخاذ أي قرار، إلا أنني ومنذ عرفتها وعشقتها -وخاصة في الفترة الأخيرة وبعدما ضاعت من بين يدي- أصبحتْ كل قرارتي تصدر من قلبي ومن دون تقييم أو تفكير، أصبح القلب هو المتحكم، والشوق واللهفة هما المسيطران على كل قراراتي، أصبحتُ أتخذ قرارات أقل ما يقال عنها أنها مجنونة وغير مدروسة النتائج والعواقب، واستمرارًا لسلسلة القرارات الغريبة والمتهورة وبعد أن نحيت عقلي جانبًا، وأطلقت العنان لشوقي وعشقي ولهفتي ليتحكموا في كل أفعالي، عدتُ إلى منزلي بعد أن انتصف الليل وكالعادة دخلت غرفتي وأوصدت بابها جيدًا وجلست أنظر لصورتها التي أخذتها من عيادتي واصطحبتها معي لأول مرة إلى منزلي، أحدّثها حينًا وأتذكر معها ذكرياتنا الجميلة فأضحك وتضحك معي، ثم أتأمل ملامحها حينًا آخر وظللت على هذه الحالة حتى أُذن لصلاة الفجر، وتأكدت أن كل من في البيت قد غطوا في سبات عميق، فوضعت صورتها في حقيبة يدي الصغيرة ومعها نصف القلب الذي لا أتحرك من دونه، ومسبحة أبي السوداء، ثم خرجت من غرفتي على أطراف أصابعي قاصدًا غرفة الحسن والحسين فوجدتهما نائمين مثل الملائكة، فنظرت إليهما والدموع تملأ عيني وقد انتابني شعور غريب بأنني لن أراهما ثانية، فاحتضنتهما وقبلتهما ثم خرجت من منزلي متجهًا إلى الإسكندرية.

٣٥

تركت بيتي وزوجتي وأبنائي وعملي وعيادتي ونجاحاتي وشهرتي من دون أدنى تفكير، فقط لأريح قلبي وأطفئ النيران التي تكوي ضلوعي بنظرة من عينيها، تركت كل شيء لأحظى بقربها حتى وإن عظم وارتفع الحاجز الذي يمنعني عنها، اعتقدتُ أنني قادر على محاربة القدر الذي حرمني منها، فتركت واقعي الحزين وتشبثت بعالم خيالي أليم نسجته من ذكرياتي وشوقي وعشقي لها الذي فاق كل حد، أغوص معها في ذكرياتي فأتذكر فقط ما يفرحني ويريح قلبي، أتذكر جمالها ورقتها فترتسم على وجهي الكئيب ابتسامة عابرة، ثم تختفي فجأة وكأنها قد أخطأت طريقها، وذلك عندما أفيق من ذكرياتي وأنا أرى هذا الجمال وتلك الرقة قد أصبحا ملك شخص آخر يتمتع بهما متى يشاء، أتذكر ابتسامتها الساحرة فأبتسم معها ثم تنهمر الدموع من عيني فجأة عندما أعود لواقعي وأتخيلها وهي تبتسم لشخص آخر.

لم تطل رحلتي كثيرًا، فبعد حوالي ثلاث ساعات وصلت الإسكندرية ثم وقفت حائرًا أتلفت شمالًا ويمينًا، ولا أعرف من أين أبدأ وإلى أين سأتجه، فلأول مرة في حياتي أزور الإسكندرية وليس لي فيها قريب أو صديق، وبعد تفكير قليل استوقت سيارة من سيارات الأجرة وبعد أن ركبت سألني قائدها: «رايح فين إن شاء الله»؟

فأجبته من غير تردد: «رايح العجمي».

فسألني مرة أخرى: «رايح فين في العجمي»؟

فأجبته بتلقائية لم أعتدها: «معرفش».

فنظر السائق في وجهي متعجبًا ولكن قبل أن يستمر في أسئلته التي لا أعرف لها إجابة قلت له: «وديني أي مكان في العجمي وخلاص».

وصلت العجمي ووقفت مثل التائه أتلفت حولي ثم بدأت أمشي بجوار البحر أقلب وجهي في المارين من حولي لعلي أعثر عليها ثم أرفع رأسي أتفحص البنايات العالية، فلربما أراها بالصدفة تطل من إحدى هذه الشرفات المطلة على البحر، وظللت على هذه الحالة وكأنني أبحث عن طفلة تائهة، حتى أوشكت الشمس على المغيب وغلبني التعب، فبدأت أبحث عن مكان أستريح فيه قليلا حتى وجدت مقهى شعبي على جانب الطريق، فدخلت واتخذت مقعدًا وجلست وحيدًا أفكر في مصيري المجهول، وبينما أنا غارق في تفكيري، إذ تذكرت شيئًا مهمًّا لم يخطر ببالي وأنا مقدم على هذه الرحلة المجنونة، فقد حلّ الليل وأنا بلا ملجأ أو مأوى آوي إليه للراحة أو المبيت، هل سأقضي النهار والليل في البحث عن نهلة!

فكيف لم أفكر في هذه المعضلة! ولكن لا داعي للعجب فقد أصبحتُ بلا عقل يفكر أو يدبر، حتى وإن فكرت قليلًا فلا أفكر إلا فيها.

انتبهت من شرودي على صوت الصبي الذي يعمل في المقهى جاء يسألني عن مطالبي، فابتسمت في وجهه لكسب وده وعطفه ثم سألته بنبرة الراجي والمتوسل: «ممكن أطلب منك خدمة»؟

فاقترب الصبي وأنصت لطلبي باهتمام قائلًا: «آه طبعًا، إنت تؤمر».

فقلت: «أنا عايز شقة للإيجار أو أي مكان أقعد فيه يومين تلاتة».

فقال الصبي وهو يبتسم: «طلبك عندي، الحاج فاروق صاحب القهوة عنده بيت خمس أدوار.. ممكن نلاقي فيه شقة فاضية، استنى هنادي عليه تكلمه وتتفق معاه».

غاب الصبي قليلًا ثم عاد ومعه رجل ضخم الجثة يشبه في هيئته وثيابه وعمامته الحاج سعيد، ثم تأكدت أنه ليس من أهالي الإسكندرية وخاصة بعد أن جلس بجانبي، وبدأ يتحدث مع صبيّه باللهجة الصعيدية المعروفة ثم التفت نحوي وسألني باهتمام:

- «إنت منين يا بني»؟

فأجبته: «أنا من القاهرة يا حاج».

فسألني مرة أخرى: «إنت معاك حد ولا عايز شقة لوحدك»؟

فقلت: «لا والله يا حاج أنا لوحدي».

فصمت الرجل قليلًا، وكأنه كان يفكر في أمر ما، ثم قام من مكانه فجأة وأخرج هاتفه وخرج من المقهى وأجرى اتصالًا ثم عاد مرة أخرى

وجلس بجانبي وقال معتذرًا: «معلش يا بني أنا آسف، والله كان في شقة فاضية بس اتحجزت».

فشكرتُ الرجل على اهتمامه ثم حملتُ حقيبتي وهممت بالانصراف لأبحث عن ملاذ في مكان آخر، ولكن وقبل أن أعبر الطريق استوقفني صوت يناديني، فالتفتُ لأجد الرجل صاحب المقهى قد أتي خلفي مسرعًا ثم أمسك بيدي وانزوى بي إلى جانب الطريق ثم قال:

- «يا بني أنا شايفك لوحدك لا معاك مراتك ولا أولادك، يعني مش لازم شقة».

فسألته متعجبًا من كلامه: «إنت تقصد إيه يا حاج»؟

فقال: «أنا بصراحة عندي أوضتين في السطوح واحدة منهم فاضية، وإنت لوحدك يعني مش محتاج شقة ولا حاجة، ممكن تاخد الأوضة لحد ما تقضي مصلحتك هنا يومين، تلاتة، أسبوع، هاا! قلت إيه»؟

فَرِحْتُ بعرض الرجل ووافقت على الفور وشكرته على اهتمامه بي، ولكنه صمت قليلًا قبل أن يقول والحرج يظهر على وجهه:

- «والله يا بني من كلامك باين عليك إنك طيب وابن ناس، لكن متزعلش مني، أنا لازم أخد صورة من بطاقتك الشخصية».

فقدّرت موقفه وفتحت حقيبتي وأخرجت بطاقة تحقيق الشخصية الخاصة بي وقدمتها إليه مبتسمًا، فأخذها الرجل ونظر فيها وفجأة تغيرت ملامح وجهه وبدا عليه القلق والتوتر، ثم سألني متعجبًا وقد تغيرت نبرة صوته من الهدوء واللين إلى الحدة والغلظة:

- «إيه ده؟ البطاقة مكتوب فيها إنك دكتور»؟

فأجبته ساخرًا: «هو إنت مش بتسكن عندك دكاترة ولا إيه»؟

فقال متعجبًا:

- «يا بني مش القصد، بس إنت بصراحة شكلك ولبسك يعني.. متزعلش مني، أنا في الأول كنت مفكر إنك على باب الله ومحتاج مساعدة فقلت أقف جنبك وأساعدك، لكن لما شفت بطاقتك قلقت منك».

ولأول مرة منذ فترة طويلة أضحك بصوت عالٍ، ولكنه ضحك ساخر يخفي خلفه الكثير والكثير من الآلام والأحزان، فقد وصل بي الحال بعد أن أهملت في شكلي وملبسي وشعري ولحيتي أن يظنني البعض من المتسولين أو المرضى الذين يحتاجون للمساعدة، وعلى الفور سحبت البطاقة من يد الرجل ثم شكرته وانصرفت، ولكنه استوقفني مرة أخرى قائلًا:

- «يا بني استنى، أنا والله مقصدش أضايقك أو أزعلك بس بصراحة خايف تكون عامل عاملة وجاي تستخبى عندي، أو تكون البطاقة دي مش بتاعتك وتجيبلي مشكلة».

فشعرت بخوف الرجل وقلقه من غموضي فأمسكتُ بيده وقلت حزينًا:

- «يا حاج فاروق، والله العظيم البطاقة دي بتاعتي ودي صورتي، وأنا فعلًا دكتور ومفيش أي قلق أو خوف، ولو كان على لبسي وشكلي فدي ظروف وكل واحد مننا مُعرض للظروف».

فوضع الرجل يده على كتفي وقال بلطف:

- «والله أنا ارتحت لك، ومع إني حاسس إن وراك سر كبير، لكن تعالي معايا أوصلك للأوضة».

فشكرت الرجل على تقديره لموقفي وإحساسه بحالتي، ولكن قبل أن أصعد معه للغرفة استوقفته وأمسكت بيده وقلت له:

- «يا حاج فارق أنا ليا عندك طلب وأتمنى تنفذه».

فأنصت الرجل لكلامي باهتمام وقال مُرحِّبًا بطلبي: «قول يا بني اللي عندك».

فقلت: «إنت صاحب البيت ومن حقك تاخد البطاقة ومن حقك تعرف عني كل حاجة، لكن المعلومات اللي عرفتها دي أنا عايزها تكون أمانة عندك إنت بس، يعني مش عايز حد يعرف عني حاجة وخصوصًا حكاية إني دكتور».

فابتسم الرجل وقال يطمئنني:

- «اطمن يا بني، مفيش أي حد هيعرف عنك حاجة».

وصلت غرفتي مع الحاج فاروق، ولم أكن أتخيل في يوم من الأيام أن أسكن في مكان مثل هذا أو حتى أزوره لدقائق، فالغرفة لا تصلح إلا أن تكون مجرد حظيرة لتربية الطيور، فهي غرفة ضيقة ذات باب خشبي

متهالك، سقفها من الخشب ومن الواضح أن التيار الكهربي لم يصلها إلا مؤخرًا، وقد بدا ذلك واضحًا من السواد الذي غطى أجزاء كبيرة من جدرانها، وهذا يؤكد أن من سكنها قبلي كان يعتمد على المصباح القديم الذي يعمل بالزيت أو الكيروسين، أما الآن فبها مصباح كهربي صغير، كما أنها تحتوي على سريرين متهالكين ومقعد ومنضدة صغيرة، وبعد أن ألقيت نظرة على الغرفة وضعت حقيبتي الصغيرة على المنضدة ثم أخذت المقعد وجلست أمام الغرفة أتمتع بهذا المنظر الساحر، فقد كان أجمل ما في المكان أنه يطل على البحر مباشرة، وعلى الرغم من هذا السحر وهذا الجمال إلا أنه أيقظ بداخلي أحزانًا وآلامًا وهمومًا جعلتني أهجر واقعي مرة أخرى، وأقتحم عالم الخيال والذكريات، فبمجرد أن نظرت إلى البحر من هذا المكان العالي تذكرت منظر النيل في فندق «الوفا»، فالمشهدان متقاربان إلى حد كبير، ولكن الاختلاف الوحيد هنا أنها غائبة، الاختلاف الذي شوّه المنظر هنا أن الابتسامة التي كانت تسحرني والكلمة العذبة التي كانت تأسرني والقلب الطيب الصافي والحضن الدافئ قد اختفوا من هذا المشهد، فأسندت رأسي إلى جدار الغرفة وأخرجت هاتفي لأترك صوت الشيخ محمود التهامي يزيد من آلامي ودموع عيني التي انهمرت، وأنا أنظر إلى أمواج البحر المتلاطمة في ظلام الليل والتي تشبه أمواج الحزن التي تملأ قلبي:

عصـت الدمـوع وفي العيـون عنـاء

ناديتهـا شـوقًا فضـاع النـداء

يــا أيهــا الدمــع العــصي تشــققت
منــي الجفــون وحــلَّ فيهــا الــداء
فالنــوم فارقهــا وأنــت هجرتهــا
والشــوق للقلــب المحــب بــلاء
أقــضي الليــالي ســاهرًا في خلــوةٍ
عفــت الفــراش كأننــا أعــداء
تمــضي الدقائــق مُــرةً وبطيئــة
والصمــت ســاد كأنهــا بكــماء
يــا صــبر إني لا أطيقــك فارتحــل
مــا لي عــلى البعــد الطويــل عــزاء
الشــوق نــار في الضلــوع وشــوقه
تحــت الجفــون تحــسرٌ وبــكاء
تخاطــب الليــل الطويــل جوارحــي
فتجيبنــي أعماقــــه الســوداء
وتقــول صــبرًا فالأحبــة دونهــم
دربٌ بعيــد دونــــه بيــداء

وتهــزني الذكــري لأيــامٍ خلــت
مثــل الــشراع تهــزه الأنــواء
ذكـري الـذي رمـي الفـؤاد بسـهمه
فأصابنـــي وأذيعـــــت الأنبـــاء
وأصابـه سـهمي وبرحنـي الهـوي
بدمائنـــا فكأننـــــا الشـــهداء
الجــرح في القلبــين جــرح واحــدُ
ووصالنـــا لـــو تعلمـــــون دواء
إن القلــوب إذا أصيبــت بالهــوى
لا يرتجـي مــن ذا المصــاب شــفاء
فــإذا الجــراح تصاعــدت آهاتهــا
وعــلى الرمــال تجاوبــت أصــداء
فاعلــم بــأن البعــد هــم قاتــل
ودواء آهـــات القلـــــوب لقـــاء
أرض الأحبــة طــال عهــد فراقنــا
والبعــد عنــك مذلــة وشــقاء

ما غاب رسمك عن خيالي لحظةً
فأنـا الـوفي ولـن يضيـــع وفـاء
الله أعطانـــا القلـــوب هديـــةً
والحـــب في كل القلـــوب عطـــاء
هـو زهـرة العمـر السـعيد وعطرها
هـــو إن أراك ســـعادة وهنـــاء
فـإذا شـقيت فليـس مـن أفعالـه
بـــل إن ذاك مقـــــدرٌ وقضـــاء
يـا زهـرة الحـب التـي رويتهـا
إني أغنـــي والغنـــــــاء بـــكاء
الذكريـــات اليـــوم عـــاد لهيبهـــا
ليهـــز قلبـــي يـــا حبيبـــي نـــداء
أتـــراك مثـــلي ســـاهرًا يـــا ليتنـــي
وحـــدي أعـــاني مـــا أتـــاك عنـــاء
ثم بدأت أردد خلفه
إن القلـــوب إذا أصيبـــت بالهـــوى
لا يرتجـــي مـــن ذا المصـــاب شـــفاء

ثم أسأل نفسي باكيًا أتراها مثلي ساهرة تتذكر أيامنا الجميلة وسهراتنا الدافئة، أم أنها نست ما كان، ووجدتْ حضنًا آخر وأصبحتُ أنا مجرد ذكرى في حياتها؟! آآآآه يا نهلة!

ثم انتبهت من شرودي وخيالاتي فجأة على صوت يتحدث بجانبي ففتحت عيني لأجد عجوزًا يستند على عصا طويلة يرتدي جلبابًا أبيض وطاقية بيضاء وله لحية طويلة بيضاء يسألني بصوت ضعيف:

- «إنت اللي سكنت في الأوضة دي»؟

فظننته عفريتًا من الجن قد ظهر أمامي من كثرة تفكيري وأوهامي، فانتفضت من مقعدي خوفًا، فأعاد سؤاله مرة أخرى فأومأت برأسي وأنا أرتعد من الخوف فاقترب مني قليلًا وقال وهو يبتسم:

- «متخافش يا بني، أنا عمك طه اللي ساكن في الأوضة اللي جنبك».

فهدأت قليلًا وتوقفت الرعشة التي سرت في جسدي، ثم عدت إلى مقعدي أحاول التقاط أنفاسي فجلس الرجل على الأريكة الكبيرة الموجودة على سطح البيت ثم سألني وهو محافظ على ابتسامته قائلًا:

- «قولي بقى إنت اسمك إيه؟ ومنين»؟

فلم أجبه واكتفيت فقط بالنظر إليه فاستأنف أسئلته قائلًا:

- «وليه شعرك ودقنك طوال كده؟ وكمان لبسك مبهدل أوي، هو إنت شغال إيه»؟

فقلت وأنا ألتقط هاتفي وسجائري وأستعد لدخول غرفتي:

- «شوف يا عم طه، أنا لا بحب حد يكلمني ولا يسألني، لو سمحت خليك في حالك».

فقال الرجل وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

- «خليك على راحتك يا بني وأكيد هييجي اليوم اللي تجيلي بنفسك وتحكيلي كل اللي في قلبك».

دخلت غرفتي واستلقيت على فراشي ووضعت يدي تحت رأسي وظلت عيناي معلقتين بسقف الغرفة، حتى رحت في نوم عميق لم أفق منه إلا بعد ظهر اليوم التالي.

٣١

خرجت من البيت وأخذت أتجول في شوارع العجمي في رحلة جديدة للبحث عن نهلة، فلم أترك شارعًا إلا ودخلته وتجولت فيه ولم تصادفني فتاة إلا ونظرت في وجهها ولم أترك بيتًا إلا وقلبت وجهي في شرفاته أبحث وأمشي وأتجوّل حتى يصيبني التعب، فأجلس في أول مقهى يصادفني أرتاح قليلًا وألتقط أنفاسي ثم أستأنف رحلة البحث من جديد، حتى ينتهي النهار ويُقبل الليل فيصيبني اليأس من العثور عليها، فأعود إلى غرفتي محملًا بآلامي وأحزاني ثم أستسلم إلى فراشي وأنام على أمل العثور عليها في رحلة بحث جديدة في اليوم التالي.

ظللت على هذه الحالة لثلاثة أيام حتى أصابني التعب في اليوم الثالث وجلست على البحر يائسًا متعبًا أنظر إلى أمواج البحر الجميلة، وأفكر في كيفية العثور على نهلة، وبينما أنا غارق في أفكاري واحتمالاتي إذ خطرت ببالي فكرة تعجبت من أنني لم أفكر فيها من قبل، وذلك حينما بدأت أحلل

شخصية نهلة والأماكن التي من الممكن تتردد عليها، فمن خلال معرفتي بنهلة واقترابي منها أعلم جيدًا أنها لا تهوى الخروج أو حتى الوقوف في الشرفات، فمن المؤكد أن بحثي وتعبي في الأيام السابقة كان عبثًا وهباءً، إذًا فأين أجدها؟ وما الأماكن التي من الممكن أن تتردد عليها؟

من الواضح أن عقلي بالفعل قد توقف عن العمل، لأنني لو كنت فكرت ولو لدقيقة واحدة لأرحت نفسي من كل هذه المتاعب والتجول في الشوارع كمن يبحث عن طفلة تائهة، فطالبة تدرس في كل الطب هل من المعقول أن أبحث عنها في الشوارع والحواري؟

وبمجرد أن خطرتْ ببالي هذه الفكرة استوقفت سيارة وطلبت من قائدها التوجه فورًا إلى كلية الطب، فمن المؤكد ومن دون أي احتمالات أخرى أنها وبعد زواجها قد نقلت دراستها إلى جامعة الإسكندرية.

نزلت من السيارة أمام كلية الطب ووقفت قليلًا أتفقد المكان ثم تذكرت شكلي وهيئتي فابتعدت عن مدخل الكلية مسرعًا، فلو أنني على وضعي القديم بمظهري وملابسي الفخمة والعطر الذي كان يفوح منها لفتحت لي أبواب هذه الكلية ودخلتها وسط ترحيب كل من فيها بداية من عميدها وحتى أقل عامل، وسألت عنها بكل ثقة وفُتحت أمامي كل الملفات مثلما حدث في الأقصر، ولكن كيف لي الآن وأنا أشبه بالمتسولين والمختلين عقليًّا أن أقترب حتى من أسوارها؟

ابتعدت عن مدخل الكلية وأخذت أبحث عن مكان قريب يمكنني من رؤيته لأراقب الداخلين والخارج، فمن المؤكد أنها ستأتي يومًا ما، ولم يطل بحثي، فقد عثرت على مقهى في الجانب المقابل للكلية فدخلت وأخذت مقعدًا لأجلس في جانب يمكنني من رؤية المكان ولكنني فوجئت بالعامل الموجود في هذا المقهى يستوقفني بعنف قائلًا:

- «إنت رايح فين»؟

فأجبته متعجبًا من طريقته في الكلام: «هروح فين يعني! هقعد».

فجذب المقعد من يدي وقال ساخرًا:

- «هو إنت مفكره ملجأ؟ ده مكان محترم مش بيقعد فيه غير الطلبة والدكاترة، روح اشحت من مكان تاني».

وهنا أحسست أن دمي يغلي في عروقي وأنه بكلماته قد غرز سكينًا في قلبي فجذبته من قميصه أمام الموجودين حتى وقع على الأرض وصرخت في وجهه قائلًا:

- «أنا أقعد في المكان اللي يعجبني وإنت ملكش غير فلوسك وبس».

فتدخل أحد الموجودين وخلص هذا العامل من بين يدي وفضّ هذا الاشتباك ثم دعاني إلى الجلوس بجانبه أمام المقهى، وبعد أن هدأت ثورتي وزال انفعالي قال بلطف:

- «أنا صاحب المكان ده، متزعلش من العامل، هو من حقه لأن بصراحة شكلك و....».

ولكنني قاطعته قبل أن يكمل جملته التي سمعتها كثيرًا في الفترة الأخيرة وقلت منفعلًا:

- «يا عم وإنت ما لك بشكلي وهدومي، أنا حر، إنت هتقدم لي مشروب وتاخد فلوسك ولا هتناسبني»!

فتعجب الرجل من لهجتي الحادة الواثقة ثم قال مبتسمًا:

- «طيب يا سيدي حقك عليا، وعلشان أصالحك ومتزعلش مننا أنا هحاسب على المشروب بتاعك».

فرفضت عرضه بشدة، فاستجاب الرجل لرغبتي ثم تركني وانصرف.

شعرت بغيظ شديد من هذا الموقف وتعجبت من حال البشر في زماننا، فالمظاهر فقط هي المتحكمة في تصرفاتهم حتى ولو كانت مظاهر خداعة، فلو أنني دخلت هذا المقهى منذ أسبوع فقط لوقف الجميع احترامًا وتقديرًا أما الآن وبعد أن تغيّر شكلي وتبدلت ملابسي فأنا في نظرهم متسول ينفرون من شكله وهيئته.

أحسست بالضيق من المكان ومن الموجودين فيه فانصرفت أبحث عن مكان آخر، ولكنني تسمّرت في مكاني وأصابني الذهول عندما سمعت شخصًا خلفي يناديني باسمي: «دكتور أمير».. فوقفت قليلًا ثم

التفتُ لأجده صاحب المقهى قد جاء خلفي مبتسمًا حتى وقف بجواري ثم أخرج حافظة نقودي وقال بلطف:

- «واضح إن محفظتك وقعت منك وإنت بتتخانق مع العامل في القهوة».

فأخذت الحافظة وشكرته ثم انصرفت ولكنه استوقفني مرة أخرى ليسألني:

- «هتزعل مني لو سألتك إنت ليه عامل في نفسك كده»؟

فأجبته وأنا أحاول إنهاء الحديث والانصراف: «بلاش تسأل، واعتبر إنك لا عرفتني ولا شفتني».

فاستوقفني الرجل مرة ثالثة وقال راجيًا:

- «طيب أرجوك بلاش تزعل من اللي حصل، ومن النهارده تعتبر المكان مكانك وتشرفني في أي وقت».

فأجبته وأنا أنصرف:

- «لو عايزني أعتبر المكان مكاني فعلًا تعاملني زي أي واحد عادي وبلاش تقول كلمة دكتور».

فابتسم الرجل وقال وهو يودعني:

- «أوعدك والله، وهستناك بكره».

عدت إلى غرفتي حزينًا مكتئبًا بعد هذا الموقف المهين ثم جلست على مقعدي أتابع أمواج البحر وأنا في حيرة من أمري وأخذت أسأل نفسي:

ماذا حدث! وهل بالفعل فقدت عقلي وأصبتُ بالجنون كما يقول الناس، أم أنها حالة وستنتهي مع الأيام وأعود إلى بيتي وعملي؟ أشعر أن عقلي أصبح عاجزًا عن التفكير في أي شيء سوى نهلة، وذاكرتي لا تحوي إلا صورتها، وأذني لا تسمع إلا صوتها، كل حواسي أصبحت مسخّرة لنهلة فقط، فحتى ملابسي وشكلي وهيئتي لم أعد أهتم بهم، أتذكر أنني لم أر صورتي في المرآة منذ عودتي من الأقصر، حتى بيتي وعملي وأبنائي لم أعد أتذكرهم، حتى الحاج سعيد صديقي الوحيد وكاتم أسراري لم أهتم بالرد على اتصالاته التي تعدت مائة اتصال في هذا الأسبوع، فماذا حدث؟

٣٢

وعلى الرغم من أنني خبير في الأمراض النفسية وعلى الرغم من تفكيري المتواصل في حالتي لم أجد تفسيرًا لما أنا فيه، فمن الواضح أنني نسيت الطب كما نسيت كل شيء، ظللت أفكر حتى بدأت نسمات البحر الباردة تملأ المكان فدخلت غرفتي أحتمي بها من البرد القارص واستلقيت على فراشي وأغمضت عيني حتى غلبني النعاس، ولكن وبعد دقائق معدودة وبينما أنا في غفوتي، إذ شعرت بشخص يجلس بجواري ثم وضع يده على رأسي، ففتحت عيني فجأة لأجد فتاة في غاية الجمال، وجهها شديد البياض وشعرها طويل يكاد يصل إلى قدميها وعلى جبهتها حلية ذهبية تزين وجهها القمري وترتدي ثوبًا أبيض، ولكن الأغرب من ذلك أنني لم أخف منها، ولم أنتفض من مكاني، بل ظللت مستلقيًا على فراشي وكأن الصدمة قد أفقدتني القدرة على الحركة، كل ما فعلته هو أنني سألتها: «إنتي مين»؟

فأجابت بصوت هادئ: «أنا حور».

فسألتها مندهشًا: «حور مين»؟

فأجابت وهي تبتسم:

- «بلاش تتعب نفسك بالأسئلة يا أمير لأنك مش هتعرفني، لكن أنا أعرف عنك كل حاجة».

فحاولتُ أنا أسألها مرة أخرى، ولكنها وضعت يدها على فمي، ثم قالت:

- «بلاش تتعب نفسك بالكلام أنا عيزاك ترتاح، نام يا أمير وارتاح وأنا بس هقعد جنبك شوية أكلمك لحد ما تروح في النوم».

ثم أخذت تمسح بيديها الناعمتين على شعري وهي تقول:

- «أنا عارفة إنك حبيت، والحب أجمل شيء في الدنيا دي، لكن إنت تعبت واتعذبت بسبب حبك، بس أكيد هييجي يوم ترتاح، كمان عيزاك تطمن أوي وتتأكد إن نهلة مش بس بتحبك، دي بتعشقك يا أمير».

ففتحت عيني مرة أخرى وذلك عندما ذكرت اسم نهلة وسألتها:

- «هو إنتي تعرفي نهلة»؟

فأجابت وهي تبتسم: «قلت لك يا أمير أنا أعرف عنك كل تفاصيل حياتك».

فسألتها متلهفًا: «هو أنا مش هشوف نهلة تاني»؟

فقالت وهي محافظة على ابتسامتها الجميلة: «أكيد هتشوفها يا أمير».

فسألتها مرة أخرى: «إمتى هشوفها»؟

ولكنها لم ترد فكررت سؤالي أكثر من مرة حتى استيقظت من نومي في الصباح وأنا أردد نفس السؤال ثم جلستُ على فراشي وأنا في شدة الحيرة، فهل ما رأيته بالأمس كان حقيقة، أم مجرد خيالات وتهيؤات حدثت لتؤكد أنني قد دخلت في مرحلة الجنون بالفعل!

٣٣

تركت خيالاتي وأوهامي وخرجت من غرفتي قاصدًا حي الجامعة لأواصل رحلة البحث والمراقبة والتي استمرت لأسبوع كامل، وأنا أخرج في نفس الموعد وأجلس في نفس المكان وتظل عيناي معلقتين بباب الكلية ترصد الداخل والخارج، حتى ينتهي النهار وأتأكد أن الكلية قد خلت من طلابها فأغادر المقهى وأعود لوحدتي وأحزاني وأوهامي وزائرة الليل التي أصبحت رفيقة ليلي، حتى كان ذلك اليوم الذي بدأ روتينيًّا مثل سابقيه فجلست في مكاني بالمقهى من الصباح حتى أصابني الملل، فقررت أن أترك المقهى وأقوم بجولة حول الكلية لعلي أظفر بما يريح قلبي، ولكن وأثناء عبوري للطريق مرّت بجانبي سيارة فارهة لمحت بداخلها فتاة تشبه نهلة فاعتقدت بادئ الأمر أنها مجرد تهيؤات فسرتُ في طريقي، ولكن ظلت عيناي ترقبان السيارة حتى توقفتْ أمام الكلية فزادت شكوكي وتوقفتُ في منتصف الطريق حتى نزلت الفتاة، فاقتربتُ منها لأتبين ملامحها وكانت المفاجأة.

بالفعل هي نهلة، كذّبت عينيّ كثيرًا ولكنني تأكدت عندما اقتربتُ منها فأحسست بقلبي يكاد ينخلع من جانبي وبدأت الرعشة تسري في أوصالي مرة أخرى، ولكنني سيطرت على نفسي وقاومت توتري وانتظرت قليلًا حتى غادرتْ السيارة المكان، وبدأت نهلة تترجل نحو الكلية فسرتُ خلفها حتى اقتربت منها وناديتها بصوت منخفض: «نهلة..... نهلة».

فتوقفتْ والتفتتْ خلفها وقالتْ بغير اهتمام: «نعم! إنت بتنادي عليا»؟

فسألتها متعجبًا: «إنتي مش عرفاني يا نهلة»؟

فردتْ متعجبة وهي تدير وجهها عني لتواصيل مسيرها:

ـ «وأنا أعرفك منين يعني، إنت أكيد تقصد واحدة تانية».

فواصلتُ سيري خلفها حتى أصبحت المسافة بيننا لا تتعدى خطوتين ثم سألتها بصوت هامس: «طيب لو قلتلك يا نونا، هتعرفيني»؟

فتسمّرت مكانها وكأن الكلمة قد صدمتها ثم التفت والدهشة تغطي ملامحها واتسعت عيناها وظلت مذهولة للحظات ثم قالت والدموع تملأ عينيها: «معقولة! أمير؟ إنت إيه اللي جابك هنا»؟

سألتْ، ولكنها لم تمنحني فرصة الرد بل استمرت في دهشتها وأسئلتها قائلة: «وإيه اللي عمل فيك كده؟ وإيه اللبس ده؟ وليه شعرك طويل كده؟ إيه اللي حصل لك»!

سألتْ كثيرًا وتعجبتْ واندهشتْ أكثر وأكثر ولكنني كنت في عالم آخر فلم أنتبه لأسئلتها، كنت غارقًا في عينيها الساحرتين وملامحها التي أسرتني، وقفت أمامها غير مصدق أنني أراها مرة ثانية وأسمع صوتها الرنان، ثم انتبهتُ فجأة على صوتها وهي تنادي مندهشة من شرودي:

- «أمير... أمير، إنت إيه اللي جرالك»؟

فلم أنتبه لسؤالها وقلت مبتسمًا: «فاكرة يا نهلة أول مرة اتقابلنا في فندق الوفا»؟

فقالت وهي تتلفت حولها من شدة القلق:

- «أمير، الكلام ده راح لحاله خلاص، مالوش لازمة دلوقتي».

فأشفقتُ عليها من التوتر الذي بدا عليها والرعشة التي ملأت صوتها، فطلبت منها رقم هاتفها حتى أعفيها من هذا الخوف على أن نستكمل حديثنا في وقت آخر، فرفضتْ في بادئ الأمر ثم وافقتْ بعد إلحاحي في طلبي وأخرجتْ ورقة من حقيبتها، وقالت وهي تكتب الرقم: «والله العظيم أنا بكتب لك الرقم لأني مش عايزة أرفض لك طلب، لكن متزعلش مني لأني مش هقدر أرد عليك لو اتصلت».

وبينما هي منشغلة بكتابة الرقم إذ لمحتُ نصف القلب الذي أهديته لها في آخر لقاء بيننا في الأقصر مازال يزين صدرها، فسألتها وأنا في قمة سعادتي: «إنتي لسه شايلة قلبي يا نهلة»؟

فأجابتْ مرتبكة وبتصوت مرتعش:

- «قلت لك يا أمير الكلام ده خلاص مبقاش له لازمة دلوقتي».

وبعد أن أعطتني رقم الهاتف وأدارت وجهها لتنصرف التفتتْ مرة أخرى وقالت راجية ومتوسلة:

- «أمير، لو لسه ليا خاطر عندك، ارجع لبيتك وأولادك وحاول تعيش».

فقلت مبتسمًا والدموع تملأ عيني:

- «أحاول أعيش! أنتي من يوم سبتيني يا نهلة وأنا بحاول أموت ومش عارف»!

فوقفتْ ساهمة للحظات حتى انهمرت الدموع من عينيها ثم انصرفت مسرعة.

عدت إلى مكاني في المقهى مرة أخرى بمشاعر وأحاسيس متباينة، فلا أعرف، هل عليَّ أن أفرح لأنني رأيتها مرة أخرى بعد أن يئست من ذلك، أم أحزن بعدما لاحظته من تغير في أسلوبها وطريقة كلامها معي، حتى إن كلامي الذي كانت تفرح به من قبل أضحت لا تتقبله، وقربي منها أصبح جريمة تخشى عواقبها! فسحقًا لهذا الزمان وتقلباته التي تعصف بكل شيء وتقلب كل الأوضاع رأسًا على عقب، فمن يصدق أن نهلة التي كانت تسهر طوال منتظرة اتصالي والذي كان يصلها في الغالب بعد أذان الفجر وبعد أن أنتهي من عملي، نهلة التي كانت تحفظ مكالماتي الصوتية على هاتفها لتعيدها على مسامعها آلاف المرات لتتمتع بصوتي وكلماتي، نهلة

التي كانت ترى أن أقسى عقاب لها أثناء غضبي هو حرمانها من مكالماتي وصوتي، الآن وبعد أن عبث القدر بكل ما كان تتحرج من الحديث معي ويصل بي الحال إلى أن تعطيني رقم هاتفها شقفة على حالي، فماذا تريد أيها القدر!؟ فلو أنك عدوّي اللدود لأشفقت على حالي، ولكن من الواضح أنك تستمتع بإذلالي وتتلذذ بالانتقام من جانٍ، جريمته الكبرى في الحياة والذنب العظيم الذي اقترفه هو الحب..

٣٤

بعد تفكير عميق في هذه المقابلة قررت أن أبقى مكاني حتى تخرج من الكلية لأتابعها وأعرف مكان إقامتها، وبالفعل بعد حوالي ساعتين عادت السيارة الفارهة مرة أخرى فاستوقفتُ سيارة من سيارات الأجرة وبمجرد أن خرجت نهلة وتحركتْ بها سيارتها أمرت قائد السيارة التي استأجرتها أن يتبعها، وكانت دهشتي لا توصف عندما توقفت سيارتها واكتشفت أنها تسكن في نفس الشارع الذي أسكنه، وأنها تقيم في بناية من البنايات الفخمة التي تبعد عن البيت الذي أسكنه بحوالي مئة متر فقط، فنزلتُ من السيارة وترجلتُ نحو البحر أفكر قليلًا ثم التفت خلفي لألقي نظرة على هذه البناية الفخمة والحراس الغلاظ الذين يقفون أمامها، ثم عدت لذكرياتي مرة أخرى فتذكرت نظرتها لي من نافذة سكن الطالبات بالأقصر وهي تودعني بابتسامتها الساحرة، ثم سألت نفسي متحسرًا، هل تنظر نهلة من نافذة هذه البناية وتمتعني بابتسامتها مثلما فعلتْ في سكن

الطالبات؟ ولكن هيهات! فمن الواضح أنها تعيش تحت حصار كبير، ويبدو ذلك جليًّا من السيارة الفارهة التي ترافقها وأفراد الأمن الغلاظ المتواجدين أمام هذه البناية، ونبرة صوتها المرتعشة التي تحدثت بها معي أمام الكلية أيضًا تؤكد ذلك.

غادرتُ المكان بعد أن أصابني اليأس من رؤيتها مرة أخرى وعدتُ إلى غرفتي حزينًا متعبًا، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها غرفتي في النهار فأغلقت بابها واستلقيت على فراشي وأغمضت عيني لأرتاح ولو لساعة واحدة، ولكن ما هي إلا دقائق قليلة حتى شعرت بنفس اليد توضع على رأسي مرة أخرى ففتحت عيني لأرى (حور) تجلس بجانبي وتقول بابتسامتها المعتادة:

- «ارتحت شوية لما شفتها يا أمير»؟

فأجبتها والحزن يعتصرني:

- «والله ما عارف إن كنت ارتحت ولا تعبت أكتر، نهلة حسستني إني إنسان غريب عنها يا حور، لا قابلة كلامي ولا نظراتي ولا حبي، وصدقيني مش عارف إن كانت فرحتْ لما شافتني ولا اتضايقت».

فقالت وهي تداعب شعري:

- «معلش يا أمير، لازم تعذرها، وخليك فاكر كلامي اللي قلته المرة اللي فاتت، نهلة بتعشقك، لكن الظروف اللي فيها صعبة أوي».

فقلت متلهفًا: «إنتي المرة اللي فاتت وعدتيني إني أشوفها وفعلًا كلامك اتحقق، دلوقتي أنا عايزك تودديني عندها، إنتي أكيد تقدري تعملي كده».

فقالت وقد ازدادت ابتسامتها: «هخليك تروح عندها يا أمير بس مش دلوقتي».

فسألتها باهتمام: «إمتى هتوديني عندها»؟

ولكنها لم ترد كعادتها في نهاية كل حوار، فكررتُ سؤالي مرة أخرى حتى أفقت من غفوتي فجأة لأراها تخرج من الغرفة، فانتفضت من فراشي وأسرعت لألحق بها، ولكنني لم أجدها ولم أر أمام الغرفة إلا الرجل العجوز عم طه يجلس على أريكته الكبيرة فاتجهت نحوه مسرعًا وسألته بصوت عالٍ:

- «راحت فين؟ راحت فين»؟

فسألني الرجل وهو مندهش من حدتي في الكلام:

- «هيا مين يا بني اللي بتسأل عنها»؟

- «حور، دي لسه خارجة من أوضتي حالًا».

فأجابني الرجل متعجبًا: «يا بني والله ما في حد خرج من أوضتك».

فجلست على أريكته ووضعت يدي على رأسي ولم أستطع أن أغالب دموعي، فجلس الرجل بجانبي وأسند رأسي إلى صدره ووضع يده على رأسي وأخذ يقرأ آيات من القرآن الكريم ثم قال برفق:

- «ما لك بس يا بني، اتكلم، فضفض، قول اللي جواك واعتبر إنك بتكلم نفسك».

ارتحت كثيرًا للعم طه ولم أستطع أن أقاوم لطفه وحنانه فتخليت عن صمتي وأخذت أحكي قصتي والدموع تسيل على خدي، وهو منصت لكل كلمة تخرج من فمي حتى انتهيت، فصمت الرجل قليلًا ثم قام واتجه نحو سور السطح وألقى نظرة على البحر وأمواجه المتلاطمة ثم عاد والدموع تملأ عينيه وأمسك بيدي وقال راجيًا:

- «قوم يا أمير، خد حاجتك من الأوضة وارجع لبيتك وعيالك وشغلك».

فقلت والحزن يعتصرني: «مش قادر أبعد عنها يا عم طه».

فتغيّر وجه الرجل واقترب مني كثيرًا وأمسك يدي بقوة وأخذ يقول بنبرة حادة وهو يبكي:

- «امشي من هنا وارجع لعيالك، اسمع كلامي وامشي، المكان ده ملعون، اللي بيدخل هنا بيكتب نهايته بإيده، الحق نفسك وارجع».

فاندهشتُ من كلامه الغريب، ولكنه لم يتح لي فرصة الرد واستأنف كلامه وقد ازدادت دموعه قائلًا:

- «أنا مش عايزك تغلط نفس غلطتي، أنا سيبت بيتي وعيالي وهربت زيك من أربعين سنة، شبابي وعمري ضاعوا هنا وأنا

بجري ورا أمل كداب، كبرت وعجزت هنا وعارف ومتأكد إني هموت هنا على السطح ده وفي الأوضة دي، ويمكن لما أموت ملاقيش حد يدفني، ارجع يا بني قبل ما تلاقي نفسك عجّزت وضيعت مستقبلك وشبابك وعيالك ووقتها مش هتلاقي غير عصاية زي دي تتسند عليها».

أنهى الرجل كلامه ثم دخل غرفته ليتركني وحيدًا حائرًا مع الفكر الذي أوشك أن يدمر عقلي، ثم انتبهت فجأة على صوت هاتفي فنظرت فيه لأجد اتصال جديد من الحاج سعيد، ولكنني لم أرد كعادتي في الفترة الأخيرة، فأرسل رسالة يطالبني فيها بالرد لأمر مهم، فاضطررت للرد خوفًا من أن يكون أحد أبنائي قد أصابه مكروه ودار بيننا الحوار التالي:

- «إنت فين يا أمير؟ وليه خرجت من البيت من غير ما تقولي»؟

فأجبته: «لما أرجع إن شاء الله هحكي لك كل حاجة».

فقال غاضبًا: «أنا مش هستنى لما ترجع، أنا عارف إنك في الإسكندرية، إديني عنوانك بالتفصيل وبكره هكون عندك».

فقلت محاولًا إقصاءه عن فكرته: «متتعبش نفسك يا حاج، أنا هرجع قريب إن شاء الله».

فقال وقد ازداد غضبه: «أقسم برب العزة لو ما قلت عنوانك بالتفصيل لأروح قسم الشرطة حالًا وأبلغ عن غيابك وأسلمهم صورتك ينشروها في كل الجرايد وتبقى فضيحة في الدنيا كلها».

وكعادته وبأيمانه المغلظة لم يتركني الحاج سعيد إلا بعد أن أعطيته عنواني بالتفصيل وانتهت المكالمة بيننا ودخلتُ غرفتي محاولًا النوم ولكن كيف ينام من امتلأ عقله بالأفكار والأوهام! وكيف ينعم بالراحة من امتلأ قلبه بالهموم والأحزان! خاصمني النوم في هذه الليلة فخطرت ببالي فكرة أعجبتني، وكانت حلًّا مثاليًّا لوحدتي الكئيبة وكانت الفكرة هي استكمال ما كتبته في الرواية التي وعدتُ بها نهلة والتي اتفقنا سويًّا على أن نطلق عليه اسم «مجنون نهلة»، وعلى الفور أحضرت أقلامي وأوراقي وبدأت أكتب وأصف كل ما دار بيننا منذ بداية علاقتنا، كل كلمة وكل همسة وكل ابتسامة، كل ذكرى جميلة بيني وبينها، كل لقاء شهد على حبنا وأشواقنا ولهفتنا وكل وعد قطعناه على أنفسنا للحفاظ على هذا الحب، وكل دمعة اكتوت بها ضلوعي وقت الفراق، ظللت أكتب وأكتب حتى انتبهت لأذان الفجر وقد نال مني التعب كل منال فاستسلمتُ لفراشي ورحت في نوم عميق.

٣٥

استيقظت من نومي في اليوم التالي بعد أن انتصف النهار فخرجت من غرفتي مسرعًا، ولكنني لم أتجه كعادتي إلى حي الجامعة ومكاني في المقهى فقد تغيّر النظام اليومي بعد أن قابلتها وعرفت سكنها فتوجهت مباشرة إلى البحر وجلست في المكان المواجه لشرفتها، لعلي أراها وهي متجهة إلى الجامعة أو تفتح هذه الشرفة فأظفر بنظرة من عينيها الساحرتين، وبينما أنا في هذه الحالة من المتابعة والمراقبة إذ انتبهت فجأة لصوت سيارة من سيارات الشرطة تأتي من بعيد وتستقر أمام بيتها، وبدأ أفراد الشرطة المتواجدون أما البيت يتحركون حركة غريبة تدل على استعدادهم لشيء ما، وبعد دقائق قليلة وقف الجميع في صمت تام رافعين أيديهم تحية لهذا الرجل الذي نزل من البناية الفخمة يرتدي الزي الشرطي ثم استقل السيارة وانطلقت به وعاد المكان لهدوئه مرة أخرى.

تأكدت بعد هذا الموقف أن هذا الرجل الشرطي هو المغتصب الذي اغتصب حلمي وقتل حبي وحكم عليَّ أن أقضي ما تبقي من عمري في حزن وشقاء، وكم تمنيت في هذه اللحظات أن أصل إليه فأمزّق جسده بأسناني وأنتقم لقلبي وحبي، ولكن كيف لي وأنا في عداد المتسولين أن أقترب منه وسط هذه الحراسة المشددة!

خرج هذا النذل من بيته فانتهزت هذه الفرصة وأخرجت هاتفي واتصلت بنهلة التي ردت والقلق يسيطر على نبرة صوتها:

- «ألو، مين بيتصل»؟

فقلت: «أنا أمير يا نهلة».

فسألتني: «إنت بتتكلم منين يا أمير»؟

فقلت: «أنا بكلمك من تحت بيتك».

فصمتت قليلًا ثم فتحت الشرفة المطلة على البحر، وكأنها كانت تتأكد من صدق كلامي، ثم قالت وقد ازداد قلقها وتوترها: «أرجوك يا أمير، امشي من هنا بسرعة».

فسألتها متعجبًا من موقفها: «إنت اتضايقتي لما شوفتيني يا نهلة»؟

فقالت بصوت خنقته الدموع:

- «يا أمير إنت مش بتغيب عن عيني أصلًا، وحياة ربنا أنا مش بس بحبك، ده أنا أتمنى تراب رجليك، لكن أنا خايفة عليك أوي، كفاية اللي حصل لك بسببي، امشي يا أمير إنت مش عارف أي حاجة، أنا عايشة هنا في نار وعذاب، امشي يا أمير علشان خاطري».

فقاطعتها قائلًا: «أجمل حاجة حصلت من يوم ما بعدتي عني إني سمعت منك كلمة بحبك تاني».

ثم سألتها: «خلاص يا نهلة مبقتيش تحبي تسمعي مني كلمة «بحبك يا نونا»»؟

فردت وقد ازدادت دموعها:

- «أي بنت في الدنيا تتمنى حبيبها يكون مخلص لحبها، لكن بعد ما شفتك قدام الكلية اتصدمت من اللي حصل لك بسببي، وبيني وبين نفسي قلت يا ريتك كنت خاين يا أمير، يا ريتك كنت كداب في حبك ليا، يا ريتك كنت بتضحك عليا علشان تنساني بسرعة وتحب غيري واحدة واتنين وعشرة وتعيش حياتك».

صمتت نهلة قليلًا لتلقط أنفاسها ثم استأنفت حديثها قائلة:

«لما شفتك قدام الكلية صدقت كل كلمة كنت بتقولها، صدقتك لما كنت بتقولي زمان يا ريتني كنت بارد، يا ريتني بعرف أنسى، كنت مفكراك بتبالغ يا أمير، وكمان أكتر حاجة اتأكدت منها إنك فعلًا زي ما قلتلك زمان إن ملامحك ومواقفك بتقول إنك راجل أوي لكن جواك طفل بريء أووووي».

كنت أستمع لكلماتها وعيناي المتعلقتان بشرفتها يسيل منهما الدمع كالجمر يحرق قلبي ويكوي ضلوعي، وكم كنت أتمنى أن أصرخ بكل

ما أوتيت من قوة لأخرج ما بأحشائي من نيران هي أشبه ببركان كامن يتحين الفرصة للانفجار ليحرق الكون بأكمله بحممه الملتهبة.

انتهت نهلة من حديثها ولكنني وقبل أن أغادر المكان رجوتها أن تقف في شرفتها ولو للحظات حتى أراها فلعل رؤيتها تخفف آلامي وتهدئ ثورتي، فاستجابت لطلبي ولكنها قالت وهي تبكي:

- «حاضر يا أمير، مقدرش أرفض لك طلب، لكن علشان خاطري ريحني وبلاش تقف في المكان ده تاني، أنا خايفة عليك أوي».

وقفت نهلة في شرفتها ورأيتها وظلت عيناي معلقتين بعينيها الباكيتين حتى غادرتُ المكان.

٣٦

عدت إلى البيت وما زالت كل كلمة من كلمات نهلة تتردد في أذني وأخذت أسأل نفسي:

هل هذه هي نهاية رحلة حبي التي بدأتها بالأمنيات السعيدة والأحلام الوردية!

هل يكون الانسحاب هو الحل الأمثل والآمن!

هل أتخلى عن حبي وأمثل دور الشاب المثالي الذي يُضحي بحبه وينسحب من المشهد متمنيًا لحبيبته السعادة في أحضان رجل آخر!

هل أعود إلى القاهرة لأعيش على الذكرى التي تفرحني حينًا وتحزنني آخر!

وبينما أنا غارق في تفكيري إذ فوجئت بعم طه يستقبلني على سطح البيت ليخبرني بأن هناك شخصًا ينتظرني في غرفتي، ومن دون تفكير تأكدت أنه الحاج سعيد قد جاء كما قال بالأمس، وبمجرد أن دخلت

غرفتي انتفض الرجل من مكانه مصدومًا ووقف يحملق في شكلي وملابسي ويقلب وجهه في أرجاء الغرفة ثم سألني: «إنت أمير»؟

فقلت وأنا أجلس على مقعدي: «إزيك يا خالي».

فقال وقد ازدادت دهشته: «خالي! إنت اتجننت يا أمير»؟

فصرختُ في وجهه معترضًا على سؤاله الأخير: «إنت كمان هتقول عليا مجنون»؟

فأجاب منفعلًا: «أيوه اتجننت، إيه الهدوم اللي إنت لابسها دي؟ وإيه شعرك ده اللي عامل زي شعر المتسولين والمجانين، وإيه الأوضة المعفنة دي اللي قاعد فيها؟ حتى كلامك اتغير، ده إنت أول مرة في حياتك تقولي يا خال».

فلم أرد واكتفيت بالصمت ووضعت يدي على خدي وأخذت أنظر إليه فاستأنف حديثه قائلًا:

- «الدكتووور أمير الباهي اللي كان بيشتري هدومه من أفخم المحلات في العالم كله، اللي كنا بنعرف إنه وصل من ريحة الرفيوم بتاعه، اللي كان بيغير عربيته مرتين في السنة، عايش في أوضة على السطوح ودايرٍ في الشوارع زي المتسولين»!

فقمتُ من مكاني متجهًا إلى السطح فجذبني من قميصي وأقعدني في مكاني مرة أخرى وهو يصرخ قائلًا:

«اقعد هنا ورد عليا، وإووعى تقول إنه حب، ملعون أبو الحب اللي يعمل فيك كده، أنا زمان قلتلك إنه سحر، لكن لأ، ده مش سحر ولا حب، ده وضع أنا مش عارف أوصفه، اللي يخلي واحد زيك يسيب بيته وشغله وولدين زي القمر وفلوس ملهاش عدد في كل البنوك وشهرة في العالم كله وييجي يعيش فوق السطوح ويلبس هدوم مقطعه ويمشي في الشوارع والناس تقول عليه مجنون، عايز تقولي إن ده حب»؟!

سكت الحاج سعيد لينتظر ردي ولكنني لم أرد فازدادت ثورته واستأنف كلامه قائلًا:

«يا أخي لو مش عجباك مراتك، عادي براحتك، ارجع معايا يا أمير وشاور على أي بنت في مصر كلها وأنا هخليك تتجوزها في أقل من أسبوع».

وهنا تخليت عن صمتي وصرخت في وجهي باكيًا:

«أشاور! ما أنا شاورت وحكيت وقلت لك بحبها، ومش قادر أعيش من غيرها، طلبت منك واتحايلت عليك إنك تيجي معايا يمكن تأثر على أبوها وتخليه يوافق، عملت إيه وقتها يا خال؟ رفضت وسبتني لوحدي أسافر وأترفض واتبهدل، جاي دلوقتي تقولي شاور! أنا مش بس شاورت ده أنا صررخت ومسمعتنيش، كلكم كنتوا مغرورين باللبس والفلوس والعربيات والمظاهر الكدابة ومفكرين إني عايش في الجنة، مفيش حد كان حاسس بحالي، كلكم كنتوا مفكرين أني أسعد إنسان في الدنيا وأنا عمري ما شفت السعادة ولا أعرف معناها، ودلوقتي يا خال

أنا خلاص مش عايز فلوس ولا لبس ولا عربيات، سيبت لكم كل حاجة وجيت هنا أدور على سعادتي، وحتى لو ملقتهاش أنا هموت هنا على حقيقتي وحيد وحزين لحد ما الناس تقول ده ارتاح لما مات، أحسن ما أرجع معاك وأموت وسط الفلوس والشهرة والعظمة والمظاهر الكدابة اللي بتخدع الناس».

سكت الحاج سعيد وكأنه أحس بذنبه ثم اقترب مني واحتضنني بقوة وقال وهو يبكي:

- «طيب لو مش هترجع لشغلك وعيادتك وفلوسك، ارجع علشان ولادك، الحسن والحسن يا أمير، ده إنت روحك فيهم».

فقلت ودموعي تسيل على وجهي:

- «خلاص يا خال، مبقتش الإنسان اللي ولاده يفتخروا به، خليهم يشوفوا صوري لما يكبروا ويفتخروا ويتباهوا بالدكتور أمير الباهي أكبر دكتور أمراض نفسية وعصبية في مصر والوطن العربي، خليهم يحبوا الصورة لأنهم لو شافوا الأصل دلوقتي مش بعيد إنهم يتبرّوا مني».

جلس الحاج سعيدًا ينظر في وجهي والحسرة تملأ عينيه ثم قام واتجه نحو الباب وقال وهو يغادر:

- «أنا هسيبيك يومين تلاتة تراجع نفسك يا أمير، وإن شاء الله هرجع لك تاني، لكن المرة الجاية مش هرجع القاهرة غير وإنت معايا».

ثم خرج من الغرفة ليغادر المكان فخرجتُ خلفه واستوقفته على سطح البيت قائلًا:

- «ليا طلب عندك يا خال، لما الحسن والحسين يكبروا قول لهم إن أبوكم كان بيحبكم أوي وكان نفسه يسعدكم لكن سابكم تسعدوا نفسكم، لأن هو نفسه معرفش يكون سعيد في حياته».

٣٧

غادر الحاج سعيد المكان وتركني لأقضي ليلة لم تختلف عن سابقيها في الحزن والألم والدموع، وفي اليوم التالي وعلى الرغم من أنني حاولت كثيرًا تلبية رغبة نهلة في عدم الاقتراب من بيتها إلا أنني لم أستطع مقاومة لهفتي عليها وشوقي الذي لا ينقطع، فاتجهت مباشرة إلى مكاني على البحر وجلست قليلًا أتأمل البحر وأمواجه ثم أخرجت هاتفي لأتصل بها، ولكن وقبل أن أتم الاتصال انتبهت ليد توضع على كتفي فالتفتُ خلفي لأجد أحد رجال الأمن يأمرني بالتوجه معه إلى سيارة الشرطة التي كانت متواجدة على الجانب الآخر من الطريق، أعدت هاتفي إلى جيبي وانصعت لأمره في هدوء حتى وصلنا إلى السيارة التي كانت ممتلئة بالمتسولين والجناة فركبت معهم واتجهتْ السيارة إلى قسم الشرطة، وفي القسم أمر الضابط المسئول بعمل محاضر للجميع والتحفظ علينا لحين العرض على النيابة في الصباح، ولكنني فوجئت بفرد الشرطة الذي قبض عليَّ يميل إلى الضابط

ويهمس إليه في أذنه وهو يشير إليَّ فقال الضابط وهو ينظر نحوي: «طيب اركنه في أي أوضه لحد ما يوصل شريف باشا».

فجذبني العسكري من قميصي وأدخلني غرفة صغيرة ليس بها إلا منضدة فجلست على الأرض واضعًا رأسي بين كفيَّ أفكر في مصيري، فلا شك أن وجودي هنا ليس طبيعيًّا، فلو أن القبض عليّ حدث بالصدفة مثلما يحدث مع أي متسول أو مختل لتم تحرير محضر باسمي وحالتي ولدخلت غرفة الحجز مع باقي المقبوض عليهم، ولكن وبعد همسة العسكري في أذن الضابط الذي رفض حتى تحرير محضر بحالتي تأكدت أن وجودي هنا بأمر من ذلك النذل المغتصب الذي قتل حلمي ودمّر حياتي بأكملها.

وبينما أنا غارق في أفكاري إذ فُتِح الباب فجأة لأجده واقفًا أمامي، هو نفسه ذلك الضابط الكئيب الذي لمحته بالأمس يخرج من البيت الذي تسكنه نهلة، لم أقف من مكاني بل ظللت أنظر إليه بعينين يملؤهما الغضب والغيظ، فوقف قليلًا ثم خرج مرة أخرى وأحضر مقعدًا وجلس بالقرب مني وأخذ يقلب وجهه في ملامحي وملابسي ثم قال وقد استقرت عيناه في عيني:

- «فين بطاقتك»؟

لم أرد عليه ولم أحول نظري عن عينيه، فنادى أحد أفراد الشرطة المتواجدين بالخارج وأمره بتفتيشي وبالفعل أخذ العسكري يقلب في ملابسي فلم يجد إلا هاتفي، فأخرجه من جيبي وسلمه إليه، فأمسك بهاتفي وسكت قليلًا وكأنه كان يفكر في أمر ما ثم قال وهو ينظر في هاتفي متعجبًا:

- «معقول تكون شحات وإنت شايل أحدث تليفون في مصر»؟

فاستمر صمتي واستمرت نظراتي له ولكن بداخلي صرخات مدوية لو أنني في مكان آخر غير هذا لاستجبت لها وفتكت به انتقامًا لحلمي الذي قضى عليه.

ومن الواضح أن نظراتي القوية قد أثارت اندهاشه فاستمر في تكهناته قائلًا:

- «طيب لو مش شحات، يمكن تكون مجنون، لكن نظراتك دي مش نظرات واحد مجنون أبدًا».

ثم قال وهو قد اقترب أكثر حتى مال برأسه عليّ وأنا جالس على الأرض:

- «قالولي إنك دايمًا واقف تحت بيتي، ممكن أعرف السبب»؟

وعندما يئس من حالتي وصمتي الغريب سألني مرة أخرى وقد علا صوته:

- «هو إنت أخرس ولا إيه؟ أنا أقدر أخليك تتكلم بطريقتي».

ثم رفع يده ليصفعني على وجهي، وكأنه كان يختبر قوة أعصابي ولكنني لم أحرك ساكنًا ولم تتحول عيني عن عينيه، فأعاد يده مرة أخرى وقال وهو يسلمني هاتفي:

- «أنا واثق ومتأكد إنك لا شحات ولا مجنون، وإن وقوفك تحت بيتي وراه لغز كبير، لكن على العموم أنا مش هعمل لك محضر ولا هحبسك، أنا هفترض إنك فعلًا مجنون وهسيبك تروح لحالك».

خرجت من قسم الشرطة مشتتًا، فلم يعد تفكيري منصبًا فقط على نهلة وشوقي لها بعد أن أقحم هذه النذل نفسه في المشهد، كما أن الشيء الوحيد الذي كان يريحني ويصبرني على ما أنا فيه وهو رؤية نهلة من شرفتها أصبح مستحيلًا بعد موقف اليوم، فمن المؤكد أنه قد أصدر أوامره لأفراد الأمن المتواجدين أسفل البيت بالقبض عليَّ بمجرد رؤيتي في المكان، أصبحتْ الأمور أكثر تعقيدًا، فحتى رؤيتها عن بُعد أصبحت مستحيلة، فهل أعود لمقعدي في المقهى المقابل للكلية مرة أخرى لأتمكن من رؤيتها بعيدًا عن بيتها وأفراد الأمن المتربصين أسفله! ووسط هذه الأفكار وتلك الأسئلة التفتُ خلفي فجأة لأجد أحد الأشخاص يتبعني منذ خروجي من القسم، فتأكدت أن هذا النذل لم يتركني شفقة منه أو رحمة بل تركني ليتابع كل تحركاتي ويصل لحل اللغز الذي حيّره وهو يتحدث معي.

عدتُ إلى سطح البيت وجلست على مقعدي حزينًا مهمومًا أتأمل البحر وأمواجه وأفكر في حل لهذه المعضلة التي لم تكن في الحسبان، ثم أشعلت سيجارة وأمسكت بهاتفي أبحث عن أنشودة من أناشيد الشيخ محمود التهامي، ولكن استوقفني صوت أقدام تصعد السلم فانتظرت قليلًا لأتبين القادم، وما هي إلا لحظات وظهر الحاج فاروق صاحب المنزل والذي لم أره منذ أن استأجرت هذه الغرفة، جلس الرجل أمامي بعد أن ألقى السلام ولكنه ظل صامتًا فأحسست أنه يُخفي شيئًا، خاصة أنني لم أعتد رؤيته على سطح المنزل منذ قدومي، فمن المؤكد أنه جاء لأمر مهم، فسألته لأزيل هذا الغموض: «في حاجة يا حاج فاروق»؟

فأجاب الرجل وهو يداعب لحيته بيده: «والله يا بني مش عارف أقول لك إيه».

فطلبت منه أن يتحدث دون حرج أو قلق فقال: «بصراحة يا بني إنت من يوم ما سكنت عندي مشفتش منك حاجة وحشة، لكن أنا مش بحب المشاكل ولا الشرطة ومتاعبها».

فسألته وأنا متوقع الإجابة: «خير يا حاج، مشاكل إيه وشرطة إيه»؟

فقال متوترًا: «في واحد زارني في القهوة من شويه وقال إنه مخبر من الشرطة، وسألني عنك وصمم إنه ياخد صورة البطاقة بتاعتك، وأنا يا بني من خوفي مقدرتش أرفض».

فقلت بعد أن تنهدت تنهيدة طويلة: «وإيه المطلوب مني يا حاج»؟

فنظر الرجل إلى الأرض وبدا على وجهه الحرج، ولكنني قدّرت موقفه ورفعت عنه هذا الحرج قائلًا:

- «ولا يهمك يا حاج فاروق، أنا حاسس بيك وهريحك من المشاكل دي وهسيب الأوضة، بس لو سمحت سيبني يومين بس أدبر حالي وأشوف مكان تاني».

فقال الرجل بصوت حزين: «سامحني يا بني، والله غصب عني».

وبالفعل، المصائب لا تأتي فرادى، أصبحتْ رؤية نهلة مستحيلة، وحتى التواجد في الشارع الذي تسكنه أصبح مستحيلًا، وأصبحت كل تحركاتي تحت المراقبة، وكأن كل شيء يرفض وجودي، حتى هذه الغرفة المتواضعة أصبحت مطالبًا بتركها والبحث عن مكان آخر، أغلقتْ كل

الأبواب في وجهي واسودت الدنيا في عيني.. ولكن وسط هذه الأحزان والآلام انتبهت فجأة لصوت رسالة تصل إلى هاتفي ففتحته لأتبين المرسل ففوجئت بنهلة قد أرسلت رسالة وقعت على قلبي كالنسمة الرقيقة في حر الصيف، وكان مضمون الرسالة فقط «أنا بحبك يا أمير» فقمت بالرد عليها والابتسامة تملأ وجهي «وأنا بعشقك يا نونا».

دخلت غرفتي فرحًا بعد هذه الرسالة التي شجعتني على استكمال ما كتبته في روايتي، وظللت أكتب حتى شعرت بالتعب قبيل أذان الفجر فأسندت رأسي إلى المنضدة، وأغمضت عيني وكعادتها في الليالي الأخيرة وجدتها تضع يدها على رأسي ففتحت عيني مرة أخرى ولم أتكلم بل بدأت دموعي تسيل على وجهي، فقالت وهي تبتسم ابتسامتها الملائكية:

- «عارفة إنك تعبت يا أمير، وعارفة إن اللي إنت فيه ده كتير عليك أوي»

فقلت باكيًا: «لما هيا مش من نصيبي ليه قابلتها وحبتها يا حور»؟

فقالت وهي تداعب شعري:

- «دي أقدار يا أمير ومكتوبة علينا ولازم نعيشها، سواء أكانت حلوة أو مرة، وإنت أكيد بعد التعب ده لازم هترتاح».

فسألتها متلهّفًا: «وإمتى هرتاح»؟

ولكنها لم ترد فظللت أكرر سؤالي حتى أفقت من نومي في الصباح وأنا أكرر سؤالي، ولكنني لم أجدها أمامي بل استيقظت مذعورًا من أفراد الشرطة الذين تجمعوا حولي وازدحمت بهم غرفتي ثم اقتادوني بالقوة إلى قسم الشرطة مرة أخرى.

٣٨

وصلتُ قسم الشرطة ودخلتُ نفس الغرفة وجلستُ في نفس المكان، ولكن الاختلاف الوحيد هذه المرة أنهم أصرّوا على تقييدي فربطوا يدي خلف ظهري بالقيود الحديدية، وجلست على الأرض مقيدًا حتى وصل هذا النذل، فوقف قليلًا ينظر إليَّ وعيناه تمتلئان بالشر والحقد ثم جلس أمامي على مقعده بعد أن أغلق باب الغرفة وأخرج ورقة طويلة من جيبه وأخذ يتلو محتوياتها ساخرًا:

- «أمير شهاب الباهي، خمسة وتلاتين سنة، حاصل على شهادة الطب وماجستير من جامعة القاهرة، حاصل على دكتوراه في الأمراض النفسية والعصبية من كبرى جامعات إنجلترا، ويُعتبر من أكبر وأشهر أطباء الأمراض النفسية والعصبية في مصر والعالم العربي».

ثم توقف قليلًا ونظر في عيني التي لم تتحول عن وجهه ثم استأنف ما يقرؤه قائلًا:

«يمتلك شقتين وعيادة في أفخم أحياء القاهرة وسيارتين من أحدث السيارات التي دخلت مصر في الفترة الأخيرة، متزوج وله ولدان توأم (الحسن والحسين) عمرهما ثلاث سنوات».

ثم توقف مرة أخرى ووضع الورقة على المنضدة وسألني وهو يبتسم ابتسامة ساخرة:

«بما إنك خبير في تحليل الشخصيات، إيه اللي يخلي واحد يسيب العز ده كله ويبجي هنا يعيش عيشة الشحاتين»؟

لم أرد عليه والتزمت الصمت كعادتي في المرة السابقة وظللت أنظر في وجهه بحقد وغيظ شديدين، فقال وهو ما زال على سخريته القبيحة:

- «أهو إنت دكتور وخبير ومعرفتش الإجابة، إنما أنا من غير دراسة ولا ماجستير عرفتها، متهيألي ممكن يكون الحب هو اللي يبهدل الإنسان كده يا دكتور»؟

ثم اقترب منّي أكثر وقال هامسًا:

- «يمكن يكون حب بنت، والبنت دي اتجوزت واحد غيره وهو ساب الدنيا كلها وجه وراها عشان يكون جنبها وقريب منها مثلًا، أووو يقف تحت بيتها مثلًا أو يحاول يتصل بها، ممكن يا دكتور»؟

ومنذ بداية هذه الجلسة وقبل أن ينطق بكلمة واحدة ومن خلال نظراته الشريرة تأكدت أنه قد عرف كل شيء، ولكنني لم أنكسر أمامه ولم أضعف وظللتُ على صمتي ونظراتي له، فصمت هو الآخر قليلًا ثم استند على ركبتيه وأدار هاتفه في وجهي وهمس في أذني قائلًا:

- «طيب إيه رأيك في الرسالة دي اللي وصلت لك إمبارح»؟

وبمجرد أن قرأت الرسالة أغمضت عيني وضغطت على أسناني التي كادت تتكسر من شدة الغيظ والغضب ليس منه بل من نفسي، فلأول مرة في حياتي أشعر أنني غبي أحمق، فرحتُ برسالة الأمس وأسرعت بالرد عليها فوقعت في الفخ، فرحي بكلماتها الجميلة أعمى عيني وجعلني لا أفكر ولو للحظة واحدة في أن يكون هذا الحقير هو من أرسل الرسالة وانتظر ردي ليكتشف الحقيقة وتتضح الصورة أمامه، ولكن كيف وصل إلى رقم هاتفي؟ وكيف أرسل الرسالة من هاتف نهلة؟ وبمجرد أن خطر هذا السؤال ببالي انتابني خوف شديد على نهلة، فمن المؤكد أنه بعدما اكتشف ما بيني وبينها قد حرمها من هاتفها ومن المحتمل أنه قد حبسها أو ضربها أو آذاها بأي طريقة، فهذا ليس ببعيد أو غريب على إنسان حقير مثله، دارت كل هذه الأفكار والاحتمالات بذهني في لحظات معدودة، ثم انتبهت فجأة على صوت ضحكته المستفزة التي أطلقها لتهز الغرفة وكأنه حاز نصرًا عظيمًا، وهنا تخليت عن صمتي الذي لم يعد له داعٍ بعدما انكشف كل شيء وقلت بمنتهى الهدوء:

- «أنا قدامك أهو وكمان مربوط يعني تقدر تعمل فيا اللي إنت عايزه، لكن أن بحذرك إنك تفكر مجرد التفكير إنك تأذي نهلة».

فضحك مرة أخرى ثم سكت فجأة وقال وهو يمسك بقميصي والشر ينطلق من عينيه:

- «طبعًا خايف على حبيبتك الخاينة، ما هو ده الطبيعي، إن الخاينة اللي زيها تحب كلب زيك والاتنين يخافوا على بعض لأنهم من نوعيّة واحدة»

فصرخت في وجهه قائلًا:

- «نهلة مش خاينة، نهلة أشرف منك، وأنا مش كلب، أنا أرجل منك، على الأقل أنا حبيت بنت حبتني وعشقتني وأنا أخلصت لحبها ووعودي معاها، إنما إنت إتجوزتها وهيا لا بتحبك ولا بتطيق منظرك ومفكر إنك هتقدر تسيطر عليها بمنصبك وسلاحك زي ما بتسيطر على الناس هنا».

فقال بصوت عالٍ وهو يجذبني من شعري:

- «أنا أقدر أسيطر على أي حاجة وأي حد في الدنيا».

فقلت وأنا أنظر في وجهه القبيح:

- «إنت كداب، لو فعلًا تقدر تسيطر، لو فعلًا قوي، مكنتش قابلتني هنا وسط حراسك وسلاحك، مكنتش واجهتني وأنا متكتف بالحديد، لو إنت راجل بجد كنت سيبت سلاحك

وقابلتني بره بعيد عن حراسك، لو أنت قوي ومسيطر زي ما بتقول كنت قدرت تخليها تحبك، لكن خلاص مستحيل لأنها حبت أمير، أمير الراجل بجد اللي حبها من غير قوة ولا سلاح ولا حراس واقفين تحت بيته يحموه ويراقبوا مراته».

ومن الواضح أن كلماتي قد أشعلت غضبه أكثر وأكثر وزادت من نيران الحقد التي تملأ قلبه فأخرج سلاحه وصوّبه نحو رأسي قائلًا:

- «أنا بكل سهولة ممكن أقتلك وأخفيك من الوجود كله».

وأخيرًا ظهرت الضحكة على وجهي بعد أن كنت قد نسيتها وقلت له ضاحكًا:

- «والله العظيم عارف إنك ممكن تقتلني وكمان مش هتتعاقب، لأنك هتعرف كويس إنت وحراسك تلاقوا مخرج من العقوبة، يعني ممكن بكل سهولة تقولوا إنه كان جاي يتهجم على القسم أو إنكم لقيتوا معايا متفجرات، لكن قولي بصراحة، لو قتلت أمير اللي قدامك ده وارتحت منه هتعمل إيه في أمير اللي جوه مراتك»؟

فصفعني هذا النذل على وجهي فلم أستطع وأنا في قيودي إلا البصق على وجهه قائلًا والغيظ يكاد يقتلني:

- «من حقك تعمل أكتر من كده لأنك ندل وجبان».

فأعاد سلاحه إلى غمده وعاد هو الآخر إلى مقعده ثم قال وهو يستعد للخروج:

- «هو أنا لسه عملت حاجة؟ أنا هسيبك دلوقتي، وقدامك حل من اتنين، إما إنك تكمل مسلسل الحب والحنان اللي إنت عايشهم ووقتها هعرّفك أنا مسيطر على الدنيا كلها ولا لأ، وإما إنك تشتري عمرك وتسيب البلد كلها ووقتها يمكن أرحمك».

٣٩

خرجت من القسم حزينًا منكسرًا وكل ما أشعر به أن الصدمة العصبية التي جعلتني طريح الفراش لأكثر من عشرين يومًا قد بدأت أعراضها تهاجمني مرة أخرى، فعدت غير قادر على السيطرة على تحركاتي وأعصابي، أمشي قليلًا ثم أجري كالمجنون، أرى المارين من حولي، أرى السيارات ولكني لا أسمع شيئًا، تبكي عيوني فأشعر أن الباكي هو قلبي، هو كبدي، هي كل أحشائي، تبكي حزنًا وقهرًا على ما وصلتُ إليه، على حبي الذي ضاع من بين يدي، على نهلة التي أصبحت في قبضة شخص حقير يراقب كل حركاتها وسكناتها، بل يتحكم حتى في أنفاسها، تبكي على كرامتي التي أُهدرت حتى أصبحتُ في أعين الناس متسولًا ومختلًّا فوصل بي الأمر إلى أن تمتد يد هذا الوغد إلى وجهي، ظللت على هذه الحالة حتى وصلت غرفتي بصعوبة.. فارتميت على فراشي أبكي بكاءً حارًّا وأصرخ بكل ما أوتيت من قوة لأخرج نيران قلبي، حتى إن عم طه جاء مسرعًا على صوت بكائي وصرخاتي وجلس بجواري واحتضنني متسائلًا:

- «ما لك يا أمير، إيه اللي حصل»؟

فقلت وأنا أبكي وأصرخ: «كل حاجة راحت يا عم طه، حبي ونهلة وكرامتي، كله راح».

فأخذ الرجل يهدئ من روعي حتى أجلسني على فراشي وجلس بجواري وأسند رأسي إلى صدره فبدأت أقصّ عليه ما حدث في قسم الشرطة وهو واضع يده على رأسه يتلو آيات من القرآن الكريم حتى انتهيت فقال الرجل في أسى بعد أن تنهّد تنهيدة طويلة:

- «يا بني إنت بتحب نهلة وهيا كمان بتحبك، لكن القدر وقف قدام الحب ده، ومين مننا يا بني يقدر يحارب القدر، أيوه بتحبها وبتعشقها ومش قادر تعيش من غيرها لكن مستحيل هتاخدها بالقوة، ده إنت حتى لما حاولت تقرب منها أو حتى تسمع صوتها الدنيا كلها وقفت ضدك، اللي مكتوب لك هتشوفه يا أمير واللي مش مكتوب يا بني مش هتشوفه حتى لو كنت أقوى إنسان في الدنيا، مش هتشوفه».

ثم سكت قليلًا ونظر في عيني وقال برفق: «ارضى بالنصيب يا بني وسيبها تعيش وإنت كمان ارجع لبيتك وشغلك وحاول تعيش».

فالتفت إليه وقلت والدموع تملأ عيني: «صدقني يا عم طه مش هقدر، حياتي من غيرها عذاب، أنا أتمنى الموت ولا إني أعيش من غيرها».

فقاطعني الرجل قائلًا: «متقولش كده يا بني، إنت لسه في عز شبابك ولسه الحياة قدامك».

فقلت وأنا ما زلت أبكي: «لا ياعم طه، هيا دي الحقيقة، أنا فعلًا بتمنى الموت، ومتأكد إن موتي هيكون فيه راحة للجميع، راحة ليا أنا لأني مش هقدر أعيش من غيرها، راحة لمراتي اللي كانت متأكدة إني على علاقة بواحدة تانية غيرها، راحة لأولادي أحسن ما يكبروا ويلاقوا أبوهم مجنون، راحة لنهلة اللي ممكن تعيش وتكمل حياتها بعد ما اختفي من الوجود كله».

وبينما نحن مندمجان في حوارنا إذ انتبهنا لطرق الباب، فقام عم طه وفتحه لأجد الطارق هو الحاج سعيد والذي دخل بعد أن ألقى التحية وسلم عليَّ وجلس بجواري ثم قال بنبرة جادة حازمة:

- «إنت هترجع معايا الصبح يا أمير، ولولا إني مش بحب سفر الليل كنت أخدتك ورجعنا دلوقتي».

فلم أرد عليه واكتفيت بالنظر إليه وأنا غارق في بحر آلامي وأحزاني فاستأنف كلامه قائلًا:

- «أنا اتفقت مع واحد صاحبي ووصفت له العنوان ده ووعدني إنه هيكون موجود الصبح ومعاه العربية بتاعتك ونرجع القاهرة».

أنهى الحاج سعيد كلامه وظللت أنا على شرودي وتفكيري حتى قطع عم طه هذا الصمت وقال باسمًا:

- «إحنا نطلع كلنا نتعشى على السطح بره أحسن من الخنقة دي والصبح يحلها ربنا».

وافقنا على اقتراح عم طه وتناولنا العشاء على سطح البيت وبعد العشاء دخل الحاج سعيد وعم طه في وصلة من استعادة الذكريات وأيام الشباب، بينما قمت أنا واتجهت نحو السور ونظرت إلى البحر وبدأت الابتسامة ترتسم على وجهي، وأنا أتخيل وجهها على صفحات الماء وأسمع ضحكتها الرائعة في أذني وأتذكر خفة ظلها في حواراتنا، التي كانت تمتد كل يوم للفجر، وكلما تذكرت تعليقًا من تعليقاتها الساخرة ازداد وجهي إشراقًا وكأنها تتحدث أمامي:

- آه صحيح قوليلي يا نهلة

فترد وهي تضحك: يا نهلة

- احترمي نفسك.
- الله، مش إنت اللي بتقولي قوليلي يا نهلة؟

***

- أنا بغير عليكي حتى من الهدوم اللي لبساها
- حبيبي لو المشكلة في الهدوم أنا ممكن أقلعها

***

- وإنتي مش هتمشي جنبي وتحطي إيدك في إيدي يا نهلة؟
- بطل رخامة وامشي قدامي وإنت ساكت خاالص

***

- عارف يا أمير، وإنت ماشي قدامي، كان نفسي أمشي جنبك وأمسك إيدك وأقول للناس كلها ده حبيبي أنا، كان نفسي أمنع كل البنات اللي في الشارع إنهم يبصوا عليك وأقولهم ده ملكي أنا وبس.

***

- على فكرة يا أمير أنا كنت ملاحظة من أول ما عرفتك إنك رومانسي أوي ومثقف أوي وشيك أوي وكلامك مرتب ومنظم وحلو أوي، لكن بصراحة، النهاردة بس أول مرة أعرف إنك قليل الأدب أووووي.

***

- أمير، قولي بحبك يا نونا، أنا بحب أسمعها منك أووووي.

ظللت أستعيد ذكرياتنا الجميلة والابتسامة تملأ وجهي حتى انتبهت للحاج سعيد يضع يده على كتفي قائلًا:

- «أول مرة أشوفك بتبتسم من زمان».

فقلت له مبتسمًا: «أجمل حاجة يا خال إنك تعيش مع الإنسانة اللي بتحبها وبتحبك وحتى لو مش موجودة معاك تعيش على ذكراها وحتى لو هتموت تموت وإنت مخلص لحبها».

فقال متعجبًا من كلامي: «طيب يلا يا فيلسوف ننام علشان ورانا سفر الصبح».

فقلت وقد اختفت الابتسامة من وجهي:

- «لو مرجعتش معاك متزعلش يا خال، وأمانة عليك تاخد بالك من الحسن والحسين وتربيهم في حضنك زي ما ربيتني».

فتغيّر وجهه وقال بصوت عالٍ حاد: «مش بمزاجك يا أمير، هترجع يعني هترجع».

فأمسكت بيده واتجهت به إلى غرفتي قائلًا: «طيب بلاش تتعصب ويلا عشان تنام».

٤٥

استلقى الحاج سعيد على فراشه وراح في نوم عميق واستسلمت أنا أيضًا للنوم بعد يوم شاق اعتبرته أتعس وأشقى أيام حياتي لما رأيته فيه من آلام وأحزان وإهانات.

ولكن وكعادتي في الأيام الأخيرة انتبهت فجأة على صوت قرآن الفجر ويد تداعب شعري، فتأكدت أنها حور ففتحت عيني لأراها ولكن الغريب أن ابتسامتها التي كانت تزين وجهها قد اختفت في هذه الزيارة، كما أن صوتها الرقيق قد شابه الحزن وقالت وهي تمسك بيدي: «يلا يا أمير»!

فسألتها متعجبًا: «يلا على فين يا حور»؟

فقالت والدموع تملأ عينيها: «كفاية تعب وآلام ودموع يا أمير، إنت اتحملت كتير وأنا وعدتك إني هريحك، وجيت دلوقتي علشان أريحك».

فجلستُ على فراشي وقلت متلهفًا: «هتوديني عند نهلة»؟

وأخيرًا ابتسمت حور فعرفت أنها وافقت على طلبي فانتفضتُ من مكاني واتجهت نحو الباب ولكنها استوقفتني قائلة: «استنى يا أمير، هات معاك كل حاجة بتحبها».

فقلت متعجبًا من طلبها: «أنا معنديش حاجة هنا يا حور أجيبها معايا».

فقالت: «لا يا أمير، هات سبحة أبوك وهات نص القلب بتاع نهلة، وهات الرواية اللي وعدت نهلة إنك تكتبها باسمها وهات تليفونك، ولا مش هتسمع الشيخ محمود التهامي»؟

فسألتها متعجبًا: «هو إحنا مش هنرجع هنا تاني»؟

ولكنها لم تجب واكتفت بنظرتها الباكية وهي تتقدمني نحو الباب، فاستجبت لمطالبها وخرجت خلفها من الغرفة على أطراف أصابعي حتى لا ينتبه الحاج سعيد ويمنعني من الخروج، وبمجرد أن نزلنا الشارع طلبتْ مني أن أفتح هاتفي وأشغل أنشودة الشيخ محمود، فنفذت طلبها وبدأ صوت الشيخ محمود التهامي يسري وسط سكون الشارع وقت الفجر:

كـــم ليلـــةٍ منـــع الغـــرام منامـــي!

وحـــلا لقلبـــى فى هـــواك ســـقامي

ووقفـــت فى بحـــر المحبـــة خاضعًـــا

بتـــــذلل وتخشـــــع وهيـــــامي

وتزايــدت نيـــران قلبــي حرقــة
ورمــى عــزولي مهجتــي بسهـــام
ورأى عــزولي لوعتــي وصبابتـــي
فبكــى لعظــم تهتكــي وغرامـــي
لو زار طيفك ياحبيبي يومًا في الكرى
لقنعــت منــه آه ولــو بــرد سلامــي
ولقــد شــفيت مــن الغــرام بذكــره
فالمــدح نقــلي وعقلـــي وكلي والحبيــب مدامـــي
يــا واعــدي بالوصــل منــه تعطفًــا
أنجــز بوصلــك قبــل يــوم حمامــي

ظللت أستمع لصوت الشيخ محمود حتى وصلت إلى البيت الذي تسكنه نهلة، وبمجرد أن وصلت ورآني أفرد الأمن تجمعوا حولي وكأنهم عثروا على صيد ثمين، فنظرت خلفي لأستنجد بحور لكنني فوجئت بأنها اختفت وتركتني وحيدًا مع هؤلاء الذئاب الذين أخذوا يتطاولون عليَّ بألسنتهم وأيديهم وأنا ساهم أمامهم لا أحرك ساكنًا أتلقى اللكمات والركلات وعيناي متعلقتان بشرفتها حتى اشتدت الآلام بجسدي، ولم أعد قادرًا على التحمل، فصرختُ بكل ما أوتيت من قوة أناديها: نهلة.. نهلة.. نهلة! فبدأت ضرباتهم ولكماتهم تزداد وتتعمق في جسدي، وبدأ الصوت يعلو في الشارع الساكن وقت الفجر، وبدأت بعض الشرفات

تُفتح حتى إن الحاج فاروق صاحب البيت نزل من مسكنه وذُهل من هذا المنظر فحاول أن يتدخل لينقذني فأصابته لكمة من لكمات أفراد الأمن فسقط على الأرض ثم انتبهتُ لصوت يناديني من بعيد محذرًا.

- «ارجع يا أمير! ارجع يا أمير»! فالتفت خلفي لأتبين مصدر الصوت فوجدت عم طه يأتي من بعيد مستندًا على عصاه ومعه الحاج سعيد الذي جثا على ركبتيه من هول الصدمة التي انتابته عندما رأى أفراد الأمن وهم ينهالون عليَّ بالضرب بعصيهم الغليظة والدماء تسيل من كل جسدي، فنظرتُ إليه حزينًا مشفقًا، ولكنني ابتسمت فجأة عندما سمعت صوتها، بالفعل هو صوت نهلة، فنسيت جراحي وآلامي ورفعتُ رأسي لأمتّع عيني برؤية وجهها الجميل فوجدتها واقفة في شرفتها متعلقة بذراع ذلك النذل الحقير تجذبه بقوة وهو يصوّب سلاحه نحوي وهي تصرخ بكل ما أوتيت من قوة: «ابعد يا أمير.. ابعد يا أمير.. ابعد بسرعة يا أمير»!

***

ولكن مجنون نهلة لم يهتم بأي تحذير أو تهديد ولم يسمع إلا صوتها ولم ير إلا صورتها وهي تبتسم أمامه ونسي أحزانه وأوجاعه والدماء التي تسيل من جسده وتخيلها وسط هذا الزحام، وهي تقول بخفة ظلها جملتها التي كان يحبها «قولي بحبك يا نونا» فرفع رأسه وابتسم عندما رآها ووقعت عينه في عينيها وتحركت شفتاه قائلة بهمس «بحبك يا

نونا»، ولكن نظرته لم تطل وابتسامته لم تدم وهمساته لم تكتمل، فبمجرد أن رفع رأسه وارتسمت البسمة على وجهه انطلقت رصاصة من سلاح ذلك النذل لتستقر في صدره، فسقط الهاتف من يده ليسكت صوت الشيخ محمود التهامي وانفرط عقد المسبحة السوداء وتناثرت حباتها على الطريق، وسقط أمير على الأرض قتيلا وهو قابض بيده على نصف قلبها ويده الأخرى تحتضن الرواية التي تحكي قصة حبهما، وعلى الرغم من دمائه التي خضّبت صفحاتها، إلا أن عنوانها ظلّ واضحًا جليًّا ليحكي للعالم أجمع قصة المجنون، «مجنون نهلة»

مع تحياتي

خالد عبد العظيم عويس

الكاتب في سطور

خالد عبد العظيم أحمد علي، وشهرته خالد عبد العظيم عويس، من مواليد محافظة الفيوم، حاصل على ليسانس الآداب والتربية (قسم اللغة العربية)، بدأ الكتابة مع بداية دراسته الجامعية، كتب العديد من الروايات وأشهرها (على باب سيدي منصور–كنوز الأب سلمان–عطايا الملك) وله ديوان شعر بالعامية المصرية بعنوان (زهرة الصبار) كما شارك في كتاب مجمّع للقصة القصيرة بعنوان (رسائل حائرة) وشارك في دواوين شعر مختلفة وأشهرها: (حيثما كان قلبي–كيوبيد ٢).

كاريزما
للنشر والتوزيع